رسائل الأهالي

على طريق الهند

رسائل الأهالي

الرسالة الاولى

على طريق الهند

طبعة جديدة



١٣٥٤ هـ — ١٩٣٥ م

مطبعة الاهالي * بغداد

اخرجت الطبعة الاولى من كتاب « على طريق الهند » في رسالة الاهالي الاولى سنة ١٩٣٢ ، وكان عدد نسخها قليلاً فنفذ في مدة وجيزة ولم تسنح الفرصة لإعادة طبعه حتى أوائل صيف هذا العام . فلما بوشر في اعادة الطبع — وكان المقرر اجراء بعض التنقيحات اللغوية وغيرها — وجد ان الكثير من مواضيع الكتاب تقتضي الكتابة من جديد ، حتى اذا تم الطبع جاء الكتاب على هذا الشكل وقد احتفظ بمواضيعه الاولى وأفكاره الاساسية وان جرى البحث فيها هذه المرة باسهاب أكثر جعل حجم الكتاب يقارب ضعف حجمه الاول . وقد اضيف الى الفصل الثالث بحث في أهمية الهند للرأسمالية الانكليزية والى الفصل العاشر بحث في بوادر اليقظة في الهند ، واكملت المواضيع الاخرى باضافة ماجرى من التبدلات والتطورات في ظرف الثلاث سنوات الاخيرة . ويرى القارئ في آخر الكتاب قائمة المصادر ؛ وقد اغفل ذكر الجرائد اليومية فيها اذ اكتفي بالتنويه بها في حواشي الفصول . وقد وقعت في فصول الكتاب بعض الاغلاط اللغوية والمطبعية بالرغم من العناية التي بذلت في تجنب ذلك ؛ ويرى القارئ البعض منها مذكوراً في قائمة الخطأ والصواب .

وقد اعتني عناية خاصة بجعل هذا الكتاب نافعاً للجيل الجديد ،

يعينهم في الوقوف على الوضع الراهن في الشرق الادنى بصورة عامة وفي العراق بوجه خاص ؛ فعسى أن يتحقق القصد .

و يتقدم المؤلف في الاخير بالشكر للذوات الذين أعانوه في إعادة إخراج هـــذا الـكتاب سواء منهم الذين أعاروه الـكتب أو الذين ساعدوه في الاشراف على الطبع .

بغداد في ٢٤ آب ١٩٣٥

فهرس الكتاب

البريطاني ، ظهور رضاخان ، تصديق المعاهدة الروسية الايرانية ، رفض المعاهدةالانكليزيةالايرانية . خلع الشاه وتنصيب رضاخان رئيساً للحكومة ، المناداة برضا شاه بهلوي ملكا . ايران فى عهدها الجديد .

مغامرات أمان الله ضد الاستعمار : بوادر اليقظة فيأفغانستان ، صلات بريطانية وروسية ، الامير عبدالرحمن . أفغانستان فى الحرب العامة . أمان الله يعلن الاستقلال : تأسيس العلاقات الدبلوماسية مع روسية ، الحرب مع الانكليز وصلح راوال بندي ، تأسيس العلاقات الدبلوماسية مع الدول . اصلاحات أمان الله . الثورة المدبرة . نادر شاه .

بوادر اليقظة فى الهند : حالة الهند . الرأسمالية الانكليزية فى دورها الثالث . الثورة الاولى ، أثر الفضائح التي ارتكبها الانكليز . الحركة الوطنية فى دورها الاول ، المؤتمرالوطنيالهندي ، المؤتمر يمادي انكلترة ، دلائلالثورة فيسنة ١٩١٢ ، انكلترة تسترضيالهنود قبيلالحربالعامة . اصلاحات ١٩١٩ . المهاتما غاندي وقواعده الثلاث . الحركة الوطنية بين ١٩١٩ و ١٩٢١ . الرأسماليون الهنود يتراجعون . الحكم على غاندي . انقسام الجبهة الوطنية . مفاوضات الوطنيين والانكليز ، مؤتمر الطاولة المستديرة ، انخذال غاندي وانصرافه الى قضية المنبوذين . الحركة الوطنية فى دورها الثوري .

الحركة الوطنية فى مصر : محمدعلي الكبير ، الخديو اسماعيل باشا ؛ الطبقة الارستوقراطية . الوضع الاقتصادي . الوطنية التقليدية : الدور الاول ، عرابي باشا ؛ الدورالثاني ، مصطفىكامل ، الدورالثالث ، الحرب العامة ، سعد زغلول والوفدالمصري ، نفي سعد ورفاقه ، اللورد اللنبي ، الاضراب والمظاهرات ، زغلول فى باريس ، بعثة ملنر ، عودة زغلول ونفيه الى سيشل ، تآمر الارستوقراطيين مع الانكليز ، تصريح ٢٨ فبراير ، انتخاب البرلمان وفوز الوفد ، مفاوضات زغلول ومكدونالد ، المحافظون يوقعون بالوفد . اتحاد الجهات العليا مع الانكليز ضد الوطنيين . حركة العمال فى مصر . الوطنية التقليدية على حافة الزوال .

تأثير الحركة الثورية فى روسية على الشرق . صلات روسية بالشرق بعد

١٩١٧ ؛ الدولية الثالثة ومساعيها ، مؤتمر الشعوب الشرقية ، الدولية الثالثة بعد تقرير السياسة الاقتصادية الجديدة .

تعاون السوفيت مع حكومات الشرق الحديثة . السياسة الصريحة . الغاء الامتيازات واعادة المستعمرات والحقوق المغصوبة . معاونة تركية في نهضتها ، معاهدة ١٩٢١ . المعاهدة الروسية الايرانية . المعاهدة الروسية الافغانية . روسية والجبهة الشرقية ضد الاستعمار ، عصبة الامم الشرقية . خروج روسية من عزلتها : صلاتها الحديثة بتركية وتوحيد سياستها الخارجية ، صلاتها بدول أوربا . الجبهة الروسية التركية . أثر روسية في سياسة تركية الاقتصادية والاجتماعية ، مشروع السنوات الخمس التركي ، أثر النظام السوفيتي في نظام الجمهورية التركية . تأثير السوفيت في ايران وأفغانستان . الجبهة الشرقية ضد الاستعمار .

٣١٠ الفصل الثاني عشر : العراق مقر المقاومة البريطانية في الشرق الاوسط والادنى

النزاع الاستعماري في الشرق الادنى ؛ الوحدة الاسلامية والدعوة العنصرية . الدعوة العنصرية في سورية . انكلترة في بلاد العرب : انكلترة وابن السعود ؛ الانكليز يستعينون بامراء العرب ضد الوحدة الاسلامية ؛ السر خزعل والسيد طالب باشا والقضية العربية في العراق ؛ شريف مكة والقضية العربية . اشتداد الصراع بين الوحدة الاسلامية والوحدة العربية قبيل الحرب العامة ؛ مساعي الانكليز في نجد والخليج والحجاز ؛ فكرة مؤتمر الامراء ؛ الانكليز يستخدمون دعاة القضية العربية ؛ أغراض الحملة الانكليزية على العراق ، السر برسي كوكس ومساعيه . الحرب العامة وأثرها بصلات بريطانية بالعرب . انقسام الانكليز الى فريقين : فريق الهند وفريق القاهرة ؛ فوز الفريق الاول في أوائل الحرب ، رجحان كفة الفريق الثاني بعد معركتي غاليبولي والكوت . اللورد كتشنر والشريف حسين والسر هنري مكماهون ، وعود الانكليز ، الكولونيل لورنس ، من سلطان العرب الى ملك الحجاز . بريطانية تعيد النظر في سياستها ببلاد العرب ؛ اتفاقية سايكس بيكو ، وعد بلفور ، الثورة الروسية .

المعاهدات السرية وعلاقة بريطانية بها وصلتها بحماية الهند . انخذال السياسة

ص	س	الخطأ	الصواب
٢٥	١٥	الملكتين	الملكتان
٢٧	١٩	ثمانية	ثمانياً
٢٩	١٥	ثلاثة	ثلاثاً
٣٤	٦	عدا عن ما	عدا ما
٣٨	١١	ناهيك في	ناهيك من
٤٦	١٠	مما	ممن
٦٢	٩	محام	محامياً
٧١	١٨	اتمن	اؤتمن
١١٠	٤ و ١١	فرنكا	فرنك
١١٦	١٦	نتسن	نتسى
١٣٦	٧	دعى	دعا
١٤٥	١	وخمس*	وخمسة
١٥٤	١٦	هيرودوكس	هيرودوتس
١٦٦	١٧	الاربعة عشر*	الاربع عشرة
١٩٦	٤	٢٥و ٢٤	٧٥و ٢٣
٣٠٦	١	وورسية	وروسية

* تكرر وقوع الاغلاط من هذا القبيل في بضعة أماكن من الكتاب فاكتفينا بالاشارة الى احداها

البـــاب الاول

طريق الهند

الفصل الاول

الخليج الفارسي

(١) نظرة في جغرافية الخليج :

الخليج الفارسي فجوة بين هضبتي ايران وبلاد العرب ، تبلغ مساحتها ٩٧٠٠٠ ميل مربع ، تكتنفها الجبال من الشرق ومن جهة عمان في الجنوب الغربي . وتقع سواحل الخليج في ثلاثة أقسام : السواحل العربية والسواحل الشمالية والسواحل الفارسية (١) .

اما السواحل العربية فتشتمل على الكويت والاحساء والقطر والسواحل المهادنة وسلطنة مسقط ، وهي منبسطة تكتنفها التلال ، وأكثرها قاحل الا بقاعاً صغيرة كالارض الكائنة قرب الجهرة ، وواحتي الاحساء والقطيف اللتين تنبت فيهما النخيل وتغمرها مياه الينابيع فتجعل منهما أرضاً صالحة لزراعة الرز ، ووادي المليه الواقع في طرف الاحساء الشمالي وبقاعاً اخرى خصبة كائنة على نهايات الوديان القريبة من أراضي عمان . وأهم ما في الجزء الجنوبي منها هضبة تمتد جنوباً موازية للساحل حتى تصل رأس الحد ، يفصل شمالها عن البحر سهل الباطنة الذي يبلغ طوله ١٥٠ ميلاً وينتهي بالقرب من مسقط ، وفيه بقاع خصبة تكثر فيها واحات النخيل . وفي هذا القسم تعاريج كثيرة لا يصلح منها لرسو السفن غير البحرين والكويت ومسقط ومطره ؛ ويحاذيه عدد غير قليل من الجزر أغلبها صخرية جرداء قائمة في البحر

---

(١) ص ٢ من : Wilson. Lt-Colonel Sir Arnold. T., The Persian Gulf (Oxford 1928)

إلا جزيرة البحرين التي تبلغ من الطول ثلاثين ميلاً ومن العرض عشرة أميال وفي نهايتها الشمالية قطعة خصبة يبلغ عرضها ثلاثة أميال مغطاة بأشجار النخيل .

وتتألف سواحل الخليج الشمالية من سواحل العراق وعربستان المكوّنة من سهول مستوية جرداء ، إلا ضفاف شط العرب و بعض شواطئ كارون . والسواحل التي في رأس الخليج منخفضة الاراضي تكسوها المستنقعات ، وأهم لجواتها مصب شط العرب وخور موسى وخور الزبير . وليس في هذا القسم من المراسي غير مرسى بندر ديلام للسفن الصغيرة . وأهم الجزر المحاذية له جزيرة بوبيان الواقعة في الزاوية الغربية الشمالية وجزيرة عبادان الكائنة بالقرب من مصب شط العرب . وأهم موانيه اثنان ميناء البصرة وميناء المحمرة ، يقع الاول على بعد سبعين ميلاً من مصب شط العرب ، والثاني على ترعة الحفار عند ملتقى نهر كارون بهذا الشط وقد أصبح في استطاعة البواخر البحرية الكبيرة الوصول الى هذين الميناءين بعد حفر سد الفاو عام ١٩٢٧ .

وتمتد السواحل الفارسية بين بندر ديلام وحدود بلوجستان ، وفيها عدة مرافئ متصلة بطرق القوافل التي تخترق هضبة ايران ، أهمها : مرفأ بوشهر الذي يبعد مائة وأربعين ميلاً عن مصب شط العرب ، وبندر عباس وهو الميناء الطبيعي للقسم الجنوبي الشرقي من بلاد فارس لاتصاله بطرق القوافل ، ولنجه التي تبعد ستة وتسعين ميلاً عن بوشهر ، وجسك الواقعة جنوب شرق بندر عباس . و يمتد بمحاذاة هذه السواحل عدد من الجزر منها جزيرة هرمز والجزيرة الطويلة (قشم) ولرك وشيخ شعيب وقيس وهنجام .

وأغلب سكان السواحل الفارسية عرب امتزجوا بالفرس واستعجم معظمهم ففشت بينهم اللغة الفارسية ؛ ويرجع أصلهم الى قبائل كعب التي هاجرت من نجـد الى ضفاف شط العرب وعربستان في القرن السابع عشر[1] ؛ ومنهم من ينتسب الى الدواسر والعجمان والبو علي وشمر ، وقد عبروا الى هذه السواحل من السواحل العربية المقابلة . وفي السواحل الواقعة على مقربة من بلوجستان قبائل عربية نزحت اليها من السند ، قيل انها من العرب الذين افتتحوا الهند في العهد الاموي .

(ب) فذلكة في تاريخ الخليج :

لو ألقى المرء نظرة على خليج فارس بما فيه من جزر قاحلة مبعثرة قرب سواحله الجرداء لوجد ان للانكليز في كل زاوية من زواياه مركز نفوذ وان اليد المستعمرة قد قبضت على رقاب معظم الشيوخ والامراء فيه فجعلتهم طوع ارادتها . ويرجع تاريخ هذا الاستعمار الى بداية القرن السادس عشر و يتصل باكتشاف رأس الرجاء الصالح واستعمار الهند .

كان الخليج بعد سقوط الدولة العربية ساحة للمعارك التي نشبت بين عدد كبير من شيوخ القبائل العربية الذين تنازعوا السلطة فيما بينهم وأغاروا على بعضهم لامتلاك الاراضي . وبينما هم في نزاعهم هذا اذ داهمهم البرتغاليون

---

(١) Wilson ص ١٨٧

(٢) ص ٣٤ من : Persian Gulf, Handbook Prepared under the direction of the Historical Section of The Foreign Office. No. 76. London, His Majestys Stationary Office, 1920

واستفادوا من تشتت قواهم فاستولوا على كثير من المراكز المهمة في الخليج .

ثم جاء الانكليز بعد ذلك وتعاونوا مع الفرس فتمكنوا من انتزاع النفوذ من أيدي البرتغاليين . وجاء في هذا الاثناء التاجر الهولندي يبحث عن المال فانضم الى جبهة الفرس والانكليز .

ولما هوت الامبراطورية البرتغالية ولى البرتغاليون الادبار فأصبح الخليج في قبضة الفرس . ثم آل النفوذ فيه الى الانكليز وقوى سلطانهم في جميع أرجائه سيما بعد ان تحولت مصالحهم التجارية الى مصالح سياسية عقيب استعمارهم الهند .

وفيما يلي نبذة عن تاريخ أهم مراكز الخليج تبين للقاريء كيف سار الاستعمار في جهاته وكيف انتهى الامر بسيطرة الانكليز على شؤونه .

هرمز : كان اسم هرمز يطلق على مدينة قائمة على الساحل المقابل لجزيرة هرمز في محل يدعى الآن ميناب ، قد شيدها الملك اردشير بابكان في أوائل القرن الثالث[١] . ثم بنى العرب في القرن العاشر مدينة سميت بعين الاسم (اكتشفت آثارها شرق بندر عباس) بقوا فيها الى ان أخرجهم منها المغول فالتجأوا الى جزيرة هرمز الحالية وكانت تدعى يومئذ زايرون أو (جيرون) فبنى فيها أميرهم قطب الدين في القرن الثالث عشر مدينة أطلق عليها اسم هرمز تخليداً لذكر موطنهم الاول[٢] .

---

(١) Wilson ص ١٠٢ و ص ٤١٣ ج ٢ من : Curzon, Hon. G. N. (M. P.) Persia and The Persian Question. 2 Vols. London 1892

(٢) Curzon ج ٢ ص ٤١٤ و Wilson ص ١٠٤ . وفي هذا الكتاب معلومات وافية عن تاريخ هرمز

وامتد سلطان الامارة العربية الجديدة الى البحرين و باقي مراكز الخليج وأصبحت صاحبة النفوذ في السواحل الفارسية والعربية وبقيت زاهرة بعمرانها حتى احتلها البرتغاليون سنة ١٥٠٥ فجعلوا منها مركزاً تجارياً لهم بقوا فيه الى ان أخرجهم منها الشاه عباس الاول بمعونة الانكليز عام ١٦٢٢[١]. ثم أسس الشاه عباس الاول مدينة بندر عباس (نسبة اليه) في محل مقابل للجزيرة يدعى كمبرون[٢]. وبذلك خسرت هرمز أهميتها التجارية فهجرها أهلها فاصبحت صخرة جرداء لا أهمية لها الا لموقعها في مدخل الخليج[٣]. وقد بقيت بندر عباس مركزاً للتجارة مدة قرن ؛ وأسس فيها الانكليز والهولنديون والفرنسيون مراكز تجارتهم ، وكان للأولين فيها امتيازات خاصة لأنهم ساعدوا الشاه في طرد البرتغاليين ، منها انهم كان لهم الحق في رفع رايتهم على بيت وكيلهم فيها[٤]. فلما عمت الفوضى بلاد فارس بعد وفاة نادرشاه غادر التجار الاجانب بندر عباس وأسسوا مراكز تجارتهم فى البصرة وبوشهر[٥].

مسقط : اما مسقط فهي جزء من عمان ، انفصلت عن الدولة العباسية فى القرن العاشر[٦] وكونت من نفسها امارة مستقلة كان يحكمها أول الامر امام ينتخبه الشعب ، ثم انحصرت الامارة فى عائلة السيد ناصر بن المرشد

---

(١) ص ٢٧٩ ج ٢ من : Sykes, A History of Persia. 2 Vols.

(٢) Curzon ج ٢ ص ٤١٧ — ٤١٨.

(٣) وهي تحريف كلمة « كمرك » التركية . Sykes ج ٢ ص ٢٧٩

(٤) Curzon ج ٢ ص ٤٢١

(٥) Wilsen ص ١٨٧ و Handbook

(٦) Handbook ص ٤٠

(١٦١٨ — ١٦٤٤) .

ولم تكن مسقط على شيء من الاهمية حتى اتخذها البرتغاليون مقراً تجارياً لهم بعد خروجهم من هرمز سنة ١٦٢٢ . فلما تضاءل نفوذهم نجح أهل البلاد في طردهم منها عام ١٦٥٠ بعد نزاع دام زهاء عشر سنين[١] ثم راحوا يطاردونهم في البحار حتى انتزعوا منهم المراكز التجارية في سواحل افريقية الشرقية . قويت يومئذ شوكة عرب عمان فخافهم شاه ايران وطلب الى شركة الهند ان تساعده في القضاء عليهم فلما أبت هاجمهم بجيشه واستولى على مسقط عام ١٧٣٧ . وبقيت هذه المدينة خاضعة لفارس حتى قام من بين أهلها رجل عصامي يدعى أحمد بن سعيد كان في أول أيامه يرعى الجمال فجمع شتات قومه وطرد الفرس فانتخبه الشعب اماماً تقديراً لفضله وهو رأس العائلة السعيدية[٢] .

وفي سنة ١٧٩٣ ثار سلطان بن أحمد على عمه الأمام فاستولى على مسقط وعلى ما يجاورها من الموانيء كمطره وبرقه وأقام له فيها إمارة مستقلة هي سلطنة مسقط ، ولقب بالسيد سلطان وترجع أول صلات بريطانية بمسقط الى عهده[٣] .

ولما قتل السيد سلطان في المعركة التي نشبت بينه وبين الجواسم سنة ١٨٠٤ خلفه ابنه السيد سعيد ، وقد دام حكمه حوالي الخمسين سنة نشبت

---

(١) Wilson ص ١٥٤ — ١٥٥ .

(٢) ص ٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ من :

Miles, The Countries and Tribes of The Persian Gulf. Vol. 11

(٣) Wilscn ص ٢٣٢

خلالها بينه وبين الوهابيين معارك كثيرة كانت مما ساعد على امتداد نفوذ الانكليز في بلاده فقد اتخذوا منها ذريعة للتدخل في شؤون العرب تدخلاً ظاهره الرغبة في التوسط للصلح بين المتحاربين وباطنه العمل على بسط نفوذهم وسيادتهم في البلاد . وقد استخدم الانكليز سفن مسقط لاخضاع عرب السواحل وبسط نفوذهم الاستعماري في الخليج(١) .

ومما سهل للانكليز التدخل في شؤون هذه السلطنة والسيطرة عليها انشقاق عائلة الامارة ، فكانوا يؤيدون من يأنسون منه الخضوع لمشيئتهم من أفراد العائلة ويساعدونه في تولية الحكم ويقيمون في وجه الآخرين العراقيل أو لا يعترفون بهم وقد توسلوا بالمعاهدات لتحقيق مآربهم فعقدوا مع السلطان سلسلة اتفاقيات استلوا في كل واحدة قسطاً من سيادته ؛ ففي سنة ١٨٦٤ عقدوا اتفاقية مد الاسلاك البرقية وفي سنة ١٨٦٥ عقدوا اتفاقية اخرى لعين الغرض وفي سنة ١٨٧٣ عقدوا « معاهدة مقاومة تجارة الرقيق » اشترطوا فيها على السلطان ان يسمح لهم باقامة ثلة من الجند في دار وكالتهم ، ثم عقدوا معاهدة « صداقة وتجارة » تعهد فيها السلطان ان لا يمنع توريد أو تصدير أي نوع من المواد التجارية وان لا يضع الرسوم الكمركية الا بموافقتهم . وكانت الحكومة الانكليزية قد نظرت قبل عقد هذه الاتفاقية في أمر رفع القناع عن أغراضها الحقيقية واعلان الحماية على مسقط بالنظر للرغبة التي أظهرتها فرنسة في بسط نفوذها هناك ، لكنها فضلت الاستمرار على عقد المعاهدات فعقدت في سنة ١٨٩١ معاهدة جديدة أخذ

(١) Miles ص ٢٢٥ و Curzon ص ٤٣٦

فيها السلطان على نفسه « وخلفائه وذريته العهود بان لا يتنازلوا عن أي جزء من أراضي امارتهم ولا يؤجرونه أو يبيعونه أو يأذنون باحتلاله لأحد غير بريطانية العظمى »[١] . وكانت انكلترة بعد سنة ١٨٧٣ تدفع الى السلطان مساعدة مالية سنوية اعتبرها أجراً لمساعدته اياها في مقاومة تجارة الرقيق واعتبرتها هي والدول الاوروبية الاخرى دليلاً على خضوعه وتابعيته لها[٢] .

البحرين : وهي الجزائر المشهورة بتجارة اللؤلؤ ؛ يبلغ طول أكبرها ثلاثين ميلاً وعرضها عشرة أميال وفيها مدينة البحرين (أو المنامه) والمحرق والرفاع والحد والبديع ، و يبلغ عدد سكانها المئة الف نسمة[٣] . وقد ذكر الطبري ان القبائل العربية نزحت اليها في القرن الثالث قبل المسيح ، و بقي الامراء العرب يحكمونها حتى أوائل القرن السادس عشر حينما استولى عليها البرتغاليون بعد ان خربوا المنامه سنة ١٥٢١[٤] . ولا تزال آثار حصنهم فيها باقية قرب « البلد القديم » .

بقي البرتغاليون في البحرين حتى أخرجهم منها الشاه عباس الاول سنة ١٦٢٢ ، وقد حكمها الفرس حتى عام ١٧٨٣ حيث استولى عليها عرب العتوب بعد ان عبروا اليها من الزبارة المقابلة لها على السواحل العربية . ثم

---

(١) Wilson ص ٢٢٧

(٢) ص ١٩٦ من : Earle, Turkey, The Great Powers and the Begdad Railway

و ص ٨ من : Dunn, British Interests in the Persian Gulf. New York 1924

(٣) Handbook ص ٣١ (احصاء سنة ١٩٢٠)

(٤) Wilson ص ٢٤٥ و Miles ص ١٥٤ .

هاجم البحرين بعد ذلك أمير مسقط فاستنجد أهلها الوهابيين فردوا الأمير عنها ولـكن هؤلاء استولوا عليها ولم يخرجوا منها الا عام ١٨١٠[١].

ان البحرين لم تكن مطمح أنظار أهل نجد وعمان فحسب فقد طمعت بالاستيلاء عليها فارس والدولة العثمانية وانكلترة حتى أصبحت الجزيرة تتخبط بين أهواء الطامعين حتى قيل ان شيخها كان يرفع فوق قلعته في بعض الاحيان أعلام الدول الثلاث[٢]. ولما كانت انكلترة أشد بأساً وأقوى عزماً من الدولتين الاخريين فقد ظفرت بمقاصدها ، وكانت قد اتبعت مع البحرين عين الطريقة التي اتبعتها في جهات الخليج الاخرى فربطت الشيخ بسلسلة من المعاهدات كانت أولها معاهدة عقدتها سنة ١٨٢٠ . ثم أرادت بعد منتصف القرن التاسع عشر ان تعلن حمايتها على الجزيرة تخلصاً من منافسيها ، ولـكنها عادت ففضلت الحماية المستورة فعقدت مع الشيخ عام ١٨٦١ معاهدة ألزمته فيها ان يعرض كل ما يقع له من المشاكل على المقيم البريطاني وان يقنع بحمايتها فلا يحاول اعلان حرب أو مهاجمة أحد[٣].

زار الـكولونيل بلي (Billy) المقيم البريطاني في الخليج شيخ البحرين أثناء حملة الاتراك على الاحساء ، وأرسلت بريطانية السفن الحربية اليها ،

---

(١) الريحاني ج ٢ ص ٢٢٦ — ٢٢٧ و Wilson ص ٢٤٧ و Curzon ج ٢ ص ٤٠٨

(٢) الريحاني ج ٢ ص ٢٣١ . يقول الريحاني ان الشيخ محمد كان ينشر علمين في القلعة ، علماً عثمانياً فوق البرج الغربي وعلماً ايرانياً فوق البرج الشرقي

(٣) Wilson ص ٢٤٧

تهديداً للأتراك بعدم مهاجمتها ، فلم يقتربوا منها[١] . وعقد الانكليز مع الشيخ عام ١٨٩٢ معاهدة تعهد فيها « ان لا يتنازل ولا يبيع ولا يؤجر ولا يأذن باحتلال أي جزء من أملاكه لغير بريطانية » . وعينوا عام ١٩٠٠ معاون وكيل سياسي لهم فيها ثم رفعوه سنة ١٩٠٤ الى درجة وكيل سياسي تثبيتاً لنفوذهم[٢] .

السواحل المهادنة : ويبلغ طولها ثلاثمائة ميل ، وتمتد من العديد على حدود القطر في الجنوب الى رأس الكلبة في سواحل عمان . وفيها خمسة وسبعون ألفاً من العرب المتحضرين ، يتعيشون على صيد الاسماك والغوص على اللؤلؤ ؛ وثمانية آلاف من الرحل . ويرجع أصلهم الى قبائل الجواسم والبو علي وبني ياس . وأهم مشايخ هذه السواحل : ابو ظبي والدبي وام الكواين والشرجة[٣] .

كانت هذه السواحل مأوى للقرصان حتى دعيت « سواحل القرصان » ثم عقدت قبائلها المعاهدات مع بريطانية فسميت بالسواحل المهادنة نسبة الى تلك المعاهدات . فان بريطانية لما قررت توطيد نفوذها في الخليج الفارسي ، في أوائل القرن التاسع عشر ، سيرت على قبائل هذه السواحل حملات برية وبحرية فاجبرتها على عقد معاهدات ضمنت للانكليز السيطرة على هذه

---

(١) Handbook ص ٤٨ و ص ٣٠٣ من :
Longrigg, S. H., Four Centuries of Modern Iraq. London 1924
(٢) Handbook ص ٤٣
(٣) Curzon ج ٢ ص ٤٥٠

السواحل[١] . ولما أرادت الدولة العثمانية ان تضم هذه السواحل الى أملاكها بعد مجيء مدحت باشا الى العراق وسوقه حملة الاحساء سنة ١٨٧١ شعرت الحكومة الانكليزية بالحاجة الى معاهدة جديدة ، فعقدت سنة ١٨٩٢ ؛ معاهدة فيها تعهدت قبائل السواحل المهادنة بما يلي :

(أولاً) ان لا تعقد أي اتفاقية مع غير بريطانية وان لا تتصل باي دولة سواها .

(ثانياً) ان لا تأذن لوكيل أي حكومة أجنبية بالاقامة في أراضيها الا بموافقة بريطانية .

(ثالثاً) ان لا تتنازل ولا تبيع ولا تؤجر ولا تأذن باحتلال أي جزء من أراضيها لغير بريطانية .

وقد بلغت الحكومة العثمانية بهذه الاتفاقية في سنة ١٨٩٣ وأعلمت بها حكومتا فارس وفرنسة سنة ١٩٠٣ . وقد جرت المخابرات مع هذه القبائل بواسطة المقيم البريطاني في الخليج منذ تاريخ عقد هذه الاتفاقية[٢] .

القطر : القطر شبه جزيرة بين العقير والعبيد ، يقطنها خمسة وعشرون ألفاً من القبائل المتحضرة وعدد غير مضبوط من الرحل . وقد ارتبطت قبائله ببريطانية بمعاهدتي سنة ١٨٢٠ و ١٨٣٥ . ووقعت فيه سنة ١٨٦٧ اضطرابات نجمت عن مهاجمة شيوخ البحرين والبوظبي اياه فتدخلت بريطانية في الامر واتخذت من هذه الاضطرابات ذريعة لتقييد شيخه بمعاهدة جديدة

---

(١) Handbook ص ٤٥

(٢) Handbook ص ٤٣

تعهد فيها ان لا يبني سفناً حربية وان يرفع كل ما ينشأ بينه وبين جيرانه من الاختلافات الى المقيم البريطاني في الخليج وان يعترف بسيادة البحرين[١] .

أراد الشيخ الخلاص من قيود هذه المعاهدة فاعلن خضوعه للدولة العثمانية على أثر سوق مدحت باشا حملة الاحساء فعينته هذه قائمقاماً في القطر وأسست في البدعة (أو الدوحة) — وهي أهم موانئ القطر — مرسى للسفن ومحطة للفحم وأنزلت بها ثلة من الجند ؛ لكن الانكليز رفضوا الاعتراف بهذه الاجراآت فبقيت معلقة الى ان عقدت اتفاقية ٢٩ تموز سنة ١٩١٣ بين بريطانية والحكومة العثمانية التي تنازلت بها الدولة العثمانية عن جميع ما كان لها من الحقوق في شبه جزيرة القطر .

الاحساء : في أوراق الدولة العثمانية التي ترجع الى عهـــد السلطان سليمان القانوني ما يدل على ان الاحساء كانت تعتبر جزءاً من الامبراطورية العثمانية ، غير ان نفوذ الدولة فيها كان ضئيلاً جداً وكانت تمثله الهدايا التي كان يقدمها امراء الاحساء الى ولاة بغـداد[٢] . ولكن والي البصرة حسن باشا أرسل في سنة ١٦٦٣ فرقة من بني خالد بقيادة أميرهم براك فاستولت عليها ثم استولى عليها الوهابيون وأعقبهم المصريون على عهد محمدعلي باشا الكبير ثم ضمها مدحت باشا الى العراق . وهاجمها ابن السعود عام ١٩١٣ وطرد حامية الدولة العثمانية منها . فلما عقدت معاهدة سـنة ١٩١٣ بين الدولتين العثمانية والبريطانية اعترفت انكلترة بجعل الاحساء جزءاً من ولاية نجد التي عين ابن السعود والياً عليها .

---

(١) Handbook ص ٤٦

(٢) Longrigg ص ٣٨

وكانت هذه السواحل السبب المباشر في تكوين العلاقات بين بريطانية ونجد فقد أخذت قبائلها — بعد ان اعتنقت المذهب الوهابي — تهاجم السفن باسم امارة نجد . وكانت حكومة الهند تتجنب الاصطدام بهذه الامارة وتعتبر المعتدين من رجال القبائل الساحلية مسؤولين شخصياً عن أعمالهم الى ان هاجم الوهابيون البحرين عام ١٨٥٩ فتدخلت بريطانية في الامر وتوترت العلاقات بينها وبين نجد وبقيت كذلك الى سنة ١٨٦٦ حيث تعهد الامير « ان لا يمس ولا يعترض أحداً من الرعايا البريطانيين القاطنين في السواحل » . ثم تحسنت العلاقات وتقوّت بين ابن السعود وحكومة الهند لما أخذت بريطانية تمده بالمعونة حتى اذا ما أرادت الدولة العثمانية على عهد مدحت باشا القضاء عليه ونشب الخلاف بينه وبين ابن الرشيد — وكانت الحكومة العثمانية تناصره — أخذت انكلترة جانب ابن السعود .

المحمرة : كانت قبائل كعب قد نزحت الى عربستان في أواسط القرن الثامن عشر واستفادت من انشغال ايران بالمنازعات الداخلية القائمة حول العرش بعد وفاة نادرشاه فاستولت على الفلاحية ، فلما استقرت الاحوال الداخلية في بلاد فارس ووجدت هذه القبائل مقاومة من حكومة البلاد نزحت الى ضفة شط العرب الغربية واستقرت فيها وأخذت قوتها تنمو نمواً سريعاً أقلق الاتراك فقاوموها واستعانوا عليها بشركة الهند الشرقية فعجزت هذه عن اخضاعها وعجزت حكومة الهند عن تأديبها أيضاً . وقد تشجعت قبائل كعب بنجاحها في صد قوى الحكومة العثمانية وشركة الهند الشرقية وحكومة الهند فسيطرت على جميع عربستان .

وحدث في سنة ١٨١٢ ان أذن رئيسها لشيخ قبيلة المحيسن بالاقامة على مصب نهر كارون فاسس هذا بلدة المحمرة على بقايا مدينة كانت قائمة هناك قبل ستة قرون(١) . وما ان استقرت هذه القبيلة في موطنها الجديد حتى أخذت تنافس قبائل كعب وتسعى للتخلص من سيطرتهم ، فاتصلت بالانكليز — بعد ان أخذت شركة لنج (Lynch) تسير سفنها في نهر كارون — فقوى نفوذها حتى آل الامر اليها(٢) . ولما توسعت مصالح بريطانية في عربستان أسس الانكليز لهم وكالة قنصلية ودائرة بريد في المحمرة في سنة ١٨٩٠ ثم أبدلوا وكالة القنصلية بقنصلية وأسسوا وكالة في الاهواز في سنة ١٩٠٤(٣) .

وقد كانت حكومة فارس تقاوم شيخ المحمرة فالتجأ الى الانكليز وطلب حمايتهم فرفضوا ولكنهم أجابوه الى طلبه هذا عندما أحسوا من روسية رغبة في بسط نفوذها على عربستان وبعد ان اكتشف النفط فيها وتأسست شركة النفط الانكليزية الفارسية لاستخراجه عام ١٩٠٩(٤) . وبقيت الحالة كذلك الى ان قويت الحركة الوطنية في ايران بعد الحرب العامة فقضت على شيخ المحمرة وعلى النفوذ الاجنبي في عربستان .

الكويت : وهي من موانئ الخليج الحديثة اذ لا يتجاوز تاريخها مائتي سنة ، أسستها قبائل العتوب بعد ان نزحت من جزيرة العرب في أوائل

---

(١) Longrigg ص ٢٤٨

(٢) Handbook ص ٥٥

(٣) Wilson ص ٢٦٦ وقد غير هذا الوضع في السنة ١٩٢٧ فجعلت القنصلية في الاهواز والوكالة في المحمرة

(٤) Handbook ص ٥٧

القرن الثامن عشر . وتدعى الكويت بالقرن ايضاً نسبة الى شكل الفجوة التي تقوم عليها .

ومن العوامل التي ساعدت على توسع الكويت مهاجمة الفرس البصرة بين سنتي ١٧٧٦ و ١٧٧٩ اذ اضطرت الدوائر التجارية الاجنبية ان تنتقل اليها فاصبحت الميناء الذي تمر منه البضائع في طريقها الى بغداد وحلب وسورية والقسطنطينية . ولما استولى العتوب على البحرين شاركتها الكويت في تجارة البلاد العربية فساعدها ذلك على النمو ايضاً . وعادت اليها الوكالة التجارية الانكليزية من البصرة عام ١٧٩٣ على أثر خلاف وقع بينها وبين السلطات التركية (١) .

وتذكر الحكومة الانكليزية في اوراقها الرسمية ان شيخها طلب الحماية البريطانية في السنة ١٨٠٥ تخلصاً من خطر الوهابيين فلم تجبه الى طلبه . ولم تكن رابطة الكويت بالدولة العثمانية قوية بالرغم من استمرار الشيخ على أداء الخراج لها حتى عام ١٨٢٩ . وقد مر بها الكولونيل بلي في السنة ١٨٦٥ في طريقه الى الرياض لمواجهة امير نجد فادرك اهميتها البحرية والتجارية وكتب بذلك الى حكومته (٢) .

على ان منشأ تاريخها السياسي يبدأ باواخر القرن التاسع عشر عندما دار البحث حول انشاء الخطوط الحديدية التي كان يراد جعل نهايتها على الخليج الفارسي في الكويت . ففي السنة ١٨٩٨ قررت الحكومة البريطانية

---

(١) Wilsen ص ٢٥١

(٢) Handbook ص ٥٢

بالنظر الى مساعي روسية وتركية لتوطيد نفوذهما في الكويت ان تتبع سياسة جديدة ترمي الى التدخل في شؤون الامارة وتثبيت علاقتها بها . وحدث ان وقع الخلاف بين افراد اسرة الامارة واستنجد فريق منهم بالدولة العثمانية فالتجأ الفريق الآخر الى المقيم البريطاني في الخليج فلما أرادت الدولة ان تنزع المشيخة من المغتصب الذي التجأ الى الانكليز ارسلت الحكومة الانكليزية بارجة حربيــة هددت بها الاتراك فلما تراجعوا عقدت (في ٢٣ كانون الثاني سنة ١٨٩٩) معاهدة مع الشيخ مبارك من طراز المعاهدات التي عقدتها مع امارات الخليج الاخرى تعهد بها الشيخ « ان لا يتنازل عن جزء من ممتلكاته وان لا يقبل وكلاء لدول الاجنبية الا بعد الحصول على موافقة بريطانية » . واعترفت الدولة العثمانية في سنة ١٩٠١ بعــلاقة بريطانية بالكويت وتعهدت ان لا ترسل اليها قوة حربية على ان لا تحتلها انكلترة او تعلن عليها الحماية[1] . غير انها انشأت في سنة ١٩٠٢ مراكز عسكرية في ام القصر وصفوان وبوبيان ، وكان الشيخ يدعي ان هذه الاماكن داخلة ضمن اراضيه ، فاهتمت انكلترة للامر وجرت بينها وبين الباب العالي مفاوضات انتهت بعقد اتفاقية سنة ١٩١٣ التي جعلت الامارة بموجبها قضاءاً تابعاً للدولة العثمانية اسماً واعترفت فيها الدولة بالاتفاقيات المعقودة بين بريطانيا والشيخ[2] .

واسست بريطانيا في الكويت سنة ١٩١٤ وكالة سياسية واخذت

---

(١) الريحاني ج ٢ ص ١٥٨ — ١٥٩

(٢) Handbook ص ٥٤

تتدخل فى انتخاب الشيخ وكان امر لا غنى لها عنه لتوطيد نفوذها .

ولابد لنا قبل ان ينتهي هذا البحث ان نأتي على ذكر الفاو لأنه موقع على جانب من الخطورة من وجهتي الدفاع والمخابرات ؛ فهو باب العراق الحربي اذ يقع فى نهاية شط العرب ؛ وهو ملتقى الاسلاك البرية التي تصل الهند باوربا .

كان مدحت باشا اول من اهتم بالفاو فجعل منه عام ١٨٦٩ مركز قضاء يمتد بين خور الزبير وشط العرب . وأرادت الحكومة العثمانية ان تقيم فيه الاستحكامات الحربية قبيل الحرب العامة — خلافاً لنصوص معاهدة ارضروم الثانية — ولكن معارضة الانكليز والحكومة الفارسية حالت دون ذلك (١) . وكان قضاء الفاو اول بقعة احتلتها القوات البريطانية من اراضي العراق عند نشوب الحرب بينها وبين الدولة العثمانية فى الحرب العامة .

وقد حدثت مؤخراً بعض التبدلات فى وضع الخليج سنأتي على ذكرها فى الفصول الاخرى .

---

(١) Handbook ص ٦٤ و Longrigg ص ١٢٦

الفصل الثاني

المصالح التجارية تتقدم المطامع السياسية

يبدأ تاريخ الاستعمار الاوربي باكتشاف رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٤٥ ، ووصول فاسكو داجاما الى كاليكوت عام ١٤٩٨ ، وكولومبس الى سواحل اميركا عام ١٤٩٢ . وينقسم الى دورين : الدور التجاري وينتهي بالثورة الفرنسية ؛ والدور الصناعي الرأسمالي او الاستعمار الحديث ويبدا بالثورة الصناعية .

وقد مر تاريخ السياسة الانكليزية في الشرق في دورين مطابقين لدوري الاستعمار ، يبدأ الاول منهما باتصال الانكليز بايران عن الطريق التجاري الشمالي ، ويبدأ الثاني بالثورة الفرنسية وحروب نابليون . وسنتناول في هذا الفصل البحث في الدور الاول وهو الذي انحصرت فيه مصالح انكلترة في التجارة فلم تسع خلاله لاستعمار ايران او العراق او ما يجاورهما .

يعتبر وصول فاسكو داجاما الى الهند في مايس سنة ١٤٩٨ اول بوادر الانقلاب العالمي الحديث الذي أوجد الرأسمالية الاوربية الحديثة ومهد لها سبل السيادة على العالم . وكان من نتائجه ان اندرست طرق التجارة البرية بين الصين والهند والبحر الابيض المتوسط ، وهي يومئذ قوام الحياة الاقتصادية في الشرق الادنى والاوسط والسر فيما كان لهذه البلاد من المقام العالمي وما قام فيها من الحضارات ؛ وخسرت المدن الايطالية مثل جنوه والبندقية وبيزا وفلورنسه مكانتها التجارية ، وكانت القابضة على تجارة البحر الابيض

وواسطة الصلة بين الشرق والغرب ومركز الحياة الاوربية ، سواء الاجتماعية منها او السياسية .

كانت التجارة بين اوربا وآسيا قد توقفت بعد اكتساح البرابرة روما الغربية واستيلاء المسلمين على الشرق الادنى ، فلم يطرق السبل التجارية في هذه الفترة غير افراد من اليهود والسوريين فلما جاء القرن العاشر اخذت بعض المدن في جنوب ايطاليا مثل برنديزي و باري وتارنتو ترسل السفن التجارية الى سواحل سورية ومصر ، وحذت حذوها مدن ايطاليا الاخرى مثل البندقية وجنوه وبيزا . ولما وقعت الحروب الصليبية تولت البندقية وجنوه وبيزا ، بالنظر لموقعها الجغرافي ، نقل الصليبيين وتموينهم فعاد عليها ذلك بالارباح الطائلة ومهد لها سبيل النمو والتوسع .

وكان من أهم ما يستورد من الشرق : التوابل من سيلان وصومطره والهند ، والاحجار الكريمة من ايران والهند وسيلان، والكافور من صومطره و بورنيو ، والمسك من الصين ، والسكر والنيل وخشب الصندل والعود من الهند ، والشب من آسيا الصغرى ؛ وكان الشرق يصدر الى اوربا كذلك الزجاج والخزف والحرير والاطلس والسجاد والنسيج الموشى ، وهي يومئذ مواد رائجـــة في المجتمع الاوربي الاقطاعي . وكان تجار المدن الايطالية يستبدلونها في الموانيء السورية مثل حيفا وانطاكيا وفي القاهرة والاسكندرية ، بالمنسوجات الصوفية الخشنة والزرنيخ والكحل والزئبق والصفيح الابيض والنحاس الاحمر والرصاص والمرجان . على ان هذه الصادرات لم تكن تسدد ثمن المواد المستوردة فكانت اوربا تدفع الباقي بالذهب حتى كاد

ان ينضب .

وكانت تجارة الشرق تنقل فى ثلاثة طرق : الطريق الاوسط ؛ تنقل فيه البضائع بحراً الى هرمز ومنها الى شط العرب فبغداد ، فتحملها القوافل من بغداد الى حلب وانطاكيا والشام ، واحياناً الى القاهرة والاسكندرية . والطريق الجنوبي على البحر الاحمر ، تحمل فيه البضائع على السفن العربية من الهند والشرق الاقصى الى سواحل لبحر الاحمر ومنها تنقلها القوافل الى القاهرة والاسكندرية ، وكانت السفن تستفيد من الرياح الموسمية فتقطع المسافة بين الهند ومصر فى أقل من ثلاثة أشهر . والطريق الشمالي ، ويتألف من مسالك متشعبة من الهند والصين تلتقي فى سمرقند و بخارى ثم تفترق مرة اخرى فيمتد بعضها نحو بحر الخزر ويقطع روسية الى سواحل البلطيق ، ويمتد البعض الآخر في استراخان الى ضفاف نهر الفولكا او يسير شرقاً نحو تبريز فارمينيا الى سواحل البحر الاسود ، وكانت أغلب القوافل التي تقطع هذه الطرق بين الشرق الاقصى وسواحل البحر الاسود بيد العرب .

كانت هذه التجارة تعود بالارباح الطائلة على المدن الايطالية و بعض المدن الجرمنية مثل نورمبرك واوسبرك واولم وريكسبرك وكونستانس ، اذ كان تجارها يشترون البضائع من المدن الايطالية ويبيعونها فى المانيا وانكلترة واسكندناويه . فكان لذلك أثر عظيم فى تحسن احوال المدن الايطالية والمدن الجرمنية وظهور بوادر النهضة الاوربية فيها وكانت اوربا الغربية محرومة من خيرات هذه التجارة ، فساقها ذلك الى العمل على اكتشاف طرق جديدة توصلها الى الهند والشرق الاقصى وكان البرتغال والاسبان

في مقدمة العاملين في هذه السبيل .

فلما اكتشف فاسكو داجاما الطريق الموصل الى الهند وعاد الى لشبونه عام ١٤٩٩ يحمل من البضائع ما يعادل ستة اضعاف نفقات بعثته اسرع البرتغال للسيطرة على هذا الطريق ، فتعقب كبرال أثر فاسكو داجام عام ١٥٠٠ ، واعقبه البوكرك عام ١٥٠٣ ، وصارت سفن البرتغال تحمل من الهند وهرمز وسيلان وملاقا وحافا ونانكنك اكداس البضائع ، لاسيما بعد ان استولى العثمانيون على مصر عام ١٥١٧ .

وكانت تجارة الشرق يومئذ بيد العرب من عمان واليمن فنازلتهم البرتغال وسلبتها منهم ، وكان لها من تفرق كلمتهم اكبر معين في التغلب عليهم على ان سيادة البرتغال على تجارة الشرق لم تدم طويلاً ؛ فقد عجزت عن ادارة املاكها الشاسعة ، وكانت تدعي السيادة على افريقيا وجنوب آسيا والبرازيل ؛ ولم تسلك في المتاجرة سلوكاً يحببها الى اهل هذه البلاد انما اعتمدت في صلتها بهم على القوة فلما فقدت هذه القوة بانضمامها تحت لواء فليب الثاني ملك اسبانيا عام ١٥٨٠ ، وكان مشغولاً في حرب مع الفرنسيين والانكليز والهولنديين ، خسرت مركزها وتراجعت امام منافسة الهولنديين والانكليز والفرنسيين .

***

لم يكن للانكليز في اول حركة الاكتشاف شأن يذكر لضعف قوتهم البحرية وعجزهم عن منافسة البرتغال والاسبان ، ولم ينزلوا الى عرض البحار الا في اواخر القرن السادس عشر اذ ارسلوا البعثات لاكتشاف اقاصي

العالم الجديد وسعوا للوصول الى متاجر الشرق عن طريق البحر الابيض الشمالي وطريق الفرات ، تجنباً من الاصطدام بالبرتغال ورغبة في المتاجرة مع اسواق الشرق الاوسط . فالفوا سنة ١٥٥٣ شركة من التجار والمغامرين لكشف الطريق الشمالي ، وتوجه السر هوك ولوبي الى البحار الشمالية للاكتشاف فاهلكته الثلوج على سواحل لابلند . على ان احدى سفنهم استطاعت ان تصل الى سواحل البحر الابيض الشمالي الداخلية وتوغل قائدها في روسية حتى وصل بلاط ايفان الرهيب فاتفق معه على تأسيس شركة انكليزية روسية للمتاجرة براً بين روسية والاراضي الواقعة شرق وجنوب بحر قزوين . وقد استحصلت هذه الشركة اجازة للمتاجرة مع الشرق في عهد ماري تيودور واوفدت بعثة لاكتشاف الطرق الى اواسط آسية فاجتازت البعثة سواحل بحر قزوين حتى دخلت تركستان ووصلت الى بخارى ، وكان افرادها اول الانكليز الذين وطأت اقدامهم تلك الارض(١) . واتصلت الشركة بفارس على عهد الملكة اليزابت التي ارسلت الهدايا الى الشاه ، وكان متردداً في قبول صداقة انكلترة حتى انه رد بعض كتب الملكة ، ولكن الانكليز واصلوا السعي للتقرب اليه وبيان فوائد تأسيس العلاقات التجارية معهم واستفادوا من عدائه للاتراك لحرضوه على محاربتهم ووعدوه بالمساعدة وبذلك تمكنوا من تأسس العلاقات التجارية مع ايران .

وكان الانكليز قد وجهوا انظارهم في اواخر القرن السادس عشر الى طريق الفرات للتوصل الى مغانم المتاجرة مع الهند فالفوا الشركة التركية التي

(١) Curzon ص ٥٣٦

ارسلت بعثة لدرس هذا الطريق ، مرت عام ١٥٨٣ بطرابلس الشام و بغداد والبصرة وهرمز ووصلت سباوه ، ولكن اعضائها هلكوا في هذه الرحلة الشاقة ولم يعد منهم غير واحد وصل انكلترة عام ١٥٩٠ يحمل كل ما تمكن من جمعه من المعلومات . والمظنون ان رجال هذه البعثة كانوا اول من دخل ارض الرافدين من الانكليز(١) .

ثم حدث بعد ذلك ما جعل الانكليز يتركون هذه الطرق المحفوفة بالمخاطر الى طريق رأس الرجاء الصالح بعدما انتصروا في واقعة الارمادا على فيليب الثاني ملك اسبانيا والبرتغال سنة ١٥٨٨ . فالفوا في ٣١ كانون الاول من سنة ١٦٠٠ شركة الهند الشرقية التي اتخذت سورات ، احدى موانئ الهند ، مقراً لها ارسلت منه السفن الى سواحل الخليج — لاول مرة — عام ١٦١٢ . وقد استحصلت هذه الشركة « فرماناً » من الشاه عباس الاول سنة ١٦١٥ امر به جميع موظفي الموانئ الفارسية بمساعدة التجار الانكليز(٢) . واوفدت سنة ١٦١٧ وفداً قابل الشاه واستحصل منه امراً يجيز للشركة احتكار تجارة الحرير ، وكانت تريد بذلك القضاء على التجارة البرتغالية في بلاد ايران اذ كان الحرير أهم ما تتاجر به المملكتين مع البلاد الفارسية (٣) .

على ان ذلك لم يكفل لانكلترة الاستيلاء على تجارة البلاد وكان لابد من ان تصطدم بالبرتغاليين ، وكانوا يرقبون حركاتها و يسعون للايقاع

---

(١) Miles ص ٢٠٥ Curzon ج ٢ ص ٤١٦—٤١٧

(٢) Longrigg ص ١٠١ Curzon ج ٢ ص ٤٤٦ Miles ص ٢٠٨

(٣) Wilson ص ١٣٩

بها ، وكانت الشركات الهولندية والفرنسية التي تألفت اسوة بالشركات الانكليزية تزاحم تجارتها وتضع العراقيل في سبيلها .

وقد وقعت اول معركة بين الانكليز والبرتغاليين في الخليج بالقرب من جسك ، وكان النصر حليف الاول فاسسوا في جسك على أثر هـذا الانتصار أول مركز لتجارتهم في الخليج (١) . وكانت سياستهم على نقيض سياسة البرتغاليين ؛ فقد كانوا يحسنون معاملة الاهلين و يتقربون الى الامراء فاستمالوا أهل البلاد . وقويت علاقتهم بالشاه حتى طلب معونتهم لطرد البرتغاليين من الموانئ الفارسية ، وكان ذلك في صالحهم فساعدوه ؛ فلما ابعد البرتغاليون حلوا محلهم فيها . وعقد الشاه معهم سنة ١٦٢٢ اتفاقاً عهد فيه اليهم بامر حماية التجارة في الخليج فوضعوا بارجتين من بوارجهم في مياهه وكان ذلك اول حجر في بناء مركزهم السياسي وامتداد النفوذ البريطاني في الخليج (٢) .

على انهم جوبهوا بمنافسة الهولنديين عقيب تخلصهم من البرتغاليين ، وكان الهولنديون قد توسعت تجارتهم بعد ان نالوا استقلالهم من الاسبان و بعد ان شجعهم انكسار فيليب الثاني في واقعة الارمادة على الوصول الى الهند ، فالفوا جملة من الشركات التجارية توحدت سنة ١٦٠٢ فتألفت منها شركة الهند الشرقية الهولندية التي استطاعت في مدى عشرين سنة من

---

(١) ج ٢ ص ٧٠٠ من : Chesney, The Expedition For The Survey of The Rivers Euphrates and Tigris ٥٤٨ ج ٢ ص Curzon, ٢٠٩ ص Miles, ١٠٢ ص Longrigg.

(٢) Moperly ج ٢ ص ٤٥ Coke ص ٩

الأستحواذ على اكثر مراكز التجارة البرتغالية في الشرق .

دخل الهولنديون الخليج ، والنزاع قائم بين الانكليز والبرتغاليين ، فاعانوا الاول واسسوا لهم مراكز تجارية في بندر عباس واصفهان والبصرة ، وكان طبيعياً ان ينفر الانكليز منهم لمنافستهم القوية ولتوسلهم بمختلف الوسائل لعرقلة سير التجارة الانكليزية والقبض على الاسواق ، لاسيما بعد ان شددوا على الشاه ، وهو مشغول بالدفاع عن بغـــداد وقد حاصرها الاتراك ، فاجبروه على منحهم جزء من تجارة الحرير وكان الانكليز قد احتكروها . ثم امتنعوا عن دفع الرسوم على بضائعهم في بندرعباس فتضررت بذلك الشركة الانكليزية وكانت تتمتع وحدها بهذا الامتياز . وتوفي الشاه عباس الاول سنة ١٦٢٩ ففقدت انكلترة بموته عضداً قوياً . وكانت العادة الجارية في البلاد الفارسية ان تتجدد العقود كلما تولى الامر شاه جديد فاغتنم الهولنديون هذه الفرصة للقضاء على التجارة الانكليزية فرشوا رجال الحكومة الفارسية ودفعوا أثماناً عالية للبضائع الفارسية وضايقوا الانكليز حتى اجبروهم على نقل بضائعهم الى البصرة سنة ١٦٣٩ . وشجعهم هذا الانتصار فراحوا يعملون بقوة لاحتكار اسواق فارس ، وركنوا الى استعمال العنف لاستحصال الامتيازات من الحكومة وكانوا يستحصلونها قبلاً بالرشوة وتقديم الهدايا ، فارسلوا في خريف سنة ١٦٤٥ قوة عسكرية انضمت الى اسطولهم في الخليج واحتلت جزيرة قشم فاضطر الشاه ان يمنحهم ما أرادوا [١] .

وتعقب الهولنديون الانكليز الى البصرة فارسلوا ثمانية من سفنهم أنزلت

(١) Longrigg ص ١٠٧ Wilson ص ١٦٠ — ١٦١

بضائعها في المناوي وملأت بها الاسواق ، وكانت على وشك ان تقضي على التجارة الانكليزية فيها . وقد اشتدت هذه المنافسة حتى كانت من جملة العوامل في نشوب الحرب بين الدولتين بين سنتي ١٦٥٢ و ١٦٦٧ ، ولم تنته الا عندما اضطر الانكليز والهولنديون ان يتحدوا لمقاومة لويس الرابع عشر ملك فرنسة الذي عظم شأنه وحارب الهولنديين والاسبان وخرب أساطيلهم . وكان ما حدث للهولنديين على يد لويس الرابع عشر ضربة قاضية على تجارتهم في الشرق ففقدوا مركزهم الذي بنوه بالقوة بعد ان فقدوا تلك القوة ؛ وتضاءل نفوذهم في الخليج فانسحبوا من البصرة عام ١٧٥٣ ومن بوشهر بعد ذلك بقليل وأغلقوا باب وكالتهم في بندرعباس سنة ١٧٥٩ ، فصفى الجو للانكليز .

اما فرنسة فقد بدأت منافستها للتجارة الانكليزية عام ١٦٢٦ لما ارسل ريشليو — وزيرها — ممثلاً من قبله الى البلاط الفارسي ليحول دون اتحاد الشاه مع اسبانية على الاتراك . ثم ارسل كوبرت — على عهد وزارته — وفداً الى الشاه عباس الثاني استحصل منه « فرماناً » أعفى البضائع الفرنسية من الضرائب والمكوس لمدة ثلاث سنوات وجعل لفرنسا من الحقوق والامتيازات ما لبقية الدول الاجنبية . وأسس الفرنسيون على أثر ذلك مركزين تجاريين في اصفهان وبندر عباس ، ولكنهم لم يعيروا الامر ما هو جدير به من الاهتمام فلم تتقدم تجارتهم ، فتركوا مركزهم في اصفهان سنة ١٧١٢ أثناء الفتح الافغاني . وفي خلال حرب السنين السبع وصلت الخليج أربع من سفنهم مخفية حقيقتها بالعلم الهولندي فهاجمت مركز التجارة الانكليزية في

بندر عباس ودمرته . وأسسوا لهم سنة ١٧٥٥ وكالة تجارية في البصرة ثم قلبوها الى قنصلية عام ١٧٦٥ . على ان المنافسة الحقيقية بين الدولتين لم تبدأ الا على عهد الثورة الفرنسية وحروب نابليون .

وقد اتصل الانكليز بالعراق لاول مرة بمجيئهم الى البصرة بين سنتي ١٦٣٥ و ١٦٣٩ ، اذ اغتنموا فرصة ابتعاد البرتغاليين عنها ووجدوا من التشجيع ما ساعدهم على اقامة مركز تجاري لهم فيها في سنة ١٦٤٣ ، ثم نقل مركز بندر عباس تجارته اليها في سنة ١٦٤٥ ؛ لكن الهولنديين أنزلوا في هذه السنة عينها كمية كبيرة من البضائع واشتدت منافستهم للتجارة الانكليزية فاصيبت من جراء ذلك باضرار عظيمة ، وأوغروا عليهم صدر الباشا — والي البصرة — فامر بسد مخزنهم . على ان ذلك لم يمنع الانكليز عن مواصلة ارسال سفنهم الى البصرة بين حين وآخر .

ولما زار الوالي علي باشا البصرة سنة ١٧٦٣ ورأى قبائل كعب تعيث في ضواحيها وعد وكيل الشركة الانكليزية فيها بتمشية مصالحه اذا ساعدته سفن الشركة في اخضاع هذه القبائل ؛ فارسل الوكيل جملة من السفن هاجمت العرب فانتصروا عليها وأسروا ثلاثة منها . فلما علمت بذلك حكومة بومبي أرسلت سنة ١٧٦٦ اسطولاً من ست سفن لتأديب قبائل كعب ؛ وجاء محمود اغا — كهية عمر باشا — من بغداد ليضم قواه الى قوة الشركة ، الا ان العرب انتصروا هذه المرة ايضاً فاحرقوا سفينتين من سفن الانكليز وتسعاً من سفن الاتراك وصدوا القوة التي هاجمتهم من البر .

وكان هذا الاشتراك في مقاومة القبائل العربية سبباً في تحسن العلاقات

بين الشركة والولاة ؛ فتوسعت مصالحها التجارية في العراق حتى اضطرت ان تعين لها وكيلاً فيها . (وعينت الوكيل رجلاً ارمنياً استبدلته — بعد ذلك — بانكليزي) . وكانت تجلب الى العراق المواد المعدنية والمنسوجات الصوفية فتبيعها او تستبدلها بالحرير الفارسي . وقد وجدت لها عوناً كبيراً لتسيير مصالحها في شخص سليمان باشا الكبير بعد ان ساعده وكيلها في الحصول على منصب ولاية الثلاث أيالات ، وكان يقرضه ما يحتاج اليه من المال ويتولى امر تحويل المبالغ التي يرسلها الى استانبول . وكانت الشركة تستورد للباشا ما يحتاج اليه من الاسلحة والمعدات الحربية وتستقدم له المدربين العسكريين . وقد اصبح لها من النفوذ في أواخر القرن الثامن عشر ما ساعدها على ان تحمل بريدها على القوافل الى سواحل البحر الابيض المتوسط .

اما علاقة الانكليز بسكان سواحل الخليج العربية فقد بدأت بنزوح البرتغاليين عن هذه السواحل . وقد كانت الشركة تتجنب على ما يظهر الاشتباك معهم ، فكان ذلك سبباً في رفضها اجابة الشاه الى طلبه عندما طلب اليها ان تساعده في مهاجمة عمان . على ان قبائل هذه السواحل قويت شوكتهم بعد تخلصهم من البرتغال فعرقلوا سير مصالح الفرس والانكليز والهولنديين جميعاً اذ كانوا يهاجمون السفن التجارية حتى وقعت بيدهم عدة من سفن الشركة الانكليزية . غير ان هذه الشركة لم تتخذ أي اجراء ضد هذه القبائل بالرغم من وصول « التقارير » الى مديرها تعلمه بتهديدهم مصالحها

ووصول الاخبار من حاكم مدراس بمهاجمتهم سواحل ولايته . وقد استمرت الحال على هذا المنوال الى ان جاء نادر شاه فاهتم بامر هذه السواحل وأخضع مسقط والبحرين . وظهر احمد بن سعيد بعد زمن فخلص مسقط من قبضة الفرس وتولى حكمها . وخلفه ابنه السيد سلطان فوضعت في عهده علاقات بريطانية على أساس سياستها الجديدة كما سيرى القاريء في الفصل التالي .

الفصل الثالث

بريطانيا تسيطر على الخليج في سبيل الهند

كانت سيادة اسبانيا والبرتغال على البحار قصيرة الامد فقد فقدت البرتغال قوتها البحرية بعد انضمامها الى اسبانية على عهد فيليب الثاني الذي أشغلته الحروب مع الانكليز والفرنسيين والهولنديين المطالبين باستقلالهم عن العناية بشؤون التجارة . ولما أعلنت هولندة انفصالها عن اسبانية سنة ١٥٦٦ ، وكانت مرغمة بطبيعة وضعها الاقتصادي والجغرافي ان تعتمد في حياتها على البحر فنشأت قوية فيه ، استطاعت في مدة وجيزة ان تنازل سفن الاسبان والبرتغال فتستولي عليها ، وان تضبط أكثر مراكزهم التجارية في الشرق وفي اميركا ، فكانت سيدة البحر مدة القرن السابع عشر .

على ان انكلترة نزلت الى الميدان على أثر انتصارها في واقعة الارمادا فكان نزاع عنيف بين الهولنديين والانكليز وبقيت نيران الحروب تستعر بين الدولتين الى ان أعلن لويس الرابع عشر الحرب على هولندة عام ١٦٧٢ فانقلبت الحرب بين انكلترة وهولندة الى اتفاق على مقاومة لويس الرابع عشر ملك فرنسة العتيد . غير ان نجم هولندة أخذ في الافول بعد هذه الحروب فتركت الميدان الى فرنسة والانكليز . وقد دام النزاع بين انكلترة وفرنسة مدة مائة عام وانتهى بفوز الانكليز الذين خرجوا منه وبقبضتهم سيادة البحار ، والهند والقسم الاعظم من أراضي العالم الجديد .

وقد اعتاد الانكليز ان يصفوا الهند بالدرة اللامعة في التاج البريطاني

و يظهروا للشعب الانكليزي انها قوام حياته وسر عظمة بريطانية ، حتى أصبحت الهند مدار السياسة البريطانية وشغلها الشاغل .

وفي الواقع ان الهند كانت قوام الرأسمالية الانكليزية في مختلف أدوار نشوئها وهي العامل الاكبر في تفوقها وسطوتها ، ولا تزال السر في قوتها وجبروتها . فبنهب كنوز الهند خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر استطاع التجار الانكليز ان يجمعوا أكداس الذهب والفضة وغيرها من المواد فيقيموا بواسطتها الرأسمالية الصناعية التي نشأت في بريطانية واتخذت من الهند سوقاً تعيش عليه ومورداً لما تحتاج اليه من المواد الخام . والهند في الوقت الحاضر ميدان لاستثمار رؤوس الاموال الانكليزية واستغلال العمال الى أبعد حد عرفته البشرية ، وسوق من أعظم أسواق العالم ، ومورد تستنزف منه الرأسمالية الانكليزية المال والمواد الخام(١) .

وعدا عن ان ٢٧١ مليون من سكان الهند ومليوناً من الاميال المربعة من مساحتها تخضع للحكم البريطاني المباشر فان الامارات التي يحكمها الامراء لا تمتاز عن الولايات الخاضعة للحكم المباشر بسوى المظاهر ؛ فالسادة الامراء ليسوا سوى عبيد للادارة البريطانية ، يعرفون حق المعرفة انهم مدينون لها بمركزهم و بما ينعمون به مما يبتزونه من الشعب الهندي من الاموال والرأسمالية الانكليزية حريصة كل الحرص على الاحتفاظ بهذه الحشاشة من بقايا العصور الاقطاعية كسلاح من أسلحة الرجعية ، تقاوم به الطبقة الوسطى الناشئة والسواد الاعظم من الشعب الهندي . وتؤلف مساحة الامارات ٣٩ في المائة من مجموع

---

(١) British Imperialism in India, By Joan Beauchamp

مساحة الهند و ٢٣ في المائة من عدد سكانها (٨١ مليون نسمة) .

وقد توسل الانكليز منذ ان تأسست شركة الهند الشرقية عام ١٦٠٠ بكل الوسائل لابتزاز الثروة من هذه المملكة الغنية التي تعادل في المساحة نصف قارة أوروبا ، وشجعهم على ذلك انحطاط مستوى العيش فيها والجهل المطبق على سكانها ، حتى بلغت أرباح هذه الشركة ٢٥٠ في المائة في السنة ، عدا عن ما كان ينهبه موظفوها بمختلف الطرق والاساليب وما ينالونه من الهدايا من امراء الهند لقاء بعض المساعدات التي كانوا يسدونها لهم . فقد نال كليف المستعمر المعروف وحده سنة ١٧٥٧ مبلغ ٢٠٠،٠٠٠ ليرة انكليزية وأرضاً وارداتها السنوية ٣٠،٠٠٠ ليرة انكليزية جزاء مساعدته أحد المتنازعين على امارة البنغال وبلغ مجموع قيمة الهدايا المقدمة للشركة بين سنتي ١٧٥٧ و ١٧٦٦ ستة ملايين ليرة انكليزية . وكان الانكليز بين سنتي ١٧٦٩ و ١٧٧٠ يجمعون كل ما في المملكة من الرز و يبيعونه للسكان باسعار باهظة فادى ذلك الى حدوث مجاعات هلك فيها الملايين من السكان ، و بالغوا في ارهاق المزارعين في البنغال حتى بلغت واردات الشركة من الزراعة وحدها (١٣،٦) مليون ليرة انكليزية سنة ١٨٢٢ - ١٨٢٣ ، و (١٥،٧) سنة ١٨٥٧ - ١٨٥٨ . وكان مجموع ما يستحصل من البنغال في عهد الحكم المغولي قبيل مجيء الانكليز لا يتجاوز المليون ليرة انكليزية . وقد ذهبت الشركة في استنزاف المال بواسطة المتاجرة الى أبعد حد ، حتى ان مجموع قيمة ما استورد الى الهند بلغ بين سنتي ١٧٦٦ — ١٧٦٨ (٦٢٤،٣٧٥) ليرة انكليزية بينما بلغ مجموع ما صدر منها الى انكلترة ٥،٣١١،٢٥٠ ليرة

انكليزية ، عدا عن المبالغ الطائلة التي كان يجمعها المحاربون وموظفوا الشركة ويحملونها معهم الى بريطانية عند عودتهم اليها . وقد فعلت الشركة في بهار واوديسا وميسور وتنجور وراجبوتانا وبرما السفلى والبنجاب والسند وغيرها من المقاطعات التي ضمتها لأملاكها مثل ما فعلت في البنغال بين سنتي (١٨١٤ – ١٨٥٦) .

وقد قال ما كولي ، الكاتب الانكليزي المشهور ، في كتابه عن اللورد كليف يصف استنزاف الاموال من الهند على عهد الشركة المذكورة : « لقد أكرهوا (عمال الشركة) الاهلين على الشراء بأثمان باهظة والبيع بسعر زهيد . وشملوا بحمايتهم بعض الاهلين من صنائعهم فطافوا البلاد يعيثون فيها فساداً ويقذفون الرعب في نفوس الناس أينما حلوا . وكان خادم كل أجير بريطاني مؤيداً بكل ما لسيده من سلطان ، وكان سيده مسنوداً بكل ما للشركة من جبروت . هكذا جمعوا الاموال الطائلة في كلكته بأسرع وقت وأنزلوا ثلاثين مليون نسمة (من سكان البلاد) الى حضيض الهلاك . ومع ان الاهلين كانوا قد اعتادوا العيش في ظل الطغاة الا انهم ما سبق لهم قط ان شهدوا مثل هذا العسف » .

كانت هذه الاموال الطائلة المبتزة من الشعب الهندي غذاءً للرأسمالية الصناعية التي نشأت في انكلترة في القرن الثامن عشر . حتى اشتد ساعدها بعد منتصف هذا القرن فاخذت تنافس شركة الهند الشرقية فحملت البرلمان الانكليزي على تشريع القوانين التي جعلت أسهم الشركة تحت اشرافه وأرغمتها على دفع ضريبة سنوية الى خزينة الدولة ، وعلى تصدير

المصنوعات التي تنتجها المعامل الانكليزية الى الهند ؛ وقد عين البرلمان لجنة للاشراف على ادارة أملاكها ، وقرر فتح أبواب الهنـــد لجميع الرأسماليين من الانكليز . وبذلك دخلت الرأسمالية الانكليزية في دورها الثاني اذ أصبحت الهنـــد مصدراً للمواد الخام وسوقاً للبضائع الانكليزية . وكان من أول مظاهر هذا الدور القضاء على الصناعات الوطنية في الهند لاسيما صناعة النسيج ، لينفسح المجال للمنسوجات والبضائع الانكليزية ان تنتشر الى أقصى الحدود . و بعد ان قضى الانكليز على صناعة النسيج الوطنية توسع نطاق انتشار منسوجاتهم في الهنـــد فبلغ مقدار الغزل المصدر اليها ٥،٢٠٠ ضعف بين سنتي ١٨١٨ و ١٨٣٦ وزاد مقدار الشاس من مليون يارد في ســنة ١٨٣٧ الى ٦٤ مليون يارد في سنة ١٨٣٧[١].

على ان قابلية الهنـــد لشراء المنسوجات البريطانية أخذت تتضاءل لنضوب معين الثروة فيها فاضطر الرأسماليون الى التحري عن علاج ينعش هذا الجسم الذي عاشوا على امتصاص دمه . وكان مجال استثمار رؤوس الاموال في انكلترة قد ضاق وأخذت نسبة الارباح بالنزول ، فعمدوا الى استثمارها في مشاريع زراعة القطن وغيرها . وكانت صناعة الحديد في انكلترة قد نمت وأصبحت بحاجة الى سوق لتصريف منتوجاتها فرأى أصحابها في مد السكك الحديدية وانشاء مشاريع الري وتأسيس مراكز البرق والبريد خير

---

(١) Beauchamp ص ٢٩ ("The British Rule in India." By Marx.)

منفذ لها ، لاسيما وقد أضحت الرأسمالية الانكليزية بحاجة ماسة الى ضمان طرق المواصلات والمخابرات لتسهيل استثمار البلاد وتثبيت وضمان السيطرة فيها . فدخلت الرأسمالية بذلك دورها الثالث ، دور اســتثمار رؤوس الاموال واستغلال الشعب في ميادين العمل ، علاوة على استنزاف ينابيع الثروة في البلاد .

وكان من أهم مظاهر هذا الدور سوق الرأسماليين الحكومة البريطانية الى تبديل الوضع السياسي في البلاد والقبض على زمام الحكم فيها مباشرة[١] . وقد صحب هذا الدور أيضاً ازدياد الارهاق واشتداد البطش والعسف . فقد حدث في مستهله ان تمردت بعض كتائب الجيش الهندي واندلعت نيران الثورة في البلاد فبطش الانكليز بالهنود بطشاً لم يشهد التاريخ له مثيلاً . وكانت حركة العمال وطلبهم تحديد ساعات العمل قد نشطت في انكلترة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر فرأى الرأسماليون في العامل والفلاح الهندي خير وسيلة لاستنزاف أعظم مقدار من الربح لرؤوس أموالهم اذ كان باستطاعتهم ان يشغلوا الرجال والنساء والاولاد في الهند دون قيد أو شرط باجور أدنى مما كانوا يتصورون . لقد ارتكب الرأسماليون في ارهاق الفــلاح والعامل الهندي من المظالم ما يفوق حد التصور وما كان عليهم من رقيب . فكانوا يسترجعون قسماً كبيراً من الاجور الزهيدة التي لم تكن تكفي لسد رمق الفلاح والعامل كغرامات وكانوا يفرضونها لأقل زلة . وبالرغم من انهم

(١) Dutt, R. Palme : Modern India

كانوا يدفعون اجور العمال مشاهرة فقد اعتادوا تأجيل دفعها الى انقضاء القسم الاعظم من الشهر الآخر فيثقلون بذلك كاهل العامل والزارع بالديون ، وقد دلت التحريات على ان الفلاح كان يستقرض من مستخدميه بفائض قدره ٢٢٥ في المائة في أحمد آباد و ١٥٠ في المائة في الولايات الوسطى و ٣٢٥ في المائة في البنغال ، وكان فائض هذه الديون كثيراً ما يتراكم فيجعل من العامل أو الفلاح عبداً لا سبيل له الى الخلاص[1] وقد تبين من درس أحوال العمال والفلاحين ان وكلاء الاستخدام في أحمد آباد وفي غيرها كانوا يتبعون طريقة العقود في الاستخدام فيستأجرون الولد من أبيه لمدة سنتين أو أكثر باجرة لا تزيد على خمس وأربعين شلناً في السنة . وكان العمال من رجال ونساء وأولاد يعملون من الساعة السابعة ونصف صباحاً الى الساعة السابعة مساءً دون توقف . هذا في المعامل القريبة من رقابة الحكومة ناهيك في غيرها ، حتى ان بعض النساء كن يلدن في المعامل أثناء العمل . وكانت النساء العاملات في مقاطعة بومبي ترغمن على ترك أطفالهن خارج المعامل فكن ينومنهم بالافيون ، وقد أظهرت التحقيقات سنة ١٩٢٢ ان ٩٨ في المائة من أطفال العاملات في بومبي كانوا يجرّعون الافيون لهذا الغرض[2] . وكانت ساعات العمل تتراوح في أحسن الحالات بين العشر والاربع عشرة ساعة طول مدة الاسبوع بلا توقف . ومع ان الاجور في الهند تختلف باختلاف الجهات ونوع العمل ، فهي من أوطأ الاجور في العالم بحيث تصل

---

(١) Beauchamp ص ١٠٤

(٢) Beauchamp ص ١٠٧

الى العشرة فلوس في اليوم . وقد وجد ان الاولاد في كثير من المشاريع الزراعية يستخدمون منذ السنة الرابعة من سنهم[١] . كان الرأسمالي الانكليزي في الهند يستطيع ان يرتكب كل هذه الفضائع على مشهد من المدنية الاوربية فتسنى له بذلك ان يستنزف ربحاً بلغ ٣٠٠ في المائة من قيمة الاسهم[٢] .

على ان ابتزاز الرأسماليين من الانكليز أموال الهند لم ينته عند هـذا الحد ، فقد كانت الرأسمالية الانكليزية تمد السكك الحديدية لتسهيل الاستغلال وأحكام الاستعباد على حساب الشعب الهندي الذي لم يتح له السفر فيها الا في أدنى الدرجات وكان القسم الاعظم من المبالغ المخصصة لمد السكك وغير ذلك من المشاريع يختلس في أغلب الاحيان حتى تبلغ نفقات هذه المشاريع أضعاف التخمينات ، من ذلك ان الميل الواحد من الخطوط الحديدية كلف ١٨٦٠٠٠ ليرة انكليزية وكانت تخمينات نفقاته ٨٠٠٠ . وبلغت نفقات الميل الواحد في بعض الاحيان ٣٠٦٠٠٠ ليرة انكليزية . وهكذا استطاعت الرأسمالية الانكليزية ان تبتز من الشعب الهندي مبلغ ٢٢٥ مليون ليرة انكليزية فتمد السكك الحديدية للأغراض الحربية والاستثمارية المحضة . وقد بلغت خسائر هذه السكك حتى سـنة ١٩٠٠ (٤٠) مليون ليرة انكليزية تحملها الشعب الهندي[٣] .

وقد أعدت الحكومة البريطانية على نفقـة الهنود وسائل الدفاع

---

(١) Beauchamp ص ١٠٧

(٢) ص ٤٩ من : The Colonial Policy of British Imperialism. By Ralph Fox

(٣) Beauchamp ص ٤٤ — ٥٥

عن مصالح الرأسمالية في الشرق . فكان الجيش المستخدم لاخضاع البلاد واستعمار الاقطار المجاورة يستوفي نفقاته من خزينة الهند . وكانت نفقات الجيش البريطاني في الهند تزيد في بعض الاحيان — بسبب سياسة التبذير — على نفقات جميع القوى الانكليزية التي عداها . وقد أدى اتباع سياسة التبذير في الصرف على الجيش وعلى وسائل الدفاع من سكك وغيرها والانفاق على الحروب الاستعمارية الى ظهور العجز باستمرار في ميزانية الهند والى تراكم الديون — التي كانت تستقرض من الرأسماليين الانكليز بفوائض عالية — حتى بلغت سنة ١٩٢٩ — ١٩٣٠ (٧٢٨) مليون ليرة انكليزية . وقد بلغت نفقات قوة الدفاع سنة ١٩٣٣ — ١٩٣٤ (٣٧٥٠٠٠٠٠) ليرة انكليزية أي ما يعادل ٤٠ في المائة من اعتمادات الميزانية العامة . وبلغت هذه النفقات مع نفقات السجون والشرطة في نفس السنة (١٩ ، ٥٦) مليون ليرة انكليزية أو ما يعادل (٥١ ، ٣٢) في المائة من اعتمادات الميزانية بينما كانت نفقات المعارف (٤٢ ، ٦) في المائة فقط[١] .

كل ذلك كان لحساب الرأسمالي الانكليزي الذي لا يستفيد منها لضمان مصالحه فحسب وانما يستفيد كذلك من تراكم الديون على الخزينة أيضاً . حتى ان خزينة الهند تدفع سنوياً ٣٥ مليون ليرة انكليزية لتسديد فائض هذه الديون ولعلاوات اجازات الموظفين الانكليز ونفقات سفرهم ورواتب المتقاعدين منهم وغير ذلك من النفقات المخصصة لمصلحة الاستعمار والمستعمرين[٢] .

(١) Beauchamp ص ٧٦ — ٧٨ و ص ١٢٠ (٢) Fox ص ٤٠

ويبلغ عدد الشركات الاجنبية التي تستثمر اموالها في الهند ٦٣٤ شركة برأس مال يقدر بمليارين ونصف مليار من الدولارات ، وعدد الشركات المؤلفة في الهند ٥١٩٤ شركة برأس مال قدره مليار دولار ، وينوف مقدار رؤوس الاموال المستثمرة خارج هذه الشركات على المليارين من الدولارات ، ومقدار الديون العامة على ثلاث مليارات ونصف مليار دولار . وتبيع المصانع البريطانية من مصنوعاتها في الهند ما تبلغ قيمته نصف مليار دولار في السنة ، وتستورد من الهند من المواد الخام ما تبلغ قيمته خمسي المليار من الدولارات . وتصرف مصانع النسيج الانكليزية في الهند من المنسوجات ما تساوي قيمته ٢٢٥ مليون دولار في السنة . وتبيع مصانع الحديد والفولاذ ومعامل السيارات في الهند من مصنوعاتها ما تبلغ قيمته مائة مليون دولار . وتصدر الهند الى انكلترة من الشاي ما تبلغ قيمته ١٢٠ مليون دولار ، ويستخرج من مناجمها ما يقارب العشرين مليون طن من الفحم في السنة ، ومن مناجم الحديد مقداراً غير يسير . وفي الهند مقادير كبيرة لمختلف المعادن وموارد جسيمة لم تستثمر بعد[1] .

من هذا يتبين للقارىء ان علاقة الرأسمالية البريطانية بالهند علاقة حياة وممات ، فالرأسمالية الانكليزية ، لاسيما في الوقت الحاضر بعد ان اشتدت المنافسة بينها وبين الرأسمالية في اميركا واليابان ، لم تعد تستطيع الحياة من دون الهند . على ان ادراك الرأسماليين أهمية الهند لحياتهم ليست بنت اليوم ، فقد

---

(١) ص ٢٩١—٢٩٢ من : Imperialism, and World Politics, By Parker Thomas Moon.

أدركوها منذ فجر حياتهم لاسيما بعد ان خسروا مستعمراتهم في اميركا الشمالية التي انفصلت عن جسم الامبراطورية والفت من نفسها الولايات المتحدة الاميركية ، وبعدما تبين لهم ان مستعمراتهم المقطونة من قبل الاوربيين في اميركا وافريقيا واستراليا لا يمكن ان تستغل من قبلهم على الوجه المطلوب وانها لابد ان تحذو حذو المستعمرة الاميركية الكبرى فتنفصل عن جسم الامبراطورية . كما ان مجال الاستغلال في هذه المستعمرات ضيق جداً بالنسبة للهند ذات الخيرات الوفيرة التي يقطنها ٣٥٠ مليون نسمة من البشر الصالحين للعمل بازهد الاجور . لهذا كله اصبحت الهند مدار السياسة الامبراطورية مذ قبض الرأسماليون على زمام الحكم في بريطانية بعد الثورة الصناعية .

* * *

كان بطرس الاكبر ، مؤسس روسية القيصرية ، أول من فكر بجد في فتح الهند وقدّر قيمتها من رجال اوربا الحديثة . وقد هاجم بلاد ايران أثناء الفتح الافغاني بقصد الوصول اليها فاخفق . على ان التفكير في أهميتها ولزوم الاستيلاء عليها لازمه الى آخر حياته ، فاوصى خلفاءه بتحقيق أمنيته هذه اذ ورد في الفقرة التاسعة من وصيته لهم :

« تقدموا ما استطعتم من القسطنطينية والهند ، فان من »
« يحكمهما يكون سيد العالم من غير منازع . أشهروا من أجل »
« ذلك ، الحروب المتواصلة على تركية وايران وأنشأوا »
« المراسي على البحر الاسود واستولوا على قطع من »

« الارض فيه ، وفي البلطيق ايضاً ، لأنها لازمة لتحقيق »
« خطتنا . واذا ما سرى الانحلال في بلاد ايران فتوغلوا »
« فيها حتى تبلغوا سواحل الخليج فتعيدوا الحيــاة الى »
« الطرق التجارية القـــديمة مع الشرق الادنى ان »
« استطعتم ، ثم واصلوا السير الى الهند محط كنوز العالم . »
« فاذا ماوصلنا اليها فلا تعود لنا حاجة بذهب انكلترة[1] »

ولم تكن هذه الكلمات لتثير مخاوف الانكليز لو لم يأت نابليون و يعمل بجد لمهاجمة الهند ويضع الخطط الحربية لذلك بالاشتراك مع بولص قيصر الروس ومع الاسكندر الاول من بعده .

ومع ان رغبة نابليون في الاستيلاء على الهنـد تولدت فيه — على ما يظن — منذ أول نشأته لما طالع كتب مشاهير التاريخ القـــديم مثل الاسكندر الكبير ورأى ان الشرق كان قبلة آمالهم وقوام عظمتهم وصار يحلم ان يكون له من الشهرة مثل ما كان لهم ، الا ان الدوافع الفعلية لاهتمامه في أمر مهاجمة الهند ترجع الى رغبته في ان ينازل انكلترة في الشرق بعد ان عجز عن منازلتها في اوربة بسبب افتقاره الى اسطول بحري يستطيع ان يقابل به الاسطول الانكليزي ، وكان يعتقد ان في انتزاع الهند من انكلترة او قطع طرق اتصالها بها ضربة قاضية على بريطانية . فحمله هذا الاعتقاد على مهاجمة مصر والاستيلاء عليها وايفاد الرسل منها الى رجال الشرق يخطب

---

(١) Sykes ج ٢ ص ٢٥٤ و ص ٦٢ من كتاب :
Hamilton, Angus, Problems of The Middle East. (London 1909)

ودهم ويهيئ أفكارهم لمقدمه . ومن بين رسائله الى بعض الامراء في الشرق رسالتان ، إحداها الى إمام مسقط والاخرى الى « تيبو صاحب » أحـــد امراء الهند الناقين على الانكليز أرسلها اليه داخل كتابه الى الإمام . وهذا نصهما(١):

« القاهرة في ٢٥ كانون الثاني سنة ١٧٩٩ .

« الى إمام مسقط .

« أكتب اليك لاعلمك بوصول الجيش الفرنسي الى »
« مصر . وبما انك كنت على الدوام حافظاً لولائنا »
« فكن واثقاً من رغبتنا في حماية السفن التجارية التي »
« ترسلها الى السويس . الرجاء ايصال الكتاب المرسل »
« بطي كتابك هـذا الى تيبو صاحب في أول فرصة . »

الامضاء : « بونابرت »

« الى تيبو صاحب

« لابد وقد بلغك نبأ وصولي الى سواحل البحر الاحمر »
« على رأس جيش جرار لا يغلب . اود ان اسمع اخبار »
« الوضع السياسي الذي انت فيه وارغب في ان »
« ترسل الى السويس رجالاً ذوي جدارة تثق بهم »
« للمداولة معهم . »

الامضاء : « بونابرت »

---

(١) Miles ص ٢٠

وفاوض نابليون القيصر بولص فى الوقت عينه فاتفقا سنة ١٨٠٠ على ان يسير كل منهما الجيوش الى باكو لتعبر بحر قزوين الى استراباد فالمشهد فهيرات ، لكن هذه الخطة اهملت على أثر اغتيال القيصر ومغادرة نابليون مصر على جناح السرعة لامور استدعت حضوره فى باريس (١) .

على ان نابليون استمر في مسعاه لتحقيق مقاصده فى الشرق ، وكانت خطته الثانية ان يعتمد على فرنسة وحدها ، ويستعين بالناقمين من امراء الهند ، ويسلك طريق الفرات . ورأى ان يرسل فى الخفاء ، قوة كافية تنزل على مقربة من خليج الاسكندرونة حيث يكون فى انتظارها أحد الثقاة من رجاله ليقودها الى مرعش ، وهي قرية اختارها ليستفيد من الغابات المحيطة بها فى بناء السفن لتحمل جنوده فى الفرات الى البصرة . وكان ينوي تحصين البصرة واتخاذها مقراً لجيشه وتدابيره السياسية والعسكرية (٢) .

وقد فاوض الاتراك سراً للاذن بمرور جيشه (٣) . وكان وكيل فرنسة السياسي يسعي لتهيئة الاذهان فى الشرق الاوسط ويفاوض الشاه بشأن هذه الحملة . ولم يصغ الشاه لأقوال فرنسة الا لما اقترحت سنة ١٨٠٤ ان تتفق معه ضد روسية ، لكنه بقي متردداً بين قبول اقتراحها والاتفاق مع الانكليز وكانوا يفاوضونه ايضاً . واخيراً وافق على الاتفاق مع فرنسة لما جاء الكولونيل روميو ، وكانت الحرب قد نشبت بين ايران وروسية ، يحمل اليه مسودة

---

(١) Sykes ج ٢ ص ١٨٧ — ٢٩٨ و Curzon ج ٢ ص ١٨٧

(٢) Chesney ج ١ ص ٥٣٦

(٣) Sykes ج ٢ ص ٤٠٣

اتفاقية تعهد نابليون فيها ان يعينه على استرجاع جورجية ويجهزه بالمؤون والمعدات الحربية ، وكان نابليون يعرف مدى التأثير السيء في نفس الشاه لاستيلاء الروس على جورجية فاراد ان يستفيد من ذلك ويستعين بالشاه لمهاجمة الهند .

وأرسل الشاه المرزا رضا ممثلاً من قبله الى البلاد الفرنسية فامضى معاهدة فنكنستاين (Finkenstien) في مايس سنة ١٨٠٧ ووافق الشاه بموجبها على ضم قواه الى جيوش فرنسة في فتح الهند . وقد وصلت بعد امضائها ببضعة أشهر بعثة الجنرال غاردان (Gardanne) — وفيها سبعون ضابطاً — لتدريب الجيش الفارسي على الاساليب العسكرية الاوربية . والمظنون ان نابليون أراد ان يستفيد مما تدرب به من الجند في حملته على الهند[١] .

وعين نابليون احد قواده حاكماً على الممتلكات الفرنسية في الشرق ليترقب حركات الانكليز في الهند ويقف على صلاتهم بالامراء ويسعى لتهيئة الاذهان لمقدم الحملة ويرسل التقارير عن الحالة ويقدر ما تحتاج اليه الحملة من المعدات والمؤون . وقد أرسل هذا ممثلاً من قبله الى سلطان مسقط ليتداول معه ويحمله على الاتفاق مع فرنسة ، غير ان السلطان أبى ان يباحثه في غير ما يتعلق بالشؤون التجارية خوفاً من الانكليز وقد سبق ان تعهد لهم بان لا يتصل بالفرنسيين[٢] .

ولما عقد الصلح بين نابليون والقيصر الاسكندر الاول استبدل نابليون

---

(١) Sykes ج ٢ ص ٤٠١ — ٤٠٢

(٢) Miles ص ٣٠٠ — ٣٠١

هذه الخطة بأخرى . وقد تضمنت « معاهدة تلست » خلاصتها وهي ان :

« تسير فرنسة وروسية مشتركتين ، جيشاً مكوناً من »
« سبعين الف محارب الى ضفاف السند ، على ان تسمح »
« النمسة بمرور الجيش الفرنسي من بلادها وتساعده على »
« قطع الدانوب الى البحر الاسود . وان يتجمع الجيش »
« الروسي المؤلف من خمسة وعشرين الفاً من الجنود »
« النظامية وعشرة آلاف من القوزاق في استراخان ، »
« ومنها يقطع بحر قزوين الى استراباد حيث يبقى ريثما »
« يصل الجيش الفرنسي اليها . »

« وان تكون استراباد مقراً للجيش ومخزناً للميرة والمؤون »
« ومركزاً للمواصلات بين فرنسة والهند وروسية . »

« وان تنقل الجنود الفرنسية المكونة من خمسة وثلاثين »
« الفاً على نهر الدانوب في سفن توصلها الى البحر »
« الاسود . وتتولى روسية نقلها عبر هـذا البحر و بحر »
« آزوف . »

« وان يسير الجيشان بعد ذلك من استراباد الى المشهد »
« فهيرات ففزنه فقندهار حتى يبلغا السند . »

وقد قدرت مدة انتقال الجيش الفرنسي من الدانوب الى السند بمائة وتسعة عشر يوماً (١).

(١) Chesney ج ١ ص ٥٣٦ — ٥٣٧

غير ان الظروف لم تمكن نابليون من تحقيق هذه الخطط الحربية اذ هوى من ذرى مجده سريعاً وانتهى الامر به الى سنت هيلانه القاحلة . لكن هذه الخطط أصبحت من بعده أساس السياسة البريطانية لحماية امبراطوريتها الهندية بعد ان أشار فيها نابليون الى جميع الجهات التي يتوقع ان تهاجم الهند منها فنبه الانكليز الى لزوم القبض عليها . وهذه الطرق ثلاثة : طريق البحر الاحمر وطريق هيرات وطريق الفرات والخليج الفارسي .

اما الاول فقد سيطرت عليه بريطانية بسيطرتها على مالطة وقبرص ومصر والسودان وعدن والنواحي التسع المحمية وسواحل البلاد العربية والجزر القريبة منها .

وسدت طريق هيرات بضم بلوجستان الى الهند وتوطيد نفوذها في الافغان والتيبت والنصف الجنوبي من بلاد فارس .

اما طريق الفرات والخليج الفارسي فقد كان السبب في اهتمام بريطانية بطرق المواصلات بين البحر الابيض المتوسط والخليج الفارسي وفي سعيها لتوطيد نفوذها في فلسطين وفي جزيرة العرب والعراق وسواحل الخليج .

وقد أعقب مساعي نابليون لمهاجمة الهند استبدال بريطانية سياستها في الشرق الاوسط وفي الخليج الفارسي والعراق ، وكانت تنطوي على حماية مصالحها التجارية فقط ، بسياسة استعمارية فتاكة استهدفت السيطرة على الشرق الادنى والاوسط وسد جميع السبل بوجه كل من تحدثه نفسه بمهاجمة الهند . وكان لهذا التبدل مظاهر شتى نقتصر على ذكر ما يتعلق ببحثنا منها :

كان من أول مظاهر هذا التبدل مقاومة بريطانية النفوذ الفرنسي في

بلاد فارس والخليج . اما في بلاد فارس فقد اوفدت الكابتن جون مالكولن سنة ١٨٠٠ ، على أثر سماعها بنوايا نابليون والقيصر بولص ، ليحمل الشاه على الامتناع عن الاتفاق مع الفرنسيين وعلى تشجيع التجارة الانكليزية والهندية ومقاومة شاه الافغان . وقد نجح في عقد اتفاقية تعهد فيها الشاه بان يبعد كل من يقيم في ايران من الفرنسيين[١] .

غير ان الفرنسيين استطاعوا بالرغم من مساعي بريطانية ان يتقربوا من الشاه ويتفقوا معه[٢] . ومما ساعدهم في ذلك بعد المسافة بين كلكته ولندن وتباطؤ الوزارة الانكليزية في تقرير السياسة المراد اتباعها في ايران . على ان نفوذ فرنسة تضاءل بعد عقد معاهدة تلست التي نكث فيها نابليون بوعوده للشاه بشأن استرجاع جورجية . فاغتنمت انكلترة هذه الفرصة واوفدت الكابتن مالكولن مرة اخرى سنة ١٨٠٨ . فلما لم ينجح في مفاوضاته أرسلت السر هارفورد جونسن الذي بين للشاه لزوم الاتفاق ضد روسية واستعداد انكلترة لأن تدفع له مئة وسبعين الف « تومان » في السنة خلال المدة التي تكون فيها ايران معادية لروسية ، فرضي الشاه بذلك ؛ وكان من أول نتائج هذا الاتفاق اخراج المدربين الفرنسيين من الجيش الفارسي والاستعاضة عنهم بالمدربين الانكليز[٣] .

وفي عام ١٨١٠ أوفدت انكلترة الكابتن مالكولن للمرة الثالثة فعقد معاهدة جديدة تعهد الشاه فيها ان يبطل جميع المعاهدات المضرة بصالح

(١) Sykes ج ٢ ص ٤٠٤ — ٤٠٥

(٢) Sykes ج ٢ ص ٤٠١ — ٤٠٣

(٣) Sykes ج ٢ ص ٤٠٤ — ٤٠٥

انكلترة المعقودة بينه وبين الدول الاوربية الاخرى وان لا يسمح لجيش اجنبي معاد لبريطانية بالمرور من بلاده وان يحمل امراء خوارزم وبخارى وسمرقند على مقاومة أي جيش يمر ببلادهم بقصد مهاجمة الهند. وتعهد الفريقان ان يتعاونا في رد أي تعد خارجي، واشترطت انكلترة ان يكون لها رأي في حل مشاكل الحدود بين روسية وايران وتعهدت مقابل ذلك ان تزيد المنحة السنوية الى مئتي الف تومان في السنة على ان يوقف دفعها اذا اشتركت فارس في حرب ضدها وان يشرف الممثل البريطاني على صرف هذه المنحة[1].

وطلبت حكومة الهند، عند سماعها بمراسلة نابليون سلطان مسقط، الى وكيلها في بوشهر ان يزور مسقط ويفاوض السيد سلطان بشأن عقد اتفاق سياسي لمقاومة النفوذ الفرنسي. وقد وقع المرزا محمد — وكيل حكومة الهند يومئذ — وسلطان مسقط اتفاقاً في هذا الشأن كان أول اتفاق عقده الانكليز مع مسقط، تضمن سبعة بنود تعهد فيها السلطان ان يبعد الفرنسيين عن بلاده ويسد موانيه بوجه سفنهم مدة الحرب بينهم وبين انكلترة، وان يستعين بمشورة موظف انكليزي يقيم في مسقط.

ولما سمع حاكم الهند بتجدد العلاقات بين السلطان والفرنسيين أوفد الكابتن مالكولن اليه فاجتمع به في هرمز في اوائل سنة ١٨٠٠ وتضمن حديثه معه تهديداً بغلق موانيء الهند من سورات الى كلكته في وجه سفن مسقط ومقاومة تجارتها، فلم يتردد السلطان بعد هذا في التوقيع على اتفاقية جديدة رضي فيها باقامة وكالة سياسية للانكليز في مسقط[2].

---

(١) Sykes ج ٢ ص ٤٠٨ (٢) Miles ص ٢٩١ — ٢٩٢

وأخذت بريطانية تسعى بجد لبسط سيطرتها على سواحل الخليج وتتذرع باتفه الحوادث لسوق الحملات البحرية على القبائل فيها ، وأنزلت في عام ١٨٠٥ ، أول ضرباتها بقبائل الجواسم ، وكانت أشد قبائل السواحل المهادنة شكيمة ؛ وعقدت معهم المعاهدات التي سلبت بها سيادتهم شيئاً فشيئاً . وكانت اولى هذه الاتفاقيات اتفاقية سنة ١٨٠٦ التي اشترطت فيها عليهم احترام راية الشركة وعدم التعرض لسفنها والتابعين لها ، غير ان القبائل لم تلتزم بنصوصها واستمرت على سيرتها الاولى فهاجمت البحرين وطردت منها جنود عمان ، وكانت قد احتلتها كما مر بنا في الفصل السابق ، فساقت عليهم الشركة حملة اخرى دمرت (رأس الخيمة) وأحرقت ما يزيد على المئة من سفنهم وأجبرتهم على عقد اتفاقية سنة ١٨٢٠ ، وفيها خطت السواحل المهادنة الخطوة الاولى في الدخول تحت الحماية البريطانية ؛ وعقدت في الوقت عينه اتفاقية اخرى شبيهة بهذه الاتفاقية مع البحرين .

ولم تقف بريطانية في جهودها عند هـــذا الحد فقد أرسلت الخبراء البحريين لمسح سواحل الخليج ودرس المراكز المهمة فيه . وكان من أشهر هؤلاء الخبراء ، الليوتننت ولستيد من رجال اسطول المحيط الهندي ، وقد وصل مسقط في شباط سنة ١٨٣٥ فدرس السواحل ووصفها أحسن وصف وأخرج لها أول خارطة عصرية (١) .

واستبدلت بريطانية تأسيساتها التجارية في الخليج بتأسيسات سياسية مجاراة للأحوال الحادثة ، فقلبت وكالتها التجارية في بوشهر الى وكالة

---

(١) Wilson ص ٢٧٧ — ٢٨٤ و Miles ص ٣٣٧ — ٣٣٨

سياسية عام ١٨١٢ وفعلت مثل ذلك في بقية مراكزها في الخليج عام ١٨٢٢ . وكانت وزارة الخارجية حتى بداية القرن التاسع عشر لا تطلع على غير النزر اليسير مما يجري في ايران والخليج والبلدان المحيطة به ولكن التقارير المسهبة عن كل ما يحدث في هذه الجهات أخذت تتوالى على وزارة الخارجية البريطانية حتى اضطرت الحكومة الانكليزية ان تؤسس فرعاً خاصاً بشؤون هذه الجهات استخدمت فيه طائفة كبيرة من الخبراء ، وكانت حكومة مقاطعة بومبي تعين الوكلاء في بغداد والبصرة وبوشهر ومسقط فتولت حكومة الهند نفسها أمر هذه التعيينات[١].

واتخذت سياسة بريطانية في العراق عين هذا المجرى فقوي وكلاء الشركة علاقاتهم بالولاة ، وكانت قد تحسنت صلاتهم بهم كما مر بنا في الفصل السابق ، وأخذوا يسعون في تقوية نفوذهم بواسطة جلب الاسلحة والمعدات الحربية الى الولاة ومساعدتهم في مقاومة المنافسين لهم على مناصب الولاية في الاستانة . وتوسعت دائرة نفوذهم فامتدت من المدن الى القرى والقبائل ؛ وكان الولاة يغضون الطرف عن هذا الامر الخطير المخل بسيادة الدولة والمخالف لقواعد التمثيل السياسي والتجاري .

ولما أحس الانكليز بعزم نابليون على مهاجمة الهند ، كما مر بنا ، عينوا في بغداد مقيماً سياسياً دائمياً ، رقي الى درجة قنصل سنة ١٨٠٢ ، واصبحت بغداد مقراً للنفوذ البريطاني في هذه الربوع . وقد عين لهذا المنصب سنة ١٨٠٨ رجل قدير يدعى المستر كلوديوس جيمس رج (Claudius James Rich)

---

(١) Curzon ج ٢ ص ٥٥٣

تمكن مدة الثلاث عشرة سنة التي قضاها في بغداد من مضاعفة نفوذ القنصلية ورفع مستواها حتى اصبحت مقراً للطبقة العليا وملتقى كبار الموظفين والوجهاء ومضيفاً للزائرين ومعهداً للأبحاث الأثرية ، مما أدى الى استياء داود باشا فوقع الخلاف بينهما وأعلن الباشا الغاء جميع ما للاوربيين من الحقوق في بغداد ، ثم ضاعف الضرائب الكمركية على البضائع الانكليزية وأخذ يعرقل امور القنصل حتى اضطر الى طلب مغادرة بغداد ، فلم يأذن له بمغادرتها الا بعد أخذ ورد بين حكومة الهند و بغداد والاستانة[1].

على ان هذه الحال تبدلت بخروج داود باشا من بغداد فعاد نفوذ الانكليز الى ما كان عليه من قبل واستمر يتوسع بسبب خوف الولاة من كتابة القنصل الانكليزي الى الاستانة عن الاحوال في العراق والبلاد العربية واظهار ضعف الولاة واهمالهم شؤون الدولة واشتغالهم لمنافعهم الخاصة[2].

ولما عرف شيوخ القبائل بما للمقيم الانكليزي من النفوذ وأحسوا انه يستطيع ان يساعدهم في مقاومة الولاة والسعي لتبديلهم بالكتابة الى الاستانة تقربوا اليه وخطبوا وده . ويذكر للمستر لونكرك ان هذه الفئة أحست يومئذ بان موقف بريطانية في القرن العشرين سيختلف عن موقفها في القرن التاسع عشر ، أي انها ستمثل في القرن العشرين دوراً سياسياً خطيراً يستلزم توطيد صلات رجال القبائل معها . ولا نعرف أكان هذا الشعور منبعثاً من أهل العراق أنفسهم أم انه كان من وحي الوكلاء البريطانيين في

(١) Longrigg ص ٢٥٤—٢٥٦

(٢) Longrigg ص ٢٧٧

هذه البلاد ؟ ومهما يكن الامر فانه يشير الى جهود كانت تبذل في طي الخفاء .

ولم تنقض آخر سني القرن التاسع عشر حتى أصبح وكيل انكلترة في العراق ممثلاً ممتازاً ومعاون الوكيل في البصرة قنصلاً ، ووكيلها في الموصل معاون قنصل[1].

***

ونشأت لانكلترة في الخليج وفي البلاد المحيطة به ، على أثر هذا التبدل في سياستها الامبراطورية ، مصالح اخرى على جانب عظيم من الخطورة ، ومن أهمها قضيتا المواصلات والمخابرات بين الامبراطورية في الشرق ومرجعها في لندن . فقد اضطر الانكليز بعد ان أبدلوا سياستهم التجارية بهذه السياسة الاستعمارية الى ان يعملوا على ربط أطراف الامبراطورية بلندن باحدث وسائل المواصلات والمخابرات ليكونوا على علم بكل ما يجري في الشرق وعلى استعداد لدفع ما قد يهدد امبراطوريتهم من الاخطار .

وقد أشرنا في بحث استعمار الهند الى أسباب تأسيس السكك الحديدية ومراكز البرق والبريد وسنأتي هنا على خلاصة عن مد الاسلاك البرقية بين لندن والهند على طريق العراق والخليج الفارسي ، الامر الذي جعل لهذه البلاد أهمية سياسية خاصة ، على ان نعود الى البحث في أمر طرق المواصلات في موضع آخر من الكتاب .

أحس الانكليز بالحاجة الى ربط الهند وبريطانية بالاسلاك البرقية قبيل

---

(١) Longrigg ص ٢٧٩ — ٢٨٠

منتصف القرن التاسع عشر لما رأوا ان انقضاء ثلاثة أشهر على ارسال الكتاب واستلام جوابه لم يبق ملائماً لمصالحهم الاستعمارية الواسعة . وقد كانت فتنة تمرد الجنود الهندية في البنغال والاضطرابات التي وقعت على أثرها في أطراف الهند من العوامل التي نبهت الانكليز الى لزوم تأسيس وسائل المخابرات الحديثة اذ كان تأخر المخابرات بين لندن ودلهي من أهم الاسباب التي أدت الى تفاقم الفتنة . وكان توسع المصالح التجارية والاستعمارية في الهند وحاجة هذه المصالح الى وسائل المخابرات الحديثة ومساعي أصحاب مصانع الحديد لايجاد سوق جديد لصناعتهم النامية من جملة العوامل التي ساقت الحكومة البريطانية الى الاهتمام بشؤون المخابرات ايضاً .

وقد حاول الانكليز سنة ١٨٥٩ ان يوصلوا لندن بالهند بالاسلاك البرقية عن طريق البحر الاحمر ففشلوا ، ولذلك فاوضوا الحكومة العثمانية في السنة عينها لربط خط اسكدار ببغداد فالهند فوافقت . وعلى أثر ذلك أرسلت حكومة الهند الكولونيل باتريك ستيورد ليدرس سواحل الخليج استعداداً لمد أسلاك بحرية تتصل في الفاو باسلاك برية تربطها بالخط التركي في بغداد . وقد ابتدأ العمل في هذا الخط سنة ١٨٦٣ وانتهى سنة ١٨٦٩[١] .

وقررت حكومة لندن إقامة خط آخر احتياطي يمر بالاراضي الفارسية ؛ وتم الاتفاق بينها وبين الشاه على مده بين بغداد وطهران عن طريق كرمنشاه على ان يتصل ببوشهر عن طريق اصفهان وشيراز ثم بالهند عن طريق البحر . ثم أنشأت خطين آخرين ربط الاول الخط الفارسي بالخط الروسي

---

(١) Longrigg ص ٢٩٧ و Curzon ج ٢ ص ٦٠٧

الاوربي عن طريق القفقاز ، وكان الثاني خطاً مزدوجاً اقيم بطريق طهران وخصص للمخابرات مع الهنـــد فقط ، وقد افتتح في ٣١ كانون الثاني سنة ١٨٧٠ .

والف الانكليز الشركة الشرقية سنة ١٨٦٧ لاعادة محاولة مد الخط البحري ، بعد ان فشلوا في الكرة الاولى ، فتمكنت من وضع الاسلاك البحرية بين انكلترة وجبل طارق ثم في البحر الابيض المتوسط الى مالطة فالسويس فعدن . وقد افتتح هذا الخط سنة ١٨٧٠ .

ولابد من ان يتبين القارئ أهمية العراق والخليج في أمر المخابرات البرقية بعد ان رأى مما مر بنا لزوم هذه الخطوط للمصالح الاستعمارية في الهند وحاجة الرأسمالية الصناعية في انكلترة اليها وعرف ان لا سبيل لهذه الخطوط من الوصول الى الهند الا بعد المرور بهذه الطرق ، لوعورة الطريق البري في شمال الهند ، ولعدم استقرار الامور في الافغان .

وقد تمكن الانكليز في مدة وجيزة من مد الخطوط البرية والبحرية الآتية ، بين الهند وأطراف الخليج فكان لذلك أثر عظيم في توسع مصالحهم الاستعمارية في الخليج وفي البلاد المجاورة له :

١ ـ الخط البحري بين كراجي وجسك وقد افتتح سنة ١٨٦٨ .

٢ ـ الخط البري المزدوج بين كراجي وجسك وقد افتتح سنة ١٨٦٩ .

٣ ـ الخط البحري بين جسك وهنجام وقد تم انشاؤه سنة ١٩٠٤ .

٤ ـ الخط البحري بين هنجام وبوشهر وقد اكمل سنة ١٩٠٤ كذلك .

٥ ـ الخط البحري بين جسك وبوشهر وقد اكمل سنة ١٨٨٥ .

٦— الخط البحري البري بين هنجام وبندر عباس ماراً بالجزيرة الطويلة وقد اكمل سنة ١٩٠٥ .

٧— الخط البحري بين بوشهر والفاو وقد افتتح سنة ١٨٦٤ .

٨— الخط البحري بين جسك ومسقط وقد افتتح سنة ١٩٠١ .

* * *

ومع ان هذا الانقلاب في السياسة البريطانية في الخليج وفي البلاد المحيطة به أدى الى ان تتقدم المصالح السياسية الاستعمارية على المصالح التجارية فيه ، وكانت هي المتقدمة من قبل ، غير ان الرأسماليين الانكليز لم يكن ليفوتهم تقدير المجال الواسع الذي سينفسح لبضائعهم بعد ان بسطت بريطانية نفوذها في الخليج وفي البلاد المجاورة له . وكان ضعف النفوذ البريطاني في الخليج قد أدى الى ان تفكر شركة الهند الشرقية بقطع صلاتها التجارية به بعد ان اشتدت منافسة الهولانديين لها فيه [١] . غير ان هذا التبدل في سياسة بريطانية في هذه الجهات بعث الحياة في تجارتها ، وكانت الحكومة البريطانية نفسها تعمل على تقوية هذه المصالح التجارية لتتخذ من ذلك ذريعة للتدخل في شؤون الخليج ومبرراً في انفاق ما تجمعه من دافع الضريبة في سبيل تأمين مصالح الاستعمار التي تنحصر فائدته بالرأسماليين وحدهم .

وكانت الحكومة الانكليزية تحبذ للمتاجرين الاتصال بهذه الجهات وتصور لهم الخليج موصلاً للأسواق وملتقى للطرق التجارية العظيمة التي

(١) Curzon ج ٢ ص ٥٣٣

تخترق بلاد فارس فتتصل بالهند وتركستان والصين ، والبصرة ميناءاً خطيراً وفناً لتجارة العراق والشرق الادنى ، والقبائل العربية في صحاريها مصرفاً عظيماً فهي تمد بالملايين واذا اشترى كل فرد من جموعها ذراعاً من المنسوجات القطنية كل سنة صرفت منشستر الكميات الجسيمة من منتوجاتها .

وكان وضع الخليج والبلاد المحيطة به مما يغري الباحثين عن الاسواق والمواد الخام ، اذ ان الموانئ على سواحل الخليج الشرقية هي رؤوس طرق قديمة مهمة كطريق بندر عباس الذي يتصل بكرمان فيزد فالمشهد ، وطريق لنجه الذي يؤدي الى لورستان ، وطريق بوشهر الذي يتصل بشيراز والطريق الذي يوصل المحمرة بششتر .

وكان العراق فيما مضى ملتقى الطرق التجارية بين الشرق والغرب . وكانت البصرة من أهم موانئ العالم ، تأتي السفن التجارية اليها من المحيط الهندي ومن جهات الخليج تنزل فيها أحمالها فتنقل منها الى بغداد وتوزع على ثلاثة طرق : يتصل الاول بالموصل ، عن طريق دجلة ، ثم بحلب ؛ ويتصل الثاني بالفلوجة ، وكانت القوافل تقطع منها صحراء الشام الى سورية ؛ ويتصل الثالث بايران عن طريق كرمنشاه . ولا تزال هذه الطرق باقية آثارها حتى الوقت الحاضر (١) .

ومن اولى البعثات التي أوفدها الانكليز الى العراق بعثة جسني (Chesney) التي سمت لدرس شؤون العراق التجارية والاقتصادية ، بالاضافة الى الامور السياسية الاخرى التي جاءت من أجلها فتكهنت بمستقبل باهر

---

(١) Earle ص ٢ — ٣

للتجارة بعد ان يصبح الفرات صالحاً لسير السفن ويكون طريق التجارة بين البحر الابيض والخليج .

وكان مما زاد في قيمة هذه البلاد التجارية بنظر البعثة قدرتها على شراء مقادير كبيرة من مواد التجارة الانكليزية الهندية كالسكر والشاي والمنسوجات القطنية . وكان من رأي البعثة ان الانكليز لو اتجروا معها رأساً لتضاعفت قدرتها على الشراء ، اذ كان التجار من الوطنيين يبتاعون البضائع بعد ان تمر بايدي كثير من الوسطاء فتتضاعف أسعارها ، حتى ان البعثة لاحظت ان قطعة من القماش قيمتها في منشستر لا تزيد على ثلاثة عشر شلناً كانت تباع في هذه الاسواق باثنين وثلاثين شلناً ، بينما لو استوردتها شركة انكليزية لاستطاعت ان تنزل هذا السعر الى النصف فتتضاعف بذلك قدرة السوق للشراء . ولاحظت البعثة ان التجارة الروسية كانت تهدد التجارة الانكليزية في أسواق ايران والعراق وكردستان لأن أسعار بضائعها كانت أقل بكثير من أسعار البضائع الانكليزية .

ورأت البعثة ايضاً ان صادرات العراق ومن أهمها الحبوب والتمر ومواد اخرى لازمة للصناعة الانكليزية كالصوف والجلود والعفص وعرق السوس والثمار المجففة وشمع العسل والزرنيخ ، ليس مما يجوز اهماله . كما ان في استطاعة ايران ان تصدر مقادير لا يستهان بها من هذه المواد عدا ما تصدره من السجاد والثمار المجففة والقطن . وكانت جميع هذه المواد تباع باسعار بخسة جداً ، فالقنطار من العفص الجيد مثلاً كان يباع في أسواق الموصل بتسعمائة وثلاثين غرشاً ، ويكون سعره بعد نقله الى الاسكندرية نحو الف وثلثمائة غرشاً ، أي

ما لا يزيد عن اثنين وخمسين شلناً . وتبين للبعثة ان الشركات لو ضبطت تجارة الموصل اتم لها القبض على تجارة ديار بكر وماردين ، وهما مركزان لا يستهان بهما اذ تمتد منهما الطرق التجارية الى آسية الصغرى وفيها أسواق واسعة للسكر والمنسوجات القطنية والحريرية[1] .

***

ولما اشتدت المنافسة الاستعمارية بين انكلترة وروسية القيصرية ، في أواخر القرن التاسع عشر ، قدم اللورد كرزن — الاستعماري المتطرف الذي كان نائباً للملك في الهند — للوزارة البريطانية بتاريخ ٢١ ايلول سنة ١٨٩٩ بياناً مفصلاً حول أهمية الخليج والاراضي المحيطة به ولزوم تقوية النفوذ البريطاني فيه لضمان سلامة الهند ، وأظهر الحاجة الى سلوك سياسة جديدة تكون أكثر حزماً واقداماً[2] ، فايد اللورد هملتون ، وكان وزير الهند ، في جوابه المؤرخ في ٦ تموز سنة ١٩٠٠ رأي حكومة الهند وطلب اليها ان تضاعف الجهود في رعاية مصالح الامبراطورية في هذه الاماكن ، وان تحتاط الى ما قد يأتي به المستقبل ، وأشار من طرف خفي الى جهود كانت تبذل يومئذ لتثبيت نفوذ انكلترة في البلاد المحيطة بالخليج[3] .

وكانت روسية كلما حاولت ان تؤسس لها محطة في الخليج وجدت في معارضة انكلترة عقبة لا تستطيع التغلب عليها ، حتى عمدت مرة الى الاحتيال

---

(١) Chesney ج ٢ ص ٧٠٢ — ٧٠٣

(٢) British Documents. Vol. IV ص ٣٥٨ — ٣٦٢

(٣) British Documents. Vol. IV ص ٣٦٤

ولـكن الانكليز فطنوا الى دخيلة الامر فلم يمكنوها من تحقيق أمنيتها . وذلك ان احدى السفن الروسية رست في بندر عباس واشترت كمية كبيرة من الفحم شحنت قسماً منه وادعت انه لم يبق مكان للقسم الآخر فارادت ان تبقيه في الميناء على ان تعود لشحنه ولـكن الانكليز طلبوا الى حكومة الشاه ان ترفض طلب السفينة الروسية وتصر على لزوم شحن الفحم بأجمعه ففعلت .

ثم شاع ان روسية تنوي إقامة خط حديدي تكون نهايته الـكويت ، فاحدث ذلك ضجة عظيمة في الاوساط السياسية الانكليزية ساقت الحكومة الى عقد اتفاقية جديدة مع أمير الـكويت حددت حرية تصرفه باملاكه ، وأعلن اللورد لونسدون « تصريحه الشهير » في قاعة مجلس اللوردات في ٥ مايس سنة ١٩٠٣ حيث قال ، مهدداً الدول ولاسيما روسية والمانية :

« اننا نعتبر تأسيس أي دولة اخرى قاعدة بحرية او ميناءاً محصناً في الخليج الفارسي تجاوزاً على المصالح البريطانية من واجبنا ان نرده بكل ما لدينا من الوسائل[١] . »

وكاد يكون تنافس الدولتين على الخليج سبباً في نشوب حرب بينهما . على ان انكلترة جنحت للحكمة في التفاهم بعد ان دخلت المانية ميدان التنافس ايضاً . وأيد سياسة التفاهم فريق من الساسة الانكليز في طليعتهم السر اوكونور ، سفير بريطانية في استانبول[٢] . فانتهى الامر بعقد « اتفاقية

---

(١) ص ١٣٤٧ — ١٣٤٨ من محاضر جلسات مجلس اللوردات :
House of Lords, Forth Series, Vol. 121, 1903

(٢) British Documents, Vol III ص ٣٨٢

سنة ١٩٠٧ » بين انكلترة وروسية التي سويت بها اختلافات الدولتين فيما يتعلق بمطامعها الاستعمارية فى ايران والتيبت والافغان . وقد قسمت بلاد ايران بمقتضى هذه الاتفاقية الى ثلاث مناطق نفوذ : تكون الشمالية منها منطقة نفوذ لروسية القيصرية ، والجنوبية منطقة نفوذ لبريطانية ، وتكون المنطقة الوسطى منطقة محايدة تشترك الدولتان فى تقرير مايتعلق بها . وبهذه الاتفاقية تخلصت انكلترة من المنافسة الروسية فى سواحل الخليج الفارسي اذ لم يبق لروسية طريق الى الوصول اليها .

***

ونشأت في أوائل القرن العشرين مصالح اخرى لبريطانية في الخليج باكتشاف النفط في ايران . وذلك ان وليم نوكس دارسي ، وكان محامياً في استرالية أثرى باكتشاف معدن الذهب في قطعة أرض كان يمتلكها هناك ، سمع بوجود النفط في بلاد ايران فاوفد أحد الجيولوجيين ليستطلع الامر فلما استوثق منه جاء الى ايران واستطاع ان يقنع الشاه سنة ١٩٠١ بان يمنحه امتياز استخراج النفط والغاز والزفت في البلاد الايرانية عدا المقاطعات الخمس الشمالية . ولما باشر العمل وجد ان ما كان لديه من المال لا يكفي للقيام بهذا المشروع الجسيم فاضطر ان يفاوض الرأسماليين الانكليز فتألفت شركة النفط الانكليزية الفارسية سنة ١٩٠٩ لاستخراج النفط بمقتضى الامتياز الذي استحصله دارسي[١] .

ولما أدرك الساسة الانكليز ورجال الاسطول ان سيكون للنفط أهمية

---

(١) Moon ص ٢٨٦

كبرى في الحروب المقبلة تدخلت الحكومة الانكليزية في شؤون هذه الشركة ، وأوفد السر ونستن شرشل — وكان وزيراً للبحرية — بعثة لدرس ميادين النفط الفارسية وتقديم تقرير عن درجة أهميتها للاسطول البريطاني ، وقررت الحكومة البريطانية على أثر ادلاء هذه البعثة بنتائج درسها ان تؤيد شركة النفط الانكليزية الفارسية في بلاد ايران ، ثم صرح المستر شرشل في مجلس العوام في تموز سنة ١٩١٣ ان وزارة البحرية مزمعة على امتلاك عدد من الحصص يضمن لها السيطرة في ادارة الشركة وتجهيز الاسطول بما يحتاج اليه من هذه المادة الحيوية . وقد تحقق ما صرح به المستر شرشل بعد ذلك ببضعة أشهر (سنة ١٩١٤) . وهكذا أصبحت الحكومة البريطانية تملك القسم الاعظم من أسهم هذه الشركة وتحتم عليها ان تحمي مصالح هذه الشركة بقوة السلاح ان استلزم الامر ، حتى كان السبب الاول للحملة التي جهزتها بريطانية على العراق عند إعلان الحرب على الدولة العثمانية عام ١٩١٤ ، كما ادعى الانكليز ، رغبة انكلترة في حماية منطقة شركة النفط الانكليزية الفارسية في عبادان .

وقد ازدادت أهمية الخليج من هذه الوجهة باكتشاف معدن النفط في البحرين واحتمال اكتشافه في اماكن اخرى من الخليج حيث قد نشطت الشركات الانكليزية في اجراء التحريات عن هذا المعدن الثمين .

وقد أصبح الخليج في الوقت الحاضر ، ولاسيما الجهة العربية منه ، ممراً لطائرات شركة الطيران الامبراطورية فاكتسب بذلك موقعاً جديداً في السياسة الامبراطورية بالنظر لأهمية الطيران في الوقت الحاضر وما سيكون له

من الاهمية في المواصلات والحروب في المستقبل . وللانكليز في الخليج الآن ثلاثة محطات طيران في الكويت والبحرين والشرجة .

وآخر ما جرى من التبدلات في الخليج تنازل بريطانية عن محطتي هنجام وباسيدو (الاولى فى جزيرة هنجام والثانية فى جزيرة قشم) بناء على الاستياء الذي أثاره وجودهما فى أملاك الدولة الايرانية و بالنظر الى مرور الخط الجوي البريطاني من سواحل الخليج الشرقية حيث تريد الحكومة البريطانية — على ما يظهر — ان تمركز قواها .

وقد اتخذت الحكومة البريطانية مكاناً لائقاً فى الطرف الشمالي الشرقي من جزيرة البحرين ابتاعته وزارة البحرية الانكليزية من الشيخ عيسى الخليفة شيخ البحرين فى سنة ١٩٣٤ لتجعل منه محطة بحرية عوضاً عن محطتي هنجام و باسيدو ، وهو قريب من مكان صالح لرسو البواخر وفيه مجرى ماء صالح للشرب ، والمسافة بينه وبين عاصمة البحرين لا تزيد عن ثلاثة أميال[١] .

وقد صرح السر جون سيمون جواباً على سؤال وجه اليه فى هذا الموضوع فقال : « لقد توقف استعمال المحطة البحرية فى باسيدو بجزيرة قشم الايرانية من قبل سفن صاحب الجلالة منذ سنة ١٩١١ . وارتأت حكومة صاحب الجلالة مؤخراً ان المصالح البريطانية فى الخليج يمكن صيانتها على الوجه المطلوب بنقل هذه المحطة الى البحرين فى الجانب العربي من الخليج . والمفاوضات جارية الآن مع الحكومة الايرانية لصيانة المقبرة البريطانية

---

(١) التايمس اللندنية في ٨ نيسان ١٩٣٥

في باسيدو[١] » .

ومما هو جدير بالذكر ان الصحف البريطانية وفي جملتها التايمس اللندنية نوهت باعتبار البحرين تحت الحماية البريطانية فرد عليها وزير ايران المفوض في لندن يقول « ان الحكومة الايرانية لم تعترف قط بالحماية البريطانية على البحرين وانها لا زالت تعتبرها جزءاً من الاراضي الايرانية ... كما ان ايران لم تتنازل عن سيادتها على البحرين كما يظهر من المخابرات بين الحكومتين حول هذا الموضوع ، وقد احتجت أخيراً على منح امتياز استخراج النفط في هذه المنطقة[٢] » .

وبريطانية مجدة في الوقت الحاضر في توطيد نفوذها في جهة الخليج العربية بالنظر الى التطورات التي حدثت مؤخراً في ايران . وقد حصنت الدبي قبل مدة وجيزة ، ويستدل مما جاء في صحفها انها تنوي تحصين مراكز اخرى في جهات الخليج العربية .

---

(١) التايمس اللندنية في ٤ نيسان سنة ١٩٣٥

(٢) Morning Post في ٩ نيسان ١٩٣٥

الفصل الرابع

وادي الفرات اقصر الطرق الى الهند

بعد ان أصبح أمر حماية الهند وتقريب المسافات بينها وبين انكلترة الشغل الشاغل لسياسة الامبراطورية منذ أواخر القرن الثامن عشر ، و بعد ان أظهرت خطط نابليون لمهاجمة الهند ان طريق رأس الرجاء الصالح لم يبق صالحاً لضمان المنافع الاستعمارية في الهند ولدفع الاخطار التي تتهددها ، وان مصر — وهي الجسر بين البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر — موضع خطر على الامبراطورية اذا قبض عليه عدو لبريطانية ، رأى ساسة انكلترة ومن ورائهم رجال الرأسمالية فيها ان قد بات من المحتم عليهم مراقبة شؤون الشرق الادنى وحماية الدولة العثمانية من روسية والنمسة الطامعتين في اقتسام أملاكها على ان تبقى ضعيفة لا تستطيع ان تمنع تبسط النفوذ البريطاني في بلادها ، ورأوا كذلك ان يحولوا دون نشوء دولة قوية في مصر او سيطرة دولة أجنبية غير بريطانية على شؤونها . وكان من نتائج هذه السياسة ان مثلت بريطانية دوراً خطيراً في جميع أدوار القضية الشرقية ، وقاومت محمدعلي الكبير لما أراد ان يوحد بين سورية ومصر ويؤسس فيهما دولة حديثة ذات شأن ، واشتركت في حرب القرم فارغمت قيصر روسية على نقض معاهدة سن ستيفانو مع الدولة العثمانية وقبول مقررات مؤتمر برلين الذي ربح فيه الانكليز جزيرة قبرص وحاولوا ان يرغموا السلطان على إدخال بعض الاصلاحات الطفيفة في مملكته المتداعية بقصد ايقاف تهدمها ولو الى حين . وكان أمر

لحماية الهند وتقريب المسافة بينها وبين لندن كانت من أهم الدوافع في اهتمام انكلترة بوادي الفرات ، حيث قام الانكليز بمحاولات عديدة لتمهيد طرق الملاحة في الفرات ومد السكك الحديدية بين البحر الابيض المتوسط وسواحل الخليج في هذا الوادي كما سيأتي بيانه

وكانت سياسة انكلترة في الشرق الادنى أول الامر ، سياسة سلبية انطوت على مقاومة توسع النفوذ الروسي في الدولة العثمانية ومعارضة النفوذ الفرنسي في مصر ، وكان نفوذ فرنسة قد قوي فيها بسبب اعتماد محمد علي الكبير على الفرنسيين في القيام باصلاحاته . فلما شرع فرديناند دي لسبس يسعى لتحقيق مشروع ترعة السويس الذي أراد نابليون القيام به فاخفق ، قاومته انكلترة مقاومة كادت تودي الى إحباط مساعيه . وبالرغم من ان دي لسبس الذي كان مقرباً لدى الخديو عباس باشا في ٣٠ تشرين الثاني سنة ١٨٥٤ استطاع ان يحصل على امتياز حفر القناة لكنه وجد نفسه مضطراً للحصول على مصادقة السلطان على هذا الامتياز بحكم السيادة الاسمية التي كانت للسلطان على مصر ، فقاومه اللورد ستراتفورد رودكلف ، سفير انكلترة في استانبول ، مقاومة اضطر بسببها ان يعود الى فرنسة ليستعين بالامبراطور نابليون الثالث والامبراطورة اوجيني ، وكان يعتقد انه سينال مناصرتهما اذا ما أظهر لهما ان لهذا المشروع علاقة كبيرة بتعزيز النفوذ الفرنسي في مصر وان انتصار السياسة الانكليزية في مقاومته يؤدي حتماً الى خذلان سياسة فرنسة فيها وفي استانبول ، ولكن الامبراطور والامبراطورة لم يستطيعا التغلب على انكلترة في هذا الامر ، فاضطر دي لسبس ان يذهب الى لندن ليقنع ساسة الانكليز

ويكتسب تأييد الرأي العام فيها . فقاومه رجال انكلترة مدعين ان المشروع غير قابل للتطبيق من الوجهة الهندسية وانه يحتاج الى مبالغ طائلة لا ينتظر ان تسدّد أرباحها مما يعود به بعد انجازه ، ولأجل ذلك قالوا بان فرنسة لا تريد بهذا المشروع سوى تعزيز نفوذها في مصر(١).

وقد اهتم الانكليز في هذه الاثناء بانجاز طريق الفرات بقصد صرف نظر أصحاب رؤوس الاموال والرأي العام عن مشروع قناة السويس واتخاذ الاحتياطات اللازمة لمقاومة نفوذ فرنسة في حالة نجاح المشروع وتعزيز نفوذها في مصر . وبقي طريق الفرات موضوعاً على بساط البحث الى ان تم للانكليز القبض على قناة السويس بشرائهم أسهم الخديو اسماعيل باشا وبايجادهم باباً للتدخل في شؤون مصر بحجة حماية مصالح الدائنين من الرأسماليين الانكليز .

ثم اهمل المشروع حيناً من الزمن حتى عاد الى الوجود في الثلث الاخير من القرن التاسع عشر حين قيام الحركة العرابية في مصر ، وتقدم نفوذ روسية في تركستان والافغان وفارس . غير ان ظهوره هذه المرة كان قصير الامد ، اذ تنوسي مرة اخرى بخمود الحركة العرابية وتوقف روسية عن التقدم نحو الهند ، وتنوسيت معه مشاريع السكك الحديدية بين اوربا والخليج . الى ان عاد الى الوجود للمرة الاخيرة بمحاولة روسية في أواخر القرن التاسع عشر انشاء سكة حديد تكون نهايتها في الكويت ، وسعي المانية لانشاء

---

(١) Fitzgerold, Percy. (The Great Canal at Suez, Its Political and Financial History, With an Account of The Struggle of its Projector) in two Volumes. (London 1876)

سكة حديد بغداد .

***

كانت أنظار الانكليز قد اتجهت نحو الفرات على أثر المحاولات التي قام بها نابليون لمهاجمة الهند ، لكن اهتمامهم هذا لم يخرج الى حيز العمل الا بعد الربع الاول من القرن التاسع عشر يوم تألفت في انكلترة لجنة لدرس مشروع الفرات . وكانت الحكومة الانكليزية قد أعلمت سفيرها في الاستانة (اللورد ستراتفورد رودكلف) برغبتها في الحصول على معلومات ضافية عن الفرات ، وصادف ان مر باستانبول يومئذ الكابتن جسني أحد ضباط المدفعية البريطانية ، وهو في طريقه الى لندن بعد انجازه بحوثه العسكرية على الحدود الروسية التركية ، فسمع من السفير برغبة حكومته . وكان الضابط شاباً يتعشق المخاطرات والمغامرات فلم يتردد في قبول تولي هذه المهمة ، وتعهد ان يقوم بها على مسؤوليته وحسابه لأن الحكومة لم تكن خصصت لها يومئذ شيئاً من المال .

وصل الكبتن جسني دمشق في تشرين الثاني سنة ١٨٣٠ فسمع فيها بخبر ثلاثة ضباط من الانكليز أرادوا ان ينحدروا في نهر الفرات الى مصبه فهلكوا ولم يقع أحد لهم على أثر . على ان جسني لم يثنه هذا الخبر عن عزمه فانضم الى قافلة كانت سائرة في طريق الفرات حتى وصل الى (عنه) فتمارض واتخذ من هذا التمارض ذريعة للانفصال من القافلة وأقنع بعض أهالي القرية ان ينشؤوا له طوافة ينحدر عليها في الفرات فركبها هو وأربعة من أهالي القرية فيهم مترجم ودليل . وكان يجلس في مؤخرتها وبيده عمود من الخشب ،

طوله عشرة أقدام ، يسبر به غور النهر ليثبت المحلات التي يقل عمقها عن هذا المقياس فى مذكرة كانت معه فكان يدون فيها كذلك التفاصيل عن ضفاف النهر وأسماء القرى التي يمر بها وعدد دورها ونفوسها . وقد وصل « هيت » بعد خمسة أيام من يوم مغادرته (عنه) ، ثم وصل « الفلوجة » بعد خمسة أيام اخرى . ووصل بغداد فى أوائل سنة ١٨٣١ فاقام فى دار الوكيل الانكليزي بضعة أيام رحل بعدها الى البصرة وتوغل فى وادي نهر كارون ، وعاد بعد ذلك الى انكلترة يحمل مذكراته وخريطة موجزة لنهر الفرات[١] .

قدم جسني عن رحلته هذه تقريرين وقفت على واحد منها[٢] ، اما الآخر فقد نوه عنه فى تقريره الاول مشيراً الى انه تقرير سري شرح فيه أهمية بغداد والعراق للامبراطورية البريطانية . وقد قابل فى تقريره الاول بين طريقي الفرات والبحر الاحمر فقال : ان الاول أقصر من الثاني بمائة وسبعين ميلاً ، وان من فوائد طريق الفرات عدم تعرض السفن فيه لرياح تعوق سيرها كما هو الحال فى البحر الاحمر فى موسم الرياح الموسمية ، وان السفن فى هذا الطريق لا تحتاج الى حمل كثير من الوقود اذ تستطيع ان تحصل على ما تحتاج اليه من الخشب والفحم العادي من القبائل على ضفاف النهر . وذكر

---

(١) خلاصة هذه الرحلة مأخوذة عن :

De Warren, (European Interests in Railways in The Valley of The Euphrates)

اما التفاصيل فموجودة في كتاب جسني عن هذه الرحلة وقد مر ذكره

(٢) The Results of an Examintion of The Red Sea and The Euphrates, Submitted by F. R. Chesney, Captain in The Royal Artillary. Feb. 2, 1833

من مساوئها احتمال مهاجمة القبائل للسفن ، وحاجة السفن الى اتخاذ الحيطة الدائمة ، ووجود بعض الشلالات القوية ؛ لـكنه رأى ان التغلب على هذه العقبات أمر سهل اذ استرضيت القبائل على ضفتي النهر . وقال انه يرى ان خطر القبائل يزول بتحضرها ؛ ولم يكن ذلك في نظره أمراً عسيراً . وذكر كذلك ان طريق الفرات عدا أهميته التجارية والدفاعية ، يقرب المسافة بين ايران وانكلترة اذا فتح طريق بين الفلوجة وطهران او بين الفلوجة وتبريز .

واهتم الانكليز للأمر فانتخب البرلمان سنة ١٨٣٤ لجنة لدرس المشروع ، وأظهر الملك وليم الرابع رغبة كبيرة في ايصال الهنـد بانكلترة عن طريق الفرات ، ثم قرر البرلمان ارسال بعثة لدرس الطريق (خصص لها عشرين الف جنيه) بقيادة جسني الذي رقي الى رتبة كولونيل .

وابتدأت البعثة برحلتها في الفرات في ١٦ مارت سنة ١٨٣٦ في باخرتين صنعتا خصيصاً لهذا الغرض وسميتا دجلة والفرات . وصادفت الباخرتين في طريقها زوبعـــة أغرقت الباخرة (دجلة) فوصلت الباخرة (فرات) وحدها الى البصرة بعد ان كابدت المشقات والاهوال لـكثرة الشلالات والصخور .

وجاء في تقارير أعضاء البعثة : ان النهر يكون صالحاً للملاحة اذا رفعت منه العوارض الصخرية وأمن جانب القبائل على ضفتيه بالاتفاق معها ؛ وكان تحقيق كلا الامرين في نظر البعثة سهلاً .

ومما يلفت النظر في هذا الشأن ، ذكر جملة من أعضاء البعثة ان بعض

قبائل الفرات طلبت الحماية الانكليزية ؛ وكان رأيهم ان من السهل تكوين العلاقات السياسية معها [١].

* * *

وظهر بعد ذلك مشروع وصل الخليج الفارسي بالبحر الابيض المتوسط بسكة حديد . وكان أول من اقترح القيام بهذا المشروع أحد موظفي السكك الحديدية في الهند سنة ١٨٣٠ فلم يستلفت اقتراحه النظر أول الامر . لكن فريقاً ممن أدركوا أهمية المشروع يومئذ جعلوا يبثون له الدعاية ؛ وكان في مقدمتهم السر وليم اندرو الذي الف « شركة سكة حديد وادي الفرات » سنة ١٨٥٦ وعين الجنرال جسني رئيساً للمهندسين فيها . وقد أيده اللورد بالمرستون والسر سترانفورد بغية مقاومة مشروع قناة السويس [١].

وراجعت هذه الشركة السلطان للحصول على امتياز المشروع فاذن لها بانشاء القسم الاول منه ، وهو القسم الذي اريد مده بين السويدا وحلب . ولكن الشركة عجزت عن جمع المال اللازم للقيام به ، وقد قدر بعشرة ملايين ليرة انكليزية ، بالرغم من الدعاية الواسعة النطاق التي بثتها في الصحف والوفود التي تقدمت بها الى الحكومة الانكليزية ، وهي تضم أعاظم رجال الانكليز ، تطلب المعونة فلم تنل منها غير المماطلة والوعود .

ولعل أهم ما وقف في سبيل نجاح هذه الشركة إحجام أصحاب رؤوس

---

(١) الف عن رحلة هذه البعثة كتب عدة أهمها كتاب جسني الذي مر ذكره وهو كتاب ضخم بأربعة مجلدات ؛ ثم كتاب Ainsworth طبيب البعثة بمجلدين وهو :
A Personal Narrative of The Euphrates Expedition.

(٢) De Warren ص ٨ و Earle ص ١٧٦

الاموال عن شراء أسهم المشروع الذي كان في نظرهم محفوفاً بالمخاطر مجهول العاقبة . وكانت الحكومة أول الامر تتظاهر بتأييده ، واهتم البرلمان به فعين لجنة لدرسه ؛ لكن معاضدة الحكومة والبرلمان لم تخرج عن نطاق الكلام اذ انهما رفضا تخصيص مبلغ من المال لمساعدته .

والذي يتتبع البحث الذي جرى في هذا الموضوع يومئذ يرى ان الدوافع للاهتمام به كان أغلبها سياسياً دفاعياً يرجع الى خوف الانكليز من وقوع ما يسبب سد قناة السويس والى فزعهم من تقدم روسية نحو الهند .

أما خوفهم على قناة السويس فقد شرحه السر كارنت ولسلي (Garnet Wollesly) في خطبة ألقاها سنة ١٨٧٨ في إحدى الجمعيات السياسية بلندن حيث قال :

« لقد أشار المستر كورى الى سهولة تخريب القناة ، واني »
« واثق ان أكثر الحاضرين قد فكروا في هذا الامر »
« تفكيراً جدياً ، فتخريب القناة من أيسر الامور لمن »
« يريد ذلك كما لا يخفى على كل مطلع فمن السهل »
« سدها باغراق عدد من سفن القناة القديمة وهي ملأى »
« بالحجارة فيها ، كما ان انفجار نسافة فيها وهي بوضع »
« خاص يكفي لقطع طريق المرور منها عدة أشهر أو سنة »
« كاملة . ويجوز ان يعطل طريق السير فيها بادخال سفن »
« تجارية ضخمة واغراقها فيها . ومهما يكن الامر فمن »
« السخف المفرط ان نعتمد على قناة السويس وحدها »

« للاتصال بممتلكاتنا الشرقيـــة وقت الحرب[1] . »

وخيل للانكليز ان الخطر يتهدد القناة من ناحيتين : فاما ان ينسفها الثوار المصريون ويقطعوا عنها قناة الاسماعيلية او ان روسية ترسل عدداً من سفنها القديمة فتغرقها فيها عمداً .

وكان فزع الانكليز من روسية يشتد كلما اقتربت الخطوط الحديدية الروسية في تركستان نحو الهند ، لاسيما بعد ان أوصلت روسية تفليس بباكو بسكة حديد فقربت المسافة بين بطرسبرغ وعشقاباد خمسة أيام ، وصارت تمسح تركستان تمهيداً لإقامة الخطوط الحديدية ، وكانت تسعى كذلك الى مد الخطوط الحديدية في بلاد ايران ايضاً ، مما يقرب المسافة بين روسية وهيرات باب الهند .

وخير ما جاء في وصف الخطر الروسي وبيان أهمية سكة حديد وادي الفرات ما نقتطفه فيما يلي من رسالة كتبها البارون فون كوهنفيلد (Kohn Von Kohenfield) رئيس أركان الجيش النمسوي سابقاً[2] :

« ان روسية لن تتقدم الى الخليج بطفرة واحدة او بحرب »
« طاحنة ، انما سوف تغتنم ارتباك الاحوال في داخل »
« القارة الاوربية عندما تنشغل دول هذه القارة بمعالجة »
« مشاكلها الداخلية ، فتخطو نحو الخليج خطوة أثر »

---

(١) Andrew, The Euphrates Valley Route to India.

(٢) وهي : Kohn Von Kohnenfeild., The Strategic Importance of The Euqhrates Valley Railway, Translated by Sir C. W. Wilson. (London 1873)

« خطوة بفتح قطعة بعد اخرى من ارمينية ، و بالسير على »
« خيوه و بخارى ، و بالاستيلاء على بعض أجزاء المملكة »
« الايرانية .
« وأهم الطرق التي ستتجه أنظار روسية اليها في هـذا »
« الفتح العظيم هي :
« ١ — الطريق بين فارس ووادي الفرات ماراً بالعراق . »
« ٢ — الطريق بين اريفان والعراق عن طريق الموصل » .
« في وادي دجلة ماراً ببغداد بعد التقاطع مع الطريق الاول »
« ٣ – طريق تبريز — ششتر .
« ٤ — طريق طهران — ششتر — اصفهان ، ومنها »
« الى الخليج الفارسي .
« واذا قبضت روسـيـة على الفرات سهل عليها افتتاح »
« سورية وآسيا الصغرى عن طريقي حلب وانطاكية . »
« ومن المعلوم ان وادي الفرات الممتد عرضاً بين رأس »
« الخليج الواقع في شمالي انطاكية ورأس الخليج الفارسي »
« كقطر لجسم رباعي زاويتاه الغربيتان على البحر الابيض »
« المتوسط وزاويتاه الشرقيتان على بحر قزوين والخليج »
« الفارسي ، هو ملتقى جميع هذه الطرق .
« ولذلك فان القبض على هـذا الوادي يؤدي حتماً الى »
« السيطرة على جميع الاراضي الواقعة ضمن الجسم الرباعي »

« الآنف الذكر . فيجب اذاً ان تنحصر مقاصد روسية »
« السياسية والدفاعية في القبض على خط الفرات ، كما »
« يجب ان تكون غاية أعدائها الحيلولة دون وقوع ذلك »
« بكل ما اوتوا من قوة .
« وعلى هذا فان أهمية السكة الحديدية الممتدة في هذا »
« القطر الذي يوصل انطاكية بالخليج الفارسي امر مسلم »
« به ، اذ انها ستكون السبيل الوحيد لتعبئة الجيوش »
« اللازمة في أسرع لحظة سواء على الفرات او في القسم »
« الشمالي من أرض الرافدين ، لمهاجمة أطراف الجيش »
« الروسي وايقاف تقدمه .
« وقد يبدو لأول وهلة ان تقدم روسية نحو الشرق »
« لا يهدد غير تركية وايران ، ولكن لا الاولى وحدها »
« ولا الثانية ولا كلتاهما معاً تستطيعان دفع هذا الخطر »
« دون معونة أجنبية ؛ وهذه المعونة لا تتقدم بها غير »
« انكلترة التي لابد ان يقع النزاع بينها وبين روسية على »
« السيادة في هذه الجهة الآن او في المستقبل .
« وسيكون لسكة حديد وادي الفرات في هذا النزاع »
« المنيف من القيمة الحربية ما لا يقدر . وان انشاءها »
« منذ الآن لما يساعد على مقاومة سياسة روسية في آسية ، »
« إذ أن هذه السكة سوف تعزز قوة انكلترة في الشرق »

« وتزعزع المقام السياسي لروسية فيه .

« وان توسع نفوذ روسية يهدد اوربا باجمعها بالاضافة الى »

« الدول الآنفة الذكر ، لأن روسية لابد ان تهاجم »

« القسطنطينية ، محط آمالها ، عند أول تمكنها من آسيا »

« الصغرى ، وان تستحوذ على تجارة البحر الابيض »

« المتوسط وتقبض على برزخ السويس[1] .

« ومها يكن لقناة السويس من الاهمية لاوربا فانها في »

« منزلة ثانوية بالنسبة لسكة حديد وادي الفرات التي »

« تهيئ السبيل الوحيد لمنع روسية من التقدم في آسيا »

« الوسطى ولحماية قناة السويس .

وكان أنصار مشروع سكة حديد وادي الفرات يدعون ان في جملة منافع هذا المشروع :

١ – انه يوصل البحر الابيض المتوسط بالخليج الفارسي ، ولذلك أهمية كبرى من الوجهتين السياسية والتجارية .

٢ – انه يقصر المسافة بين الهند وانكلترة الف ميل ، ويقلل المدة اللازمة لقطعها من عشرين يوماً الى عشرة أيام .

٣ – انه يسهل القبض على ناصية الامور في الهند بقليل من الحامية فيقلل تكاليف الخزينة .

٤ – انه يوفر على الحكومة مبالغ طائلة من مصاريف نقل جنودها عند

---

(١) وكان مشروع حفرها لم يتحقق بعد.

وقوع حادث فجائي في أي فصل من فصول السنة .

٥ — انه يجعل بالامكان نقل الجنود من انكلترة الى الهند في أربعة عشر يوماً .

٦ — انه يهدد مقدمة ومؤخرة أي جيش يتقدم نحو الهند ، ويجعل أمر مهاجمتها واقتحامها أمراً عسيراً .

٧ — انه يمكن انكلترة ، لتقصيره المسافة والزمن وتسهيله المواصلات ، من القضاء على كل حركة عدائية في داخل الهند أو خارجها ، ويعزز نفوذها في اوربا اذ يجعل في استطاعتها استخدام الجيش الهندي هناك .

٨ — انه يضع بقبضة انكلترة أقوى جبهة حربية في العالم ، ويجعل آسيا الصغرى وايران منطقتي نفوذ لها .

٩ — ان سيطرة انكلترة عليه أمر متيسر اذ ان اسطولها يتسلط على كلتا نهايتيه ، في الخليج الفارسي وفي ساحل البحر الابيض المتوسط ، كما انه بطبيعة موقعه مأمون الجانب اذ يمر بين نهرين عظيمين هما دجلة والفرات .

١٠ — ان الارض التي يمتد فيها صالحة جداً لمد الخطوط الحديدية بحيث ان نفقات مد الميل الواحد منه لا تزيد عن عشرة آلاف ليرة انكليزية ، ولا يربو مجموع المبلغ الذي يحتاج اليه المشروع على العشرة ملايين .

وقد أيدت اللجنة البرلمانية في التقرير الذي قدمته عن هذا المشروع الكثير من الفوائد الآنفة الذكر وسجلت في تقريرها أهم المقترحات بشأن

بدايته ونهايته وهي : (١)

١ — ان يبدأ من الاسكندرونة او السويدا ويمر بحلب ويقطع الفرات قرب قصر جابر ثم يمتد محاذياً ضفة النهر اليمنى وينتهي عند الكويت .

٢ — ان يبدأ من الاسكندرونة او السويدا ايضاً على ان يقطع الفرات في بياس ويمتد محاذياً ضفة النهر اليسرى الى مكان مقابل لبغداد حيث يقطعه ثانية ويسلك الطريق المذكور في الاقتراح الاول الى الكويت .

٣ — ان يقطع نهر الفرات في بير ويتجه الى اورفه وديار بكر حتى يصل دجلة فيسير محاذياً ضفتها اليمنى الى بغداد ثم يتجه غرباً حتى يقطع نهر الفرات ويتبع الطريق المذكور في الاقتراح الاول الى الكويت .

٤ — ان يمتد على الوجه المذكور في الاقتراح الثالث على ان يحاذي الضفة اليسرى لنهر دجلة .

٥ — ان يبدأ الخط من طرابلس الشام ويقطع الصحراء عن طريق الشام وتدمر الى الفرات ويمتد في احدى الطرق الآنفة الذكر محاذياً للفرات .

وقد ارتأى البعض ان تكون بداية الخط على البحر الابيض المتوسط في الاسكندرونة لصلاحها لرسو السفن ، واعترض آخرون على ذلك لكثرة الامراض في هذا البلد ولوعورة المسالك التي يمر منها الخط الخارج منه . واقترح البعض الآخر ان تكون السويدا بداية الخط بالرغم من ان ميناءها غير صالح ، وذلك لخلوها من الامراض .

(١) Report of The Select Committee of The House of Commons Dated 22 nd July 1872.

اما نهاية الخط على الخليج الفارسي فقد ارتؤي ان تكون في الكويت او البصرة او المحمرة او خور عبدالله او بوشهر ، الا ان كفة الكويت كانت هي الراجحة واقترح البعض ان يوصل الخط بكراجي .

وارتأت اللجنة ان الخط الذي يمتد محاذياً مجرى الفرات يلائم المصالح الدفاعية ، اما الذي يمتد محاذياً مجرى دجلة ويمر بديار بكر فاكثر ملاءمة للمصالح التجارية .

هذه خلاصة قصة سكة حديد وادي الفرات التي بقيت مداراً للبحث حوالي المائة عام ، وكانت من أهم العوامل التي ساقت بريطانية الى الاهتمام بشؤون الشرق الادنى والخليج الفارسي ، وروجت فكرة حاجة الامبراطورية الى السيطرة على بلاد الرافدين لضمان سلامة أقصر الطرق الى الهند .

البـــاب الثاني

سكة حديد بغداد

الفصل الخامس

الرأسمالية الجرمنية تسوق المانية الى الاستعمار

لم يكن جهاد المانية في سبيل وحدتها إلا مظهراً من مظاهر الموجة القومية الرأسمالية التي طغى سيلها الجارف على اوربا في القرن التاسع عشر . فقد كانت المانية وهي مجزأة الى ما ينوف على ثلاثمائة إمارة إقطاعية مهبط الرجعية وقلعة الاقطاع الحصينة مدة القرون الوسطى ، فايقضتها يقضة الطبقة الوسطى في انكلترة وفرنسة وما عقب هذه اليقضة من الانقلابات السياسية كالثورة الدينية والثورة الفرنسية وحروب نابليون ، ومن الثورات الاقتصادية كالثورة التجارية بعد اكتشاف اميركة وطريق رأس الرجاء الصالح ، والثورة الصناعية التي أوجدها اختراع البخار والطباعة وغيرها من الاختراعات التي ضاعفت القدرة على الانتاج وأثارت الاذهان ، فارغمت المانية كما أرغمت ايطالية وغيرها من ممالك اوربا على ان تجد السير لتلحق بالدول التي تقدمتها قبل فوات الاوان .

وكان بسمارك الذي جعلت منه هذه اليقضة القومية الرأسمالية اداة لتحقيق أمانيها ، مع ما عرف عنه من المكر والدهاء ، يجهل حقيقة القوة التي تسوقه و يجهل ماتريد ، وكان بطبيعة نشأته وما تشرب به من روح الطبقة الارسطقراطية يطلب المجد والعظمة لنفسه ولألمانية أكثر مما يطلب المال والممتلكات . فكان يفضل أن يثبت دعائم الوحدة الالمانية ويضمن لها المقام الاول في السياسة الاوربية على الانشغال بمشاكل الاستعمار[1] . وكان

---

(١) ص ٩٩ من : History of Modern Europe 1878-1919, by G. P. Gooch.

يشجع انكلترة وفرنسة على الانغماس في ميدان الاستعمار بغية ان يؤدي الى تحكم النفرة والعداء بينهما فتسلم المانية من خطر اتحادهما ، فكان يحرض انكلترة على الاستحواذ على مصر و يحرض فرنسة على الاستيلاء على تونس ، و يشجعهما والدول الاخرى على المضي في تجزئة ممتلكات الدولة العثمانية المتداعية . وكان يريد من تشجيع فرنسة على ضم تونس ان ينسيها نكبة ١٨٧١ وما أصابها من الخسران بضياع الالزاس واللورين من جهة ، وان يبعد الشقة بينها وبين ايطالية ، التي كانت تطمع بتونس ايضاً ، من الجهة الاخرى[١].

على ان ضغط الرأسماليين على بسمارك أخذ يشتد يوماً بعد يوم ، لاسيما بعد ان أسسوا الجمعيات الاستعمارية وبثوا الدعاية الواسعة لاستمالة الرأي العام في المانية وأرسلوا المغامرين والمبشرين ليفتحوا لهم الطريق ، حتى اضطر أخيراً ان ينصاع لمشيئتهم فيوافق على رفع العلم الالماني على بعض الاراضي في افريقية[٢].

ولكن الاستعماريين الالمان لم يروا في بسمارك الاداة التي يستطيعون استخدامها لأغراضهم فناصبوه العداء . حتى اذا جاء وليم الثاني الى العرش وجدوا فيه ضالتهم فالتفوا حوله ينفخون فيه الروح الاستعمارية ويزيدون ما كان في نفسه من النفرة من بسمارك حتى أدى الامر الى اشتداد الخلاف بين القيصر ووزيره فانسحب بسمارك او اخرج واضطر الى الانزواء في عقر داره .

وكان في مجيء وليم الثاني الى العرش (١٨٨٨) وتخلي بسمارك عن

---

(١) Earle ص ٤٥ .

(٢) Gooch ص ٨٥ و ص ٦٠

منصب رئاسة الحكومة (١٨٩٠) فوز عظيم لمذهب الاستعمار ؛ وقد اعتنقه كثير من رجال السياسة والجيش بعد ان اعتقدوا ان سياسة الدولة يجب ان تقرر بمقتضى الوضع الاقتصادي فيها ، أي حسبما تمليه المصالح الرأسمالية(١).

وكانت الثورة الصناعية في المانية قد قلبتها الى مملكة صناعية بحتة وجعلتها بحاجة ماسة الى الاسواق والمواد الخام ، وزادت في مقادير رؤوس الاموال فيها حتى لم يعد في استطاعة الرأسماليين ان يستخرجوا منها مايتطلبون من أرباح فراحوا يفتشون عن مناح جديدة يستثمرون رؤوس أموالهم فيها . وكان من نتائج هذه الثورة الصناعية ان تزايد عدد السكان حتى أصبحت المانية بحاجة الى المواد الغذائية لاسيما في حالة الحرب ، مما أيد رأي الرأسماليين بلزوم الحصول على المستعمرات . وهكذا فاز الرأسماليون في اخراج المانية من عزلتها الاوربية فساقوها الى دخول ميدان الاستعمار .

على ان اعتناق المانية لمذهب الاستعمار جاء متأخراً اذ كانت الدول الاوربية قد اقتسمت خير ما في افريقيا وجنوب آسيا من الممتلكات فلم يبق لألمانية غير أجزاء قاحلة جرداء من افريقية لم تكن تصلح لتصريف البضائع او تجهيز ما تحتاج اليه المصانع من المواد الخام فضلاً عن عدم قدرتها على استيعاب رؤوس الاموال وتموين المانية بالمواد الغذائية . فبقيت المانية تتلهف لتطمين حاجتها من المستعمرات وتفتش عنها في زوايا الكرة الارضية حتى وجدت ضالتها في أملاك الدولة العثمانية .

(١) Moon ص ١٠٢

وكانت أملاك الدولة العثمانية بالرغم مما سلخ منها من الممتلكات في شمال افريقية لا زالت تضم بلاداً واسعة الارجاء كثيرة الخيرات مثل آسيا الصغرى وبلاد العراق ، وكانت الاحوال فيها مهيأة لتوغل النفوذ الجرمني واستحواذ الرأسمالية الالمانية على ما فيها من الاسواق والمواد الخام واستثمارها ما لديها من رؤوس الاموال . فقد اضطرت روسية بعد ان كبحت الدول جماحها في مؤتمر برلين الى توجيه وجهها شطر الشرق الاقصى ، وفقدت انكلترة بعد استيلائها على مصر ما كان لها من النفوذ في الباب العالي واكتفت بما تحقق لها من السيطرة على مصر في ضمان طريق الهند بالاستحواذ على قبرص وقناة السويس[1] .

وكان الكونت هتزفيلد سفير المانية لدى الباب العالي يقضاً يحسن اقتناص الفرص لتعزيز نفوذ مملكته ويقدر أهمية الشرق الادنى للرأسمالية الالمانية فراح يتقرب الى السلطان ليشغل المقام الذي اخلي من قبل انكلترة وفرنسة . وكان من نتائج مساعيه ان تولت بعثة المانية (١٨٨٣) تدريب الجيش التركي بدلاً من البعثة الفرنسية ، وكان لقائدها الفون در كولتز ، الذي أصبح له في تركية مقام رفيع يد طولى في تعزيز النفوذ الجرمني في استانبول .

وهكذا وجد القيصر وليم الثاني ، وقد تخلص من بسمارك الذي وقف عثرة في سبيله ، الطريق ممهداً لاستثمار الدولة العثمانية باكملها ، وكان المستعمرون على اختلاف نزعاتهم وأهوائهم مجمعين على انهم سينالون من

(١) ص٤٤٣ — ٤٤٥ من : The History of The Balkan Peninsula, By Ferdinand Schevil

وراء هذه الصفقة الرابحة فوق ما يبتغون .

فقد كانت مملكة السلطان غنية بالمواد الخام والوقود وفيها مجال واسع للمشاريع الزراعية . ففي آسيا الصغرى مقادير كبيرة من المعادن كمعدن الكروم (Crome) وهو موجود في سيليسيا وفي الاراضي الكائنة في جنوب بحر مرمرة ، ومعدن الانتموني والرصاص والزنك بالقرب من بروسه وازميد وقونيه . وكل هذه المعادن ، ولاسيا الكروم والانتموني ، من ضروريات الصناعات الحربية فضلاً عما لها من القيمة في كثير من الصناعات التجارية . وقد تبين من جراء التنقيب عن المعادن في آسيا الصغرى ان بالقرب من دياربكر مقادير كبيرة من المعادن لاسيا معدن النحاس ، كما يوجد في جهات الانضول مقادير غير يسيرة من البورق والزئبق والنكل والحديد والمنغنيس والكبريت . وفيها مقادير لا يستهان بها من الفحم الحجري والفحم الاسمر . وكانت تخمينات مقادير النفط الموجود في العراق قد لفتت الانظار . وكثرت التخرصات عن سعة هذه البلاد لاخراج مقادير جسيمة من القطن والحبوب حتى قيل ان باستطاعة الانضول وسورية الشمالية وبلاد العراق ان تصدر من الحبوب في السنة ما يزيد عن المقدار الذي تصدره روسية ، وان محصول القطن في العراق بالنظر لخصوبة أرضه وما تحويه من أملاح الفوسفور والبوتاسيوم والنتروجين سيفوق ما تنتجه أرض مصر واميركة في الكمية والجودة . وكانت أملاك الدولة العثمانية ، وهي آهلة بالسكان ومفتقرة الى جميع أنواع الصناعات ، خير سوق تستطيع ان تصرف فيه الرأسمالية الالمانية مصنوعات معاملها وتستثمر فضلة ما لديها من الاموال في المشاريع الاقتصادية الكثيرة التي يمكن القيام

بها في هذه البلاد المتوفرة فيها جميع أسباب العمران (١) .

وكانت حياة المانية الصناعية متوقفة على ضمان طرق المواصلات ووسائل النقل البحرية لتصدير مصنوعاتها الى الاسواق واستيراد ما تحتاج اليه من المواد الخام ، كما كانت حياة الشعب فيها ، وقد تضاعف عدد سكانها ، متوقفة على تأمين الحصول على المقادير الكافية من المواد الغذائية من الخارج بعد ان قلب الرأسماليون المانية الى معمل يدر عليهم الارباح . وكانت المانية مهددة بالحصار الدائم ، من جراء المنافسة العنيفة بين الدول الاوربية ووضع الحواجز الكمركية العالية ، وقت السلم فضلاً عن وقت الحرب . ولم يكن رجال الرأسمالية الالمانية ومن ورائهم رجال الحرب والسياسة مطمئنين الى قدرة أساطيلهم التجارية والحربية على تأمين النقليات البحرية ، ولا الى قدرتهم على بناء اسطول يضاهي في قوته الاسطول البريطاني دون ان يكلفهم ذلك خطر الاشتباك في حرب مع بريطانية . ولذلك رأت المانية الرأسمالية ان لا سبيل لضمان سلامتها في السلم وفي الحرب غير تكوين جبهة برية تمتد في وسط اوربا وتتصل بآسيا بطريق البوسفور والدردنيل فتؤمن لها الحصول على الاسواق والمواد الخام والاغذية . وكانت مطمئنة الى ان قوتها الحربية التي اكتسبت في الحروب البرية المقام الاول ستضمن لها السيادة الدائمة في هذه المنطقة فتمضي في سبيل التوسع دون عائق . وكان التكتل في جبهتين اوربيتين قد ابتدأ بتقارب روسية وفرنسة من جهة والمانية والنمسة من جهة اخرى ، وكان موقف انكلترة غير معلوم ، فاصبح محتماً على المانية الاتصال والسيطرة على

---

(١) Earle ص ١٣ — ١٦ Moon ص ٢٤٨

هذه الجبهة البرية الممتدة بين بحر الشمال في غربي اوربا والخليج الفارسي في آسيا لتجعل منها وحدة اقتصادية قائمة بنفسها ، وكان العسكريون وهم واثقون من قوة المانية الحربية وقدرتها على تجهيز نفسها بالمعدات الحربية بما توفر لديها من معامل الاسلحة والعتاد لا يطلبون لتحقيق سيطرة المانية على العالم غير ضمان اتصالهم براً ببلاد يحصلون فيها على كفايتهم من المواد الغذائية ويكون الاسطول البريطاني غير متسلط عليها . وهكذا كان استحواذ المانية على أملاك الدولة العثمانية أمراً لا مناص منه لحفظ حياة الرأسمالية الجرمنية في السلم وفي الحرب(١).

***

أظهر القيصر وليم الثاني منذ أول تسنمه العرش ميلاً شديداً للاستعمار ، وكان يعتقد ان في استطاعته ان يمهد السبيل لاستثمار الرأسماليين الالمان منابع الثروة في الدولة العثمانية والاستحواذ على أسواقها بتوطيد صلاته الشخصية بالسلطان عبدالحميد حاكمها المطلق . فاغتنم فرصة قيامه بجولته الاوربية على أثر اعتلائه العرش وعرج على البوسفور (١٨٨٩) حيث بالغ السلطان بالترحيب به . وعلى أثر هذه الزيارة عقدت المانية مع تركية اتفاقية تجارية وقعت عليها الدولتان سنة ١٨٩٠ .

على ان بسمارك كان على عكس القيصر شديد الرغبة في تجنب الاشتباك بمشاكل المسألة الشرقية خشية ان يؤدي ذلك الى توتر العلاقات بين المانية وروسية فيفسد مساعيه في عزل فرنسة ، ولذلك فقد عارض هذه الزيارة

(١) Earle ص ٥٠ — ٥١

ما استطاع ، فلما لم ينجح في رد القيصر عن عزمه سعى لتطمين قيصر روسية بان المانية لا ترمي من وراء هذه الزيارة الى التدخل في شؤون الدولة العثمانية او الحصول على منافع اقتصادية فيها ، وانها لم تفكر قط في امكان انضمام الدولة العثمانية الى المعاهدة الثلاثية او بمعاداة روسية في سبيل بغداد ، وان الزيارة لم تقع الا لرغبة القيصر في ان لا يعود الى برلين بعد مروره بأثينا من غير ان يعرج على القسطنطينية[1]. وكان بسمارك يعارض توسع المصالح الاقتصادية الالمانية في الدولة العثمانية لهذا السبب ، حتى ان البانق الالماني لما طلب معونته في المشاريع التي أراد القيام بها في الانضول أجابه بان الحكومة الالمانية غير مستعدة لتحمل مسؤولية ما قد ينجم عن القيام بهذه المشاريع من المشاكل وان على القائمين بها ان يتحملوا وحدهم ما قد يصيبها من الاضرار[2].

فلما تخلى بسمارك عن رئاسة الحكومة صفى الجو للقيصر الطموح فراح يسعى لتعويض المانية عما أصابها من الخسارة في ميدان الاستعمار من جراء سياسة الوزير الشيخ السقيمة ، كما كان يراها .

وكان من أول بوادر هذا الانقلاب في السياسة الالمانية تعيين البارون مارشال فون بيبر ستاين سنة ١٨٩٧ سفيراً لدى الباب العالي ، وكان من غلاة المستعمرين ومن أقدر رجال السلك الدبلوماسي ، اختاره القيصر لهذا المنصب الخطير اعتماداً على خبرته بشؤون الشرق الادنى وما كان معروفاً عنه

---

(١) Moon ص ٢٣٩

(٢) Earle ص ٤١

من الميل الى الاستعمار والعداء الشديد لبريطانية وكان البارون مارشال من معتنقي مذهب بسط النفوذ الالماني على الدولة العثمانية . وقد شغل منصبه هذا في استانبول مدة خمسة عشر عاماً كان خلالها الساعد الايمن للقيصر في تعزيز النفوذ الالماني وتشجيع المشاريع الاقتصادية الالمانية في الدولة العثمانية .

وفي سنة ١٨٩٨ قام القيصر ولهم الثاني برحلته الثانية الى أرض الميعاد بحجة رغبته في حضور حفلة تكريس الكنيسة الجرمنية الانجيلية في بيت المقدس[١] . وقد قصد في وضع منهاج هذه الرحلة ان تجري على نحو ما يتخيل في الاساطير ، بغية اشغال الرأي العام الاوربي بمظاهرها عما تخفيه من المقاصد الاستعمارية . فكان استقبال القيصر في استانبول استقبالاً يفوت حد الوصف ، وكانت رحلته الى بيت المقدس رحلة طريفة اذ تولى القيصر اعداد طعامه بنفسه على نحو ما يفعل الحجاج ، وكان دخوله الى البيت المقدس غريباً في بابه اذ دخل اليه من ثغره في الجدار كانت من آثار الفتح التركي ، وكرس الكنيسة اللوثرية ، ورفع العلم الامبراطوري على جبل صهيون ، ومنح الكنيسة الكاثوليكية « ارضاً مباركة » ، وزار قبر صلاح الدين قاهر الصليبيين ، وختم الزيارة بخطاب وجهه الى المسلمين في مشارق الارض ومغاربها يوثقهم فيه من اخلاصه لهم وصداقته الصميمية لخليفتهم على ان مقاصد القيصر الحقيقية من هذه الرحلة لم تنطل على رجال السياسة فقد أحسوا بما وراءها من المطامع الاستعمارية ، وان فات الرأي العام الاوربي هذا الامر اذ انشغلت باريس بالسخرية من هذه الرحلة لاسيما رحلة القيصر الى بيت المقدس حيث

---

(١) Moon ص ٢٤٠

كان يعد طعامه بنفسه ، وانشغل الرأي العام البريطاني باخبار هذه الرحلة الطريفة وارتاح لما ستحدثه من القلق في الاوساط الروسية(١).

وكان لهذه الرحلة تأثير عميق في نفس السلطان عبدالحميد ، اذ كان الرأي العام الاوربي ناقماً عليه نقمة شديدة من جراء مذابح الارمن التي وقعت حوادثها قبيل هذه الرحلة ، حتى لقب بالسلطان الاحمر ، فكان بحاجة ماسة الى من يشد عضده في المشاكل السياسية التي كان يتوقعها . وأظهر عبدالحميد شديد إعجابه بورع القيصر وسعة إطلاعه في العلوم الدينية (ا) وأبدى رغبة شديدة في تقوية أواصر الصداقة بالقيصر الحكيم أملاً في ان يتعاونا في اتخاذ الدين وسيلة لتسهيل إدارة شؤون شعبيهما(٢).

على ان المنافع الاقتصادية كانت هي الاصل فى هذه الرحلة كما يتبين من مذكرة الفون بولو ، وزير الخارجية ، التي نوه فيها عن المنافع التي عادت بها الرحلة فقال :

« ان من جملة المنافع التي تحققت لنا بفضل رحلة القيصر : »
« حصولنا على امتياز انشاء مرفأ فى حيدر باشا ، وامتياز »
« مد الاسلاك البحرية بين كونستنزا واستانبول ، وتعزيز »
« الصلات بين الحكومة التركية والشركات الالمانية . »
« وسيكون باستطاعتنا بفضل امتياز الاسلاك البحرية »
« ان نتصل بالقسطنطينية رأساً بالمخابرات البرقية ؛ وقد »

---

(١) Earle ص ٤٤

(٢) Moon ص ٢٤٠

« يكون هذا الخط نواة لخط عالمي جديد . ومما يجب ان »
« ننوه به هنا ذكر تصميم ايصال سكة حديد الانضول »
« ببغـــداد ، وهو ما نأمل ان نحقق به إكمال الفتح »
« الاقتصادي في آسيا الصغرى .

وكانت هذه الرحلة فاتحة لحملة الرأسمالية الالمانية على الدولة العثمانية التي أمها جمع كبير من حملة لواء الاستعمار من المبشرين والتجار والماليين . وأسست إحدى شركات السفن سنة ١٨٨٩ محطة لسفنها في استانبول وشرعت تشغل السفن بين همبرك وبرمن وانتورب واستانبول ، وأخذت السفن الجرمنية تتردد على الموانيء العثمانية في سواحل البحر الابيض المتوسط وسواحل الخليج الفارسي . ونشط البانق الالماني في العمل على تشجيع ومناصرة المصالح الاقتصادية الالمانية في الدولة العثمانية . وأسس جماعة من الماليين الالمان سنة ١٨٩٩ البانق الالماني الفلسطيني وفتحوا له فروعاً في بيروت وفي دمشق وغزه وحيفا ويافا والقدس ونابلس والناصره وطرابلس الشام . وحلت مصانع الاســـلحة الالمانية محل المصانع الفرنسية والانكليزية في تجهيز الحـكومة العثمانية بالاسلحة والمعدات الحربيـــة ، فكانت معامل كروب تجهز السفن الحربية بالقذائف وكانت معامل ليدوك لوبي تجهز الجيش بالاســـلحة الخفيفة واشتركت مصانع كروب في ايسن مع مصانع آرمسترونك في تجهيز تركية بالاسلحة الثقيلة من مدافع وغيرها . وجاء المئات من التجار الالمان يحملون بضائعهم الى أسواق الشرق الادنى ويدرسون أحوالها بغية الوقوف على ما يروج فيها من البضائع . ولم يمض زمن يسير على بدء هذه الحملة

الاقتصادية على بلاد الدولة العثمانية حتى تضاعف مقدار البضائع الالمانيـة المصدرة الى تركية . فبينما كانت قيمة الصادرات الالمانية الى البلاد العثمانية لا تتجاوز سنة ١٨٨٨ مبلغ (١١٠٧٠٠٠٠٠٠) مارك بلغت سنة ١٨٩٣ (٤٠٠٩٠٠٠٠٠٠) مارك ، أي انها زادت بنسبة (٣٥٠) في المائة . وارتفعت قيمـة المواد المستوردة الى المانية من البـلاد العثمانية الى (١٦٠٥٠٠٠٠٠٠) مارك وكانت لا تتجاوز سنة ١٨٨٨ (٢٠٣٠٠٠٠٠٠٠) مارك ، أي انها زادت بنسبة (٧٠٠) في المائة[1] .

ولم يكن الرأسماليون الالمان يريدون استعمار البلاد العثمانية استعماراً سياسياً وانما أرادوا استعمارها اقتصادياً ولذلك عارضوا هجرة الالمان الى بلاد الشرق الادنى خشية ان يؤدي ذلك الى إثارة العراقيل بوجه مصالحهم الاقتصادية فيها ، وأظهروا الرأي العام في المانية ان إقامة الالمان في بلاد الرافدين غير ممكنة بالنظر لشدة حرارة المناخ فيها ، وان بلاد الانضول لا تصلح لسكنى الغربيين بالرغم من برودة طقسها لشدة التبدلات الجوية في الصيف والشتاء مما يعرضهم لمرض النيمونيا والملاريا . وحذر الجنرال فون در كولتز أبناء بلاده من الهجرة الى الشرق الادنى ان أرادوا المحافظة على صلاتهم الودية بالعثمانيين . وكان الدكتور روهرباخ ، من كبار دعاة هذه الحملة الاقتصادية ومن رجال الصحافة في المانية ، يوثق قراءه بين حين وآخر من ان علاقة المانية السياسية بالدولة العثمانية تختلف كل الاختلاف عن علاقات الدول الاخرى بها لأن المانية لا تريد شبراً واحداً من أراضي السلطان سواء في

(١) Earle ص ٢٦ — ٢٧ .

اوربا او آسيا او افريقيا وانما كل ما توجوه هو ان تجعل منها سوقاً لتصريف بضائعها ومصدراً لما تحتاج اليه صناعتها من المواد الخام . وكانوا يرون ان اعلانهم الحماية الصريحة على البلاد العثمانية يثقل كاهلهم بتكاليف باهضة ويؤدي حتماً الى : إثارة روح الكراهية بين المسلمين نحو الالمان من جهة والى تأخر البلاد اقتصادياً من جهة اخرى فلا تصلح عندئذ لأن تكون ذلك السوق الذي يريدونه لتصريف مصنوعات معاملهم واستثمار أموالهم ، والى مجابهتهم مقاومة المسلمين بمثل المقاومة التي تجدها بريطانية وفرنسة في الشرق .

وكان الرأسماليون الالمان يعتبرون هذه الحملة الاقتصادية على البلاد العثمانية جزءاً من أعمال الاستعداد للصدام الاستعماري المتوقع حدوثه في اوربا في القريب العاجل ، وكانوا يعتقدون ان المحافظة على الولاء الى السلطان والمسلمين تنفعهم في هذا الصراع أكثر مما ينفعهم إعلان الحماية على هذه البلاد الواسعة الارجاء[1] .

وكان من جملة ظواهر هذه الحملة الاستعمارية على بلدان الشرق الادنى ان توجهت اليها أفواج المبشرين وغيرهم من رجال الدين المسيحي . ولم تكن صلة رجال الدين بالاستعمار بنت يومها اذ كانوا اداة نافعة في ميدان استعباد الشعوب ، استخدمهم الرأسماليون لتحقيق مقاصدهم الاستغلالية في افريقيا وفي أقاصي الشرق وأطراف البحار . وقد كان القيصر — زعيم الاستعمار الجرمني — أول من أخذ على عاتقه تشجيع المبشرين ورجال البعثات الدينية في الشرق الادنى ؛ وتولت القيصرة زوجته رعاية عدد من مراكز التبشير في القدس

(١) Earle ص ١٢٣ — ١٢٧

ومدت يد المساعدة لرجال الدين فيها . وأنشأ الاتحاد الانجيلي الذي اسس عام ١٨٩٦ ميتماً فخماً في القـــدس وعدداً من المدارس والمستشفيات والمستوصفات . واسست في السنة عينها « جمعية البعثة الالمانية الى الشرق » وكانت تصدر مجلة في برلين تبحث في أحوال الشرق . وبلغ عدد المبشرين البروتستانت من الالمان في البلاد العثمانية في أواخر القرن التاسع عشر ٤٥٠ مبشراً و بضعة مئات من المساعدين ، وتجاوزت نفقاتهم مئات الالوف من الدولارات . وأسس الكاثوليك من كرمليين وبندكتيين ، كثيراً من المدارس والمستشفيات والمستوصفات والكنائس في سورية وفي فلسطين . ونشط رجال الدين اليهود الجرمانيون في معاضدة الاستعمار الجرمني فالف اليهود الالمان بفضل مساعي جمعية الاتحاد الاسرائيلي العالمي الصهيونية ، عدداً من المستعمرات الزراعية في القدس وحيفا[١] .

وكان من جملة ظواهر هذه الحلة ايضاً نشر اللغة والآداب الالمانية في الولايات العثمانية بغية إعلاء شأن المدنية الجرمنية في نظر شعوب الشرق الادنى ، وتأسيس عدد غير قليل من الجمعيات العلمية في المانية بقصد جمع المعلومات الاقتصادية والاجتماعية عن بلدان الدولة العثمانية وتبيان أهميتها وقت الحرب . فتولى الدكتور هوكو كروته في ليبزك إدارة جمعية نشرت آلافاً من الكتب والكراريس والخرائط في هذا الموضوع ، وتولى إدارة معهد الشرق الادنى ايضاً حيث كانت تلقى المحاضرات عن شؤون الدولة العثمانية ، وأسس معهداً لتنوير أذهان التجار وتشويقهم الى الاشتراك بالمشاريع الاقتصادية فيها ،

---

(١) Earle ص ١٣٢ — ١٣٦

وأسس المكتبات الجرمنية في استانبول وحلب و بغداد وقونيه . وتأسس في برلين ايضاً معهد آخر برئاسة الدكتور كوينر رئيس البانق الالماني وتأسست جمعيتان اخريان كان من جملة الاعضاء فيها الدكتور فون در كولتز[١] .

وكان آخر المظاهر ، مشروع سكة حديد بغداد الذي أراده الرأسماليون الالمان ان يكون بمثابة العمود الفقري لمشاريعهم الاقتصادية في الدولة العثمانية .

---

(١) Earle ص ٢٨١ — ٢٨٢

الفصل السادس

مشروع سكة حديد بغداد

كان مشروع سكة حديد بغداد من أشد مشاكل الاستعمار التي جابهتها الدول الاوربية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين تعقيداً ، ومن أقوى العوامل في سوق هذه الدول الى خوض غمار الحرب العامة . وكان كذلك من أهم الدوافع التي جعلت بريطانية تجزم بلزوم استعمار العراق والسيطرة على البلاد العربية لضمان سلامة أقصر طرق المواصلات الى الهند .

فقد استهدف هذا المشروع اختراق ممتلكات الدولة العثمانية وربط جميع أجزائها من حدود النمسة والمجر في الجنوب الشرقي من اوربا الى سواحل الخليج الفارسي في الجنوب الغربي من آسيا . وكانت ممتلكات السلطان وهي تضم القسطنطينية قلب الحياة التجارية بين البحر الاسود وسواحل البحر الابيض المتوسط وموقع من أهم المواقع الحربية في العالم ، وسورية والعراق وهما منطقة تقاطع طرق المواصلات بين آسيا واوربا ، وشبه جزيرة سينا المحاذية لقناة السويس ، وبلاد الانضول وكردستان المتاخمتين لبلاد القفقاز وايران ، وبلاد العرب الممتدة الى الجنوب محاذية لسواحل البحر الاحمر والمحيط الهندي وخليج فارس ؛ تكون جبهة من أعظم الجبهات الحربية والاقتصادية في العالم .

وكان الزمن قد أورث هذه المملكة المترامية الاطراف الكثيرة الخيرات جميع أسباب الانحلال . فكان شعبها مؤلفاً من خليط من الاقوام التي فرق

بينها اختلاف العنصر والدين واللغة والعادات والميول . وكانت حكومتها قد هرمت فعجزت عن ضبط شؤونها فانصرفت الشعوب المسيحية فيها من أرمن وغيرهم الى الاستعانة بالدول الاوربية لتقويض أركان الحكومة ، وانصرف الاكراد في جبالهم النائية والعرب في صحاريهم القاحلة الى تأليف العصابات فالغزو وقطع الطرق . وكان أمر محافظة الامن في هذه المملكة التي مزقتها الجبال الشاهقة في الشمال والصحارى الواسعة في الوسط والجنوب ، أمراً مستحيلاً في مثل تلك الحال . وكان مما زاد في ضعف حكومة السلطان ، فقدان الكفاية وانتشار روح التمرد وتفشي الفساد والرشوة بين الموظفين في مختلف أنحاء المملكة . وزاد في فسادها كذلك تدخل الاجانب وما كان لهم من الامتيازات ، فقد كانوا معفوين من الضرائب تقريباً ، ولا يحاكمون فيما يرتكبون من جرائم وجنح إلا أمام ممثلي دولهم وبموجب قوانين بلادهم ؛ وكان لبعض الدول الاجنبية من الامتيازات ما جوز لها تأسيس دوائر بريد خاصة .

وكانت مالية الدولة قد وضعت بمقتضى معاهدة برلين (١٨٧٩) تحت إشراف هيئة الديون العثمانية المؤلفة من ممثلي الدول الاجنبية كانكلترة وفرنسة والمانية والنمسة والمجر وايطالية وكانت هذه الهيئة الاجنبية تقوم بتخمين وتحصيل وصرف واردات الدولة من انحصار الملح والدخان ورسوم الطوابع وضرائب السمك والكحول والحرير[١] . ولم يكن أعضاء هذه

---

(١) ص ٢٣٢ — ٢٣٥ من كتاب :

Fies, Herbert, Europe The World Banker 1870–1914

المميثة في الحقيقة سوى رسل الرأسماليين من أبناء بلادهم ، كما هي حال جميع الاجانب المستخدمين في البلاد المتأخرة . وكانوا القابضين على الشؤون الاقتصادية في المملكة يسيرونها حسبما تقتضيه مصلحة الرأسماليين الاوربيين[١] . وكان محظوراً على السلطان ان يزيد الرسوم الكمركية من دون موافقة الدول المعظمة .

على ان تدخل الدول الاجنبية لم يقف عند هذا الحد . فكانت روسية تحث شعوب البلقان والقفقاز على التمرد ، واستولت فرنسة على تونس و بسطت نفوذها على سورية ، واحتل الانكليز مصر ، وضم الطليان طرابلس الغرب . ولم تكن الدول الاوربية لتعترف بسيادة السلطان الا من باب الادب عندما تقتضي مصلحتها المجاملة .

ومما زاد في انحلال الدولة سوء حالتها الاقتصادية . فقد أوقف قطاع الطرق سير التجارة ، واهملت الموارد الطبيعية في البلاد . وكانت الزراعة — وهي سبيل كسب العيش لأغلبية السكان — في حالة ركود لفقدان وسائل الري ولتكرر طغيان الانهر من جراء الاهمال ، ولاعتماد الفلاحين على وسائل الزراعة العقيمة الباطلة ، إذ كان الفلاح لا يزال يحرث الارض بالمحراث الذي استعمله شعوب القرون الخالية و يتبع في الحصاد والدرس الطرق التي اتبعها أسلافه منذ آلاف السنين . ولم يكن للفلاح سوق يبيع فيها محصوله فكان يكتفي بزراعة ما يسد احتياجه واحتياج عائلته حتى أصبح مضرب المثل في الكسل والخمول .

---

(١) Earle ص ١١

وهكذا كان حال الصناعة فيها ، فقد بقيت محتفظة بالصناعات اليدوية بعد ان تركها الغرب وأخذ بأسباب الصناعة الآلية الحديثة حتى عجزت بضائعها عن مزاحمة البضائع الغربية حتى في أسواقها الداخلية وساءت حال الصناع فيها وخسر أصحاب المهن وسائل كسب معاشهم .

كل هذا جعل بلاد الدولة العثمانية محط أنظار الاستعماريين وموطن آمال الرأسماليين فتكالب هؤلاء على اقتحام أسواقها واستثمار مواردها الطبيعية ، وساقوا دولهم الى التسابق في بسط نفوذها ، فاثاروا من المشاكل الدولية ما كان السبب في إضرام الحرب التي ذهب الملايين من الابرياء وقوداً لها والتي قلبت السياسة الدولية وفتحت لتاريخ الاستعمار فصلاً جديداً .

***

كان السلطان عبدالعزيز -- على ما يقال -- مغرماً بالصيد على ضفاف بحر مرمرة بجوار ازميد ، وكان مما نغص عليه التمتع بلذة الصيد عسر الوصول الى تلك الضاحية ، ولذلك أبدى رغبته الشاهانية سنة ١٨٧١ في استقدام أحد مشاهير المهندسين الالمان ليوصل موقع الصيد باستانبول بسكة حديد ، وهكذا انشأت ، لهذا الغرض وعلى نفقة دافع الضريبة ، أول سكة حديد في البلاد العثمانية[١] .

على ان أعضاء هيئة الديون العثمانية كانوا أول من اهتم بأمر مد السكك الحديدية في البلاد العثمانية . فبالرغم من ان واجبهم كان منحصراً في تحصيل

---

(١) ص ١٢٦ من كتاب : Coke, Richard, . The Heart of The Middle East

تسديد الديون العثمانية لأصحاب رؤوس الاموال الاجنبية ، فقد كان يهمهم ان تتحسن الاحوال الاقتصادية فيها ليتوفر لدى الخزينة المال الكافي لتأدية المبالغ المطلوبة ، كما كانوا يرون في تأسيس مشاريع السكك الحديدية فتح الطريق الى أسواق البلاد وموارد الخيرات فيها . ولأجل ذلك اقترحت هيئة الديون على السلطان عبدالحميد ان يخصص بعض موارد الامبراطورية لتشجيع انشاء السكك الحديدية[١].

وكان الفون بريسل الذي استقدمته حكومة السلطان عام ١٨٧٢ وأبقته في خدمتها لدرس مشاريع السكك الحديدية من أكبر الدعاة لانشاء السكك الحديدية في البلاد العثمانية وأول من فكر بايصال حدود النمسة والمجر بالخليج الفارسي بواسطة هذه السكك ، فقد بين ما سيكون لها من الأثر العظيم في قلب حياة الامبراطورية العثمانية بتسهيل تصريف الحاصيل الزراعية ، وتمهيد السبيل لاستخراج ما في أرض الدولة من كنوز معدنية ، وفي بعث الحياة التجارية واعادة ماضي موانيها الشهيرة مثل أزمير ومرسينا والاسكندرونة والبصرة ، وتجديد مجد أرض الرافدين ؛ عدا ما سيكون لها من الفوائد الحربية والسياسية التي تنجم عن ربط أطراف الامبراطورية بالعاصمة وتسهيل نقل الجنود لإخماد الثورات في بلاد الاكراد وفي أرض الرافدين وبلاد العرب ولدفع الاخطار الخارجية[٢].

ولم يكن السلطان عبدالحميد يجهل أهمية مد السكك الحديدية في مملكته ،

---

(١) Earle ص ١٨ — ١٩

(٢) Earle ص ١٨ — ١٩

اذ كان يرى فيها خير وسيلة لتحقيق أمانيه ، وفى حل المشاكل التي جابهت الدولة فى عهده ، ومن أهمها افتقاره الى ما يساعده في تعزيز نفوذه فى سورية والعراق وبلاد العرب ، وارغام هذه الممتلكات على تأدية نصيبها من ضريبة الدم والمال للدفاع عن الامبراطورية ، وتهيئة وسائل تعبئة الجيوش وقت الحرب لصد غارات الاعداء .

وقد تقدمت كثير من الشركات الى الحكومة العثمانية تطلب منحها امتياز مد السكك الحديدية الى بغداد ، وكان من أول من تقــدم شركة روسية نمسوية طلبت عام ١٨٩٨ ان يؤذن لها بمد سكة حديد توصل طرابلس الشام بميناء على الخليج الفارسي ويكون لها فرعان يتصلان ببغداد وخانقين . على ان هــذا الطلب لم يجد حضوة لدى السلطان الذي خشى توسع النفوذ الروسي فى مملكته ، وكان سفيرا انكلترة والمانية يشجعانه فى رأيه هذا . على ان أصحاب الطلب الروسي لم يلحوا فى مراجعة الباب العالي فاهمل الطلب . وكان من جملة أسباب توقفهم ، معارضة الكونت ويتي وزير المالية فى روسية الذي رأى ان حصر رؤوس الاموال الروسية فى المشاريع الاقتصادية داخل روسية خير من استثمارها فى الخارج[١] .

وتقدم كذلك عدد من رجال المال الفرنسيين للقيام بمشروع انشاء سكة حديد توصل سواحل سورية بسواحل الخليج الفارسي وتستفيد مما كان مؤسساً فى سورية من السكك . وكان المال متوفراً لدى هذه الجماعة حتى رأى البانق الالماني ان يغتنم الفرصة للتعاون معها فجرت المفاوضات فى برلين

(١) التايمس اللندنية بتاريخ ١٧ كانون الاول ١٨٩٨

سنة ١٨٩٩ بين البانق الالماني وشركة سكة حديد الانضول الالمانية من جهة والبانق العثماني والشركة الفرنسية فى سورية من جهة اخرى فاتفقا على ان يشترك البانق العثماني مع البانق الالماني فى تأسيس شركة سكة حديد بغداد على ان يكون لكل منهما أربعون فى المائة من عدد الاسهم ويخصص عشرون فى المائة من الاسهم للراغبين بها من العثمانيين على ان يتنازل الطرفان عن مقدار متساو من حصصهما اذا رغب الانكليز الاشتراك بها[1].

وتقدمت جماعة من رجال المال الانكليز فى صيف سنة ١٨٩٩ تطلب منحها امتيازاً لانشاء سكة حديد تمتد بين الاسكندرونة و بغداد وتتصل بالخليج الفارسي . وكانت متساهلة فى الشروط فصادقت وزارة الاشغال العامة على طلبها وتوسط لها محمود باشا صهر السلطان لدى الباب العالي وأيدها كذلك السفير البريطاني فى استانبول . وقدمت الى السلطان وحاشيته هدايا ثمينة وبثت لمشروعها دعاية واسعة فى الصحف الانكليزية . ولكن نشوب حرب البوير في جنوب افريقيا فى تشرين الاول من هذه السنة أشغل الرأي العام البريطاني والحكومة عن الاهتمام بالمشروع فاهمل .

وبهذا تخلص الالمان من آخر المنافسين وفازوا باستحصال موافقة السلطان مبدئياً فى ٢٧ تشرين الثانى سنة ١٨٩٩ على منح لبانق الالمانى امتياز انشاء سكة حديد تمتد من قونية الى بغداد فالخليج الفارسي . وكان فوز الالمان مضموناً للأسباب التي مر ذكرها في الفصل السابق، ولأن السلطان كان قد وعد شركة سكة حديد الانضول فى سنتي ١٨٨٨ و ١٨٩٣ بان تكون لها

---

(١) Earle ص ٥٩

الارجحية في انشاء سكة حديد بغداد فانفقت اعتماداً على هذا الوعد ، مبالغ طائلة على مسح الاراضي واعداد الخرائط[١].

وكان السلطان يفضل الالمان على غيرهم لأسباب كثيرة منها تأثير الصداقة التي تظاهر بها القيصر نحوه ، وما كان للبارون مارشال سفير المانية من النفوذ في الباب العالي ، والمكانة التي كسبتها البعثة العسكرية الالمانية في استانبول . وكانت التصاميم التي قدمها الالمان كذلك أكثر ملاءمة للشروط التي وضعتها هيئة الديون العثمانية ووافق عليها السلطان ، فقد وافق الالمان فيها على مد سكة حديد الانضول الى قونية على ان تخترق الجبال الى سيليسيا وسورية ومن ثم تقطع وادي الفرات الى بغداد فالبصرة فالخليج الفارسي ، وبذلك تؤلف باتصالها بخطوط سكتي حديد الانضول وسورية شبكة من الخطوط الحديدية تربط عاصمة الامبراطورية باهم المدن فيها مثل أزمير وحلب ودمشق وبيروت ومكة والموصل . وامتاز المشروع الالماني عما سواه بملاءمة مقاصد السلطان الحربية بعكس المشروعين الفرنسي والانكليزي اللذين اقترحا لايصال سواحل البحر الابيض المتوسط بالخليج الفارسي فكان نفعها يعود على العراق وسورية فقط فلا تستفيد منهما بلاد الانضول ، عدا ما قد يتأتى منهما من خطر على وحدة الامبراطورية بتشجيع حركة الانفصال في بلاد العرب ، وكانت نهايتاهما على البحر الابيض المتوسط والخليج الفارسي معرضتين أيضاً لمدافع الاساطيل . وكانت حكومة السلطان ترغب كذلك في ان تجعل الانضول مركزاً للخطوط الحديدية فلم تر من المصلحة ان يؤسس

---

(١) Earle ص ٦١

في بلادها خطاً مستقلاً عن خطوط الانضول[١].

وكان السلطان عبدالحميد يفضل الالمان ، من الوجهة السياسية ، على سواهم لأنه في تطلعه الى من يعينه على تحقيق الوحدة الاسلامية لم ير أقرب منهم اليه . فقد ناصبت روسية المسلمين العداء في افغانستان وفي ايران وكانت العدو اللدود للسلطان ، وكانت بريطانية تحكم ما ينوف على سبعين مليون مسلم في الهند وحدها ، وفرنسة تحكم تونس والجزائر ومراكش ، فلم يكن السلطان لذلك يتوقع من هذه الدول غير مقاومته والعمل على إحباط مساعيه . اما المانية فلم تحتل ولا شبراً واحداً من بلاد المسلمين ولم تظهر نحوهم غير الولاء ، وكان لها من المنافع الاستعمارية ما يتفق وتحقق الوحدة الاسلامية التي سيكون من أول نتائجها القضاء على النفوذ الفرنسي والانكليزي في البلاد الاسلامية . وكان الالمان قد أثبتوا في المدة التي اتصلوا بها بالدولة العثمانية استقامتهم وحسن نواياهم خلافاً لروسية التي عملت على إثارة الفتن في بلاد البلقان وفي ارمينية وادعت حماية الارثدوكس من رعايا الدولة ، وخلافاً لفرنسة التي اتخذت من دعوى حماية الكاثوليك وسيلة لبسط نفوذها في سورية وفلسطين ، وانكلترة التي اغتصبت مصر وكانت تعمل على إفساد الصلات بين السلطان والبلاد الواقعة على الخليج الفارسي[٢].

* * *

مضى على إعلان السلطان رغبته بمنح الامتياز الى الشركة الالمانية

(١) Earle ص ٦٣
(٢) Earle ص ٦٤—٦٥

ثلاث سنوات قبل ان صدرت الارادة الشاهانية بمنحه نهائياً الى الالمان (١٩٠٢). وكانت الشركة قد أكملت في خلال هذه المدة أعمال المسح ووضع الخرائط، غير ان المال اللازم للقيام بالمشروع لم يكن قد توفر لديها فاحست بلزوم إشراك أصحاب رؤوس الاموال من غير الالمان واضطرت ان تجري التعديلات في بنود الامتياز الذي أخذ شكله النهائي في ٥ آذار سنة ١٩٠٣.

وقد نصت اتفاقية الامتياز على ان تبقى شركة سكة الانضول مستقلة، وتقوم شركة سكة حديد بغداد التي الفت بموجب قانون الشركات العثماني برأس مال قدره خمسة عشر مليون فرنك (وكان لشركة سكة حديد الانضول ١٠ بالمائة من مجموع الحصص) بانشاء الخط ابتداءً من قونية. وقد ضمنت سيطرة الالمان والعثمانيين على المشروع بان وضع في الامتياز بند خاص ينص على ان يكون في هيئة إدارة الشركة المؤلفة من أحد عشر عضواً ثلاثة ممن تختارهم شركة سكة حديد لانضول وثلاثة آخرون من رعايا الدولة العثمانية على الاقل[١].

وكان الامتياز يقضي بانشاء خط رئيسي بين قونية (وفيها ينتهي خط سكة حديد الانضول) والخليج الفارسي، يكون له فروع في سورية والعراق بحيث يؤلف عند إكماله شبكة من الخطوط تصل البوسفور بالخليج الفارسي وسواحل البحر الابيض المتوسط بحدود ايران وقضى كذلك بوجوب قيام شركة سكة حديد الانضول بالاصلاحات اللازمة في خطوطها

(١) نشرت ترجمة اتفاقية خط حديد بغداد في اللغة الانكليزية في اوراق البرلمان الانكليزي

(Parliamentary Papers, No. Cd. 5635, Vol. C111 (1911) No. 1.)

استعداداً لسير قطار سريع بين استانبول وحلب مرة في الاسبوع ، وقطار سريع بين استانبول و بغداد والخليج الفارسي مرة كل اسبوعين .

ونصت الاتفاقية على ان تمتد سكة حديد بغداد بعد ان تبدأ بقونية ، على هضبة الانضول (و يبلغ متوسط ارتفاعها عن سطح البحر ٣٥٠٠ قدم) الى سفوح جبال طوروس التي تفصل بلاد الانضول عن سهول أرض لرافدين ، فتجتازها بالمرور من أبواب سيليسيا الى أطنة حيث يتصل بها خط فرعي يوصل أطنة بمرسينا على البحر الابيض المتوسط . ثم تجتاز في سلسلة جبال الامنوس بالمرور من انفاق تشق في الجبال لهذا الغرض فتدخل سهولاً تؤدي بها الى حلب حيث تتصل بالخطوط السورية التي تربطها بحمص وحما وطرابلس الشام وبيروت ودمشق ويافا وبيت المقدس . وكان يتوقع لحلب مستقبل تجاري باهر بعد ان تصبح مفرق الخطوط الحديدية في الشرق وموصلاً عالمياً يربط برلين ببغداد وكاليا بكلكتة وبوردو ببومبي وموسكو بمكة واستانبول بالقاهرة ومدينة الكاب[1] . وتخرج السكة من حلب فتتجه شرقاً الى نصيبين فالموصل حيث تتصل بفروع تربطها بسفوح جبال ارمينيا و بديار بكر وخربوط . وتمتد من الموصل في وادي دجلة الى بغداد بعد ان تمر بتكريت وسامراء وساجده ، ومن بعد تتجه جنوباً الى البصرة فالخليج الفارسي[2] .

وكانت المواصلات بين بغداد والبصرة سنة ١٩٠٣ تجري بواسطة

---

(١) التايمس اللندنية بتاريخ ٢٥ كانون الثاني ١٩٠٢

(٢) المادة الـ ١ من الاتفاقية

البواخر النهرية العائدة الى شركة بين النهرين الانكليزية ، وهي شركة بيت لنج أسسوها بين عامي ١٨٤٠ و ١٨٥٠ واحتكروا التنقليات النهرية بين بغـداد والخليج الفارسي فكانوا يسيرون البواخر مرة في الاسبوع ويربحون من وراء ذلك أرباحاً طائلة لعدم وجود من ينافسهم(١). وكانت رغبة الحكومة العثمانية ورغبة شركة سكة حديد بغداد كذلك ان تصلح شؤون الملاحة في نهر دجلة فتكون واسطة النقل بين بغداد والبصرة ولذلك رجح ان تمتد سكة حديد بغداد الى الخليج الفارسي في وادي الفرات بدلاً من وادي دجلة. وكان في النية ان ينشأ فرع يوصل البصرة بالزبير فالخليج الفارسي . وكان من أهم الخطوط التي نص الامتياز على انشائها خط يمتد بين سادجه وخانقين على الحدود الايرانية فيمهد السبيل لاتصال بغداد بطهران .

وقد اضطر السلطان ، بناءً على ما كان يقتضيه الخط الذي يخترق جبال الانضول من النفقات الباهضة ، ولأنه لم يكن مؤملاً ان يكفي الدخل في خلال السنوات الاولى من انشائه لسد النفقات وفائدة رأس المال بسبب سوء الحالة الاقتصادية وفقدان أسباب العمران ووسائل الانتاج في البلاد التي يمر منها الخط ، ان يعين الشركة بمساعدات مالية جسيمة تخفف عنها بعض ما ستتكبده من النفقات وتضمن لرأس المال ربحاً معيناً تشجيعاً للاقبال على شراء الاسهم . فتعهدت الحكومة العثمانية بموجب امتياز سنة ١٩٠٣ ان تصدر أوراقاً مالية على البانق العثماني بقيمة (٢٧٥٠٠) فرنك عن الكيلومتر الواحد من السكة يكون ديناً ممتازاً على الشركة موثقاً باموالها ويضمن تسديد

---

(١) Earle ص ٧٤

أرباحها وفرق الهبوط في قيمتها من واردات بعض البلدان التي تمر فيها السكة . وأصدرت لمساعدة الشركة في انشاء المئتي كيلو متر الاولى أوراقاً مالية اخرى بقيمة أربع وخمسين مليون فرنك . وضمنت للكيلومتر الواحد من السكة بعد تشغيلها ربحاً سنوياً قدره ٤٥٠٠ فرنكاً ، على ان أرباح الشركة اذا تجاوزت هذا المبلغ فبلغت العشرة آلاف فرنك عن الكيلو متر الواحد في السنة استوفت الحكومة هذه الزيادة . اما اذا تجاوز هذا الربح العشرة آلاف فرنك فتقسم الزيادة بنسبة (٦٠) في المائة الى الحكومة و (٤٠) في المائة الى الشركة . وتعهدت الحكومة أيضاً ان تسدد الى شركة سكة حديد الانضول جميع النفقات التي تكبدتها لإعداد الخط للقطار السريع الى الخليج باقساط سنوية قدرها (٣٥٠٠٠٠٠) فرنكاً وان تمنح الشركة مساعدات سنوية قدرها (٣٥٠٠٠٠٠) فرنكاً من تاريخ إكمال الخط الرئيسي الى حلب[1] .

ومنحت الحكومة الشركة دون عوض ، جميع الاراضي الاميرية التي يقتضيها المشروع ، وأجازت لها أيضاً اشغال كل ما تحتاج اليه من الاراضي في أعمال الانشاء واستخراج التراب والحصى بلا ايجار . وأذنت لها أيضاً بقطع ما تحتاج من الاحطاب والاخشاب من الغابات الاميرية دون مقابل . ومنح أصحاب الامتياز كذلك حق التعدين واجراء الحفريات في منطقة تمتد عرضاً الى مسافة عشرين كيلو متر على جانبي الخط في جميع الاراضي التي تمر منها السكة على ان يجري ذلك بموجب نظام تضعه وزارة الاشغال

(١) المادتين الـ ٣٥ و الـ ٣٧

العامة لهذا الغرض . ومنحت الشركة الحق باستملاك الاراضي المملوكة اللازمة لمرور هـــذا الخط او لاستخراج التراب والحصى وعمل الآجر ، ولكل ما له علاقة باعمال الانشاء . وسمح لها أيضاً بالبحث عن الآثار القديمة والفنية في منطقة الخط[(١)] .

وأفرطت الحكومة العثمانية في التساهل مع الشركة فاعفت من الضرائب والرسوم الكمركية كافة المواد الانشائية المستوردة من الخارج من حديد وفحم وخشب ومكائن وسيارات وغيرها . وأعفت من رسوم الكمرك أيضاً الفحم المستورد من الخارج لتشغيل المكائن حتى يبلغ مدخول الكيلومتر الواحـــد من الخط الرئيسي وفروعه ١٥٥٠٠ فرنك . واستثنت من الضرائب في أثناء مدة الامتياز جميع الاراضي ورأس المال والدخل العائد الى الشركة ، وأعفت الامتياز وملحقاته والسندات المالية الخاصة به وما قد يعقد فيما بعد من الاتفاقيات المتعلقة به والمبالغ التي تستلمها الشركة على حساب ضمان نفقات المشروع من رسوم الطوابع[(٢)] ومنحتها كذلك الحق باستخدام مجاري المياه لتوليد الكهرباء واقامة المخازن والمستودعات في الاراضي التي يمر فيها الخط وانشاء المرافيء وما يتعلق بها في بغداد والبصرة وفي نهاية الخط على الخليج الفارسي ، وتسيير البواخر في دجلة والفرات وشط العرب لنقل المواد اللازمة لأعمال المشروع[(٣)] .

واشترطت الحكومة العثمانية على الشركة ان تجري أعمال الانشاء

---

(١) المادة الـ ٦ والـ ١٠ والـ ٢٢ والـ ٢٧

(٢) المادة الـ ٨

(٣) المادة الـ ٩ و الـ ١٣ و الـ ٢٤ والـ ٢٥ والـ ٣٣

وتشغيل الخط تحت إشراف وزارة الاشغال ، وان تودع لدى احدى البنوك أوراقاً مالية بقيمة ٣٠٠٠٠ ليرة انكليزية تبقى رهينة لدى الدولة الى ان يتم المشروع ، وان لا يكون هذا المشروع أساساً للمطالبة بامتيازات للاجانب في الدولة ، وان لا تتعهد الشركة بنقل البريد او القيام بخدمات اخرى لأية دولة أجنبية قبل الحصول على موافقة الحكومة ، وان ينظر في جميع ما ينشأ من القضايا والاختلافات بين الشركة والحكومة او بين الشركة والافراد مما له علاقة بالمشروع أمام محاكم الدولة ووفقاً لقوانينها ، وان تجري مخابرات الشركة مع الحكومة العثمانية باللغة التركية . واشترطت كذلك ان تتم الشركة الخط بين قونية و بغداد قبل انشاء الخط الذي يوصل بغداد بالبصرة[1] ، وعينت الخدمات التي يجب على الشركة ان تقوم بها الى الدولة كنقل البريد ونقل موظفي دوائره مجاناً ، وتضع جميع ما لديها من وسائط المواصلات تحت تصرف الدولة ، لاجراء المناورات او إخماد الثورات الداخلية وتعبئة الجيوش في حالة الحرب[2] .

ونصت الاتفاقية على ان تعود جميع ممتلكات الشركة بعد مضي ٩٩ سنة — وهي مدة الامتياز — الى الدولة العثمانية خالية من الديون . واشترطت الحكومة على الشركة المحافظة على شعائر الدولة العثمانية باتخاذ الطربوش لباساً للرأس وجعل البزة الرسمية لموظفيها بالشكل الذي توافق عليه الحكومة . واشترطت ايضاً ان يكون الموظفون والعمال والمستخدمون ، عدا الموظفين من

(١) المادة الـ ٥ والـ ١٨ والـ ٢٩ والـ ٣٤

(٢) المادة الـ ١٥ والـ ٦٢ والـ ٤٠

الدرجة العليا ، خلال الخمس سنوات الاولى من تشغيل أي قسم من الخط ، من رعايا الدولة العثمانية[١] .

وراحت الشركة بعد انهاء قضية الامتياز تسعى للتغلب على العقبات التي وقفت بوجه المشروع الجسيم ، وكان من أهمها مشكلة انشاء السكك في الاراضي الجبلية واختراق الجبال وحفر الانفاق ؛ وأمر تهيئة المبالغ التي يستلزمها ، وقد خمنت بمائة مليون دولار ؛ واسترضاء رجال الحكم في الدولة العثمانية والتغلب على معارضة الدول الاخرى .

وقد باشرت الشركة العمل بعد انجاز اتفاقية الامتياز فاستحصلت المبالغ المقتضية لانجاز الخط بين قونية وبلكرلو في تشرين الثاني ١٩٣٠ ، وأكملت انشاءه في خريف سنة ١٩٠٤ فافتتح في يوم عيد ميلاد السلطان عبدالحميد باحتفال باهر . وكان إكمال هذا القسم بهذه السرعة فوزاً عظيماً للشركة[٢] .

وكانت الحكومة العثمانية قد طلبت الى الدول المعظمة ان توافق على تزييد الرسوم الكمركية من ٩ الى ١١ في المائة ليتسنى لها القيام بالمساعدات اللازمة للاستمرار بالمشروع[٣] ، فلم تستحصل هذه الموافقة الا في سنة ١٩٠٦ واشترط ان تصبح نافذة ابتداءً من شهر تموز من سنة ١٩٠٧ ، ولهذا تأخرت

---

(١) المادة الـ ٢٠ والـ ٢١ . ومن جملة ما اشترط على الشركة في المادة ٤٦ ان تقدم مبلغ ٥٠٠ ليرة انكليزية في السنة الى دار الفقراء في استانبول

(٢) Earle ص ٩٤

(٣) وكانت تركية ملزمة حسب شروط معاهدة برلين بان لا تزيد الرسوم الكمركية على ٩ في المائة الا بموافقة الدول المعظمة

الارادة الشاهانية للشروع بانشاء الخط بين بلكرلو وحلب الى حزيران سنة ١٩٠٨[1].

وكان ان وقعت بعد انقضاء شهر على هذا التاريخ الثورة التي خسر فيها السلطان عبدالحميد عرشه وأحدثت انقلاباً في الدولة فاضطرت الشركة الى ايقاف العمل . ولم تتيسر الاسباب لاستئناف الانشاء بعد هذا التوقف حتى سنة ١٩١٠ التي اكمل في خلالها القسم الممتد بين أطنة وجبال طوروس . وانشأ بين سنة ١٩١١ و ١٩١٢ الخط الذي أوصل حلب بوادي الفرات . وافتتح الفرع الذي ربط حلب بميناء الاسكندرونة في اول تشرين الثاني سنة ١٩١٣ . وبوشر العمل في النفق الذي يخترق جبال الامنوس سنة ١٩١٤ . واقيم في هذه السنة جسر حديدي على الفرات ، واوصل الخط الممتد من حلب الى قرب رأس العين ، وكان العمل مستمراً في وضع الخطوط بين شمال بغداد وسادجه على دجلة[2] لما اعلنت الحرب العامة سنة ١٩١٤ فكانت القاضية على المشروع .

(١) Earle ص ٩٥ — ٩٦
(٢) Earle ص ١١٣ — ١٤

الفصل السابع

المشروع يثير حرباً شعواء بين الرأسمالية الدولية

استطاع القائمون بالمشروع ان يتغلبوا على العقبات الكأداء التي جابهوها في صخور وجبال آسيا الصغرى ، وفازوا كذلك في الحصول على المال الكافي لانشاء القسم الاول من الخط ، كما مر بنا ، وخيل للكثيرين ان النجاح بات على قاب قوسين او ادنى من هذا المشروع الجسيم ، ولم يخطر ببال الرأي العام في العالم ، وكان يرقب بشوق تقدم هذا العمل الجبار ، ان الحرب الطاحنة التي أثارها الرأسماليون الاستعماريون في دوائر السياسة الخارجية في لندن وباريس وبترسبورغ ستوقف هذا التقدم وتنزل بالمشروع ضربة قاضية تعيده الى عالم الاحلام .

كان القائمون بانشاء هذا الخط يقدرون خطر المقاومة التي توقعوها من انكلترة وفرنسة وروسية فبذلوا قصارى جهدهم ليعطوا للمشروع صبغة اقتصادية بحتة ويبعدونه عن الاغراض السياسية ويشركوا به من رأسمالي هذه الدول كل من يريد التعاون معهم . ولذلك فاوضوا الفرنسيين واتفقوا معهم في ٦ ايار سنة ١٨٩٩ على ان تكون للرأسماليين الفرنسيين حصة مساوية لحصة الالمان فيه[1]. واتصلوا بالرأسماليين الانكليز على أثر ذلك فجرت المفاوضات بين رجال المال في الممالك الثلاث وتم الاتفاق على ان يكون

(١) راجع ص ١٠٤

الرأسماليين الانكليز مثل ما كان لاخوانهم الالمان والفرنسيين[١] . وكأن رأي حكومة روسية القيصرية صريحاً في ممانعة اشتراك أصحاب رؤوس الاموال الروس في هذا المشروع فلم يبق مجال لمفاوضتهم والاتفاق معهم[٢] .

ولكن هذه الدول وفي مقدمتها انكلترة كانت تقدر خطر هذا الخط الذي يوصل برلين باستانبول والخليج الفارسي على مصالحها الاستعمارية في البلاد العثمانية وفي آسيا . وكانت تعلم بالخطط الحربية والاقتصادية التي صممت المانية على تحقيقها بعد انجازه فناصبته العداء وقررت الوقوف في سبيل انجازه غير ملتفتة الى ما أظهره الالمان من التساهل وحسن النية . ومما زاد في تخوفها ما كان يجاهر به المتطرفون الاستعماريون الالمان كالدكتور روورباخ الصحفي الالماني الذي صرح ان الحرب اذا نشبت مع انكلترة فستكون لألمانية قضية حياة او ممات ؛ وان فوز المانية في مثل هذه الحرب يتوقف على زعزعتها وضع انكلترة في الشرق وليس على منازلتها في بحر الشمال والغارة على الجزر البريطانية ؛ وان مهاجمة قناة السويس والقضاء على النفوذ البريطاني في مصر تنزل بانكلترة الضربة القاضية اذ تقطع عليها طريق الاتصال بامبراطوريتها الهندية وتؤدي الى خسرانها ممتلكاتها في افريقيا الوسطى والشرقية ؛ وان ذلك لن يتسن لألمانية قبل ان تنجز مشاريع السكك الحديدية في البلاد العثمانية ويصبح للسلطان من القوة ما يستطيع به ان يرد غارة الانكليز على العراق[٣] . ولم يكن من شك لدى هذه الدول ،

---

(١) Earle ص ٩٣

(٢) راجع ص ١٠٣

(٣) Earle ص ١٢٨

وكانت في طريق التحالف استعداداً للحرب العالمية المتوقعة يومذاك ، فى ان انجاز هذا المشروع الخطير سيؤدي حتماً الى القضاء على النفوذ الفرنسي فى سورية وعلى أمل روسية فى الاستيلاء على القسطنطينية ويقطع على بريطانية طريق الاتصال بمستعمراتها فى الشرق ويقوي الجبهة الجرمنية بانعاش الدولة العثمانية اقتصادياً وحربياً . وهكذا تحول المشروع بعد حين الى شبح من أشباح الحرب التي كانت تتماثل فى سماء اوربا فى أوائل القرن العشرين .

* * *

اتخذت روسية موقفاً عدائياً تجاه المشروع منذ ان صرح السلطان سنة ١٨٩٩ بموافقته مبدئياً على منح الامتياز الى الالمان ، فحملت عليه صحافتها معلنة بانه يهدد مصالح روسية الاقتصادية بعرقلته تقدم السكك الحديدية فيها ، وقضائه على آمال روسية فى انشاء سكة حديد تمر بارمينية وتتصل بالاسكندرونة فتضمن للبضائع الروسية منفذاً على البحر الابيض المتوسط ؛ وانه بامتداده فى العراق الى حدود ايران يقضي على التجارة الروسية فى أسواق ايران وأفغانستان ويؤدي الى إحياء طرق الري وانعاش الزراعة فى أرض الرافدين فيضاعف محاصيل الحبوب فيها فتهبط أسعار الحبوب الروسية فى أسواق العالم ، والى استخراج النفط الغزير المدفون فى أرض العراق فتتضرر آبار النفط الروسية . وأعلم المسيو زينوفيف ، سفير روسية القيصرية فى استانبول ، حكومة السلطان ان حكومته تعتبر مد سكة حديد الانضول الى الموصل عن طريق ارمينية تهديداً لحدود ممتلكاتها فى القفقاز ولا يمكنها السكوت عليه ولذلك فانها ستطالب الدولة العثمانية حالاً بتسديد جميع ما بقي عليها من تعويضات

الحرب التي فرضها مؤتمر برلين اذا هي أصرت على انشاء هذا الخط ، فاضطرت حكومة السلطان لذلك الى اختيار طريق قونية والى ان تتعهد لحكومة القيصر في اتفاقية البحر الاسود التي عقدت سنة ١٩٠٠ بالامتناع عن منح امتيازات انشاء السكك الحديدية في شمال الانضول وفي ارمينية لغير الشركات الروسية او الشركات التي يوافق قيصر روسية على منح مثل هذه الامتيازات اليها .

وكانت مقاومة روسية لهذا المشروع منبعثة في الحقيقة عن خوفها من تقوي الدولة العثمانية وتعزز النفوذ الجرمني فيها فتخيب آمالها في الاستيلاء على القسطنطينية . فمثل هذا الخط لابد وان يجعل باستطاعة السلطان في حالة نشوب حرب بينه وبين روسية ان يعبئ ما لديه من الجيوش في سورية وفي العراق على حدود الانضول الشمالية فيوقف تقـدم الجيوش الروسية على استانبول وارمينية . اما في حالة وقوع حرب عالمية فان وجود هذه السكك سيجبر روسية على سحب قسم من جيشها في الجبهة الاوربية لمقاومة الجيوش العثمانية في حدودها المتاخمة لحدود الدولة العثمانية . على ان انشغال الحكومة الروسية في حرب اليابان وفي مشاكلها في ايران وآسيا الوسـطى وفي اخماد الاضطرابات الداخلية التي وقعت في داخل المملكة سنة ١٩٠٥ حال دون تفرغها لمقاومة سكة حديد بغداد فاضطرت الى ان تكتفي بالالحاح على فرنسة ، حليفتها يومئـذ ، بلزوم مقاومة هذا المشروع الذي يهدد مصلحة الدولتين(١) .

وكان منتظراً ان تقاوم فرنسة تبسط النفوذ الالماني في الدولة العثمانية على

(١) Earle ص ١٤٧ — ١٥٣

حساب نفوذها فقد كان لفرنسة ببلاد الشرق الادنى صلات ترجع الى عهد الصليبيين لما احتلوا سورية وحكموا فلسطين ، وكان معترفاً لفرنسة بحق حماية المسيحيين الكاثوليك فى الدولة العثمانية ، وكانت اللغة والآداب الفرنسية تشغل مكانة رفيعة فى المجتمع العثماني ، وكان اسم « فرنجي » يطلق على كل غربي او ما له علاقة بالغرب فكان ذلك مدعاة لفخر الفرنسيين ؛ ولذلك عز عليهم ان يروا النفوذ الجرمني يتعزز فى الدولة العثمانية فتحل الروح والآداب والمدنية الجرمنية فى المكان الذي كان لمدنيتهم وآدابهم وتخسر الجمهورية الفرنسية الصلات والنفوذ والآمال التى تكونت لها ببلاد الشرق الادنى منذ عهد نابليون الاول .

على ان الرأسماليين الفرنسيين لم يروا سبباً لمقاومة مشروع سكة حديد بغداد بعد ان أعطوا حصة مثل حصة المانية فيه ؛ ورأوا ان انشاء هذه السكك فى الدولة العثمانية سيؤدي الى تحسن اقتصادياتها فترتفع قيمة الاسهم التى لهم فى مشاريع تلك البلاد ؛ وكان لهم ثلاثة أخماس الديون على الخزينة العثمانية (أي ما يقدر بمليار ونصف مليار فرنك) ولهم فى مشاريع السكك الحديدية مايقدر بمبلغ ٣٦٦ مليون فرنك ، وفى المشاريع الاقتصادية الاخرى مايقدر بمبلغ ١٦٢ مليون فرنك ، وكانت البنوك الفرنسية تستثمر فى فروعها فى الشرق ما يقدر بـ ١٧٦ مليون فرنك . ولذلك أجبروا الحكومة على سحب كل مقاومة لهذا المشروع واتخذ سفير فرنسة فى استانبول موقف المحايد تجاه مفاوضات الالمان للحصول على الامتياز(١) .

---

(١) Earle ص ١٥٤ — ١٥٥

على ان المشروع اذا كان فى مصلحة قسم من الرأسماليين الفرنسيين فقد كان يهدد مصلحة القسم الآخر منهم ؛ فقد تبين لشركات البواخر التى تنقل البضائع من مرسيلية ومواني فرنسة الاخرى الى مواني الشرق ان هذا الخط سينزل بهم ضربة قاضية بتحويله طريق النقل الى الخطوط الحديدية التى تتصل باستانبول فالخليج الفارسي ؛ وأحس أصحاب معامل الحرير فى ليون ان نبسط النفوذ الالماني فى الشرق الادنى وفى سورية بوجه خاص سيعرقل عليهم سبيل الحصول على الحرير باسعار بخسة وكانوا قد احتكروها يومذاك ؛ فتكوّنت من أصحاب هذه المصالح جبهة تقاوم المشروع وتطلب الى الحكومة الفرنسية التدخل لحماية منافعها (١). وقويت الاسباب الداعية للمعارضة لما تبين ان هذا الخط يضعف الجبهة الروسية ؛ وكانت فرنسة ترى ان لا سبيل لها لمقاومة المانية بغير التحالف مع روسية وتعزيز نفوذ هذه الدولة وتقوية جيشها (٢)، وان هذا الفوز الذي سيتحقق لألمانية فى الشرق الادنى لابد وان يخل بالتوازن الدولي فى اوربا و يشجع السلطان على المضي فى دعوة الوحدة الاسلامية والعمل على تحقيقها فتشتد مقاومة المسلمين لفرنسة فى شمال افريقيا ؛ وخشيت ان تؤدي الصلات الاقتصادية بين المانية والبلاد العثمانية الى عقد تحالف دفاعي كما جرى فى عقد التحالف الفرنسي الروسي . فلهذه الاسباب الرأسمالية الاستعمارية قررت الحكومة الفرنسية ان تقاوم المشروع

---

(١) Earle ص ١٥٨

(٢) وكانت فرنسة قد عقدت فى ٣١ كانون الاول ١٨٩٣ اتفاقية عسكرية وساعدت روسية بقروض مالية كبيرة لتقوية الجيش ، وتولى الضباط الفرنسيون تدريبه ووضعت هيئتي أركان جيش المملكتين خططاً مشتركة للدفاع والهجوم

وكان من أول بوادر هذه المقاومة منع بيع أسهمه في بورصة باريس .

غير ان المقاومة التي جابهها المشروع من روسية وفرنسة لم تكن تعد شيئاً بالنسبة الى المقاومة العنيفة التي قابلته بها بريطانية العظمى .

***

كان الرأي العام في انكلترة ينظر بعين الرضى الى تقدم النفوذ الجرمني في الباب العالي ؛ وصرحت صحافتها بمناسبة زيارة القيصر الثانية الى السلطان سنة ١٨٩٨ ان بريطانية تفضل ان يتولى أصحاب رؤوس الاموال الجرمن القيام بالمشاريع الاقتصادية التي لا يتسنى للانكليز القيام بها من ان يقوم بها سواهم من رعايا الدول الاخرى(١). ولما صرح السلطان سنة ١٨٩٩ بموافقته مبدئياً على منح الامتياز الى الالمان كان رأي الصحافة ان لا يقاوم هذا المشروع من جانب الانكليز(٢) . وكان سسل رودس ، الاستعماري البريطاني الشهير ، قد زار القيصر في ربيع سنة ١٨٩٩ فعاد الى بريطانية يدعو الى مناصرة المشروع والى لزوم تنمية العلاقات الودية بين انكلترة والمانية ؛ وزار قيصر المانية انكلترة في السنة عينها فجرى بينه وبين جوزيف شامبرلن ، وزير المستعمرات يومذاك ، الحديث حول المشروع وحول ضرورة عقد التحالف بين الدولتين فلم يجد وزير المستعمرات سبباً للتطير من قيام الالمان بانشاء سكة حديد بغداد(٣) . ولما صدرت الارادة الشاهانية سنة ١٩٠٣

---

(١) التايمس اللندنية في ٢٨ تشرين الأول سنة ١٨٩٨

(٢) The Morning Post في ٢٤ آب سنة ١٨٩٩

(٣) Earle ص ٦٧

بمنح الامتياز نهائياً الى الالمان رحب أعضاء البرلمان الانكليزي بفوزهم ؛ وصرح اللورد كرانبورن ، مستشار وزارة الخارجية البريطانية ، ان ليس في نية الحكومة البريطانية ان تقاوم انشاء سكة حديد بغداد من قبل الالمان ؛ وأبلغ اللورد لونسدون ، وزير خارجية بريطانية يومئذ ، سفيري فرنسة والمانية في لندن ان الحكومة الانكليزية لا تعارض هذا المشروع لاسيما اذا دعي أصحاب رؤوس الاموال الانكليز الى الاشتراك به[1]. على ان تأييد الانكليز لهذا المشروع لم يكن في الحقيقة حباً بالالمان وانما كرهاً لروسية التي أقلق الانكليز توسع نفوذها في الصين وايران وافغانستان فكانوا يرجون ان يتزعزع موقفها في البلاد العثمانية بتعزز النفوذ الالماني فيها ، وكان الانكليز يومذاك أقرب الى الجبهة الجرمنية منهم الى الجبهة الروسية الفرنسية .

على ان نظر الانكليز الى المانية أخذ يتبدل بعد سنة ١٩٠٣ لما اشتدت المنافسة التجارية بين الدولتين وتوسع الاسطول التجاري الالماني توسعاً عظيماً واهتمت الحكومة الالمانية بتقوية اسطولها الحربي حتى خشيت بريطانية ان تتزعزع سيادتها على البحار وأدركت انه لم يبق بعد هذا سبيل الى التفاهم مع المانية فتقدمت الى فرنسة تتقرب اليها حتى عقدت الدولتان اتفاقية سنة ١٩٠٤ ؛ ثم توسطت فرنسة بين انكلترة وروسية فتم الاتفاق بينهما على الامور المختلف عليها في الشرق الاوسط سنة ١٩٠٧[2]. وهكذا انقلب الرأي العام البريطاني على المانية بعد ان كان لها . وكان المستر بلفور رئيس الوزارة ، قد اتفق سراً

---

(١) محاضر مجلس النواب البريطاني ، المجلد ١٠١ ص : ١٢٩ و ٥٩٧ و ٦٦٩ ، والمجلد ١٢٠ (١٩٠٣) ص ١٣٧١

(٢) راجع ص ٦١ — ٦٢

، هو واللورد لونسدون وزير الخارجية ، مع أصحاب رؤوس الاموال من الانكليز والالمان على ان لا تبدي الحكومة البريطانية أية مقاومة للمشروع[١] ونوه في مجلس النواب بموقف حكومته هذا فحمل عليه المجلس[٢] والصحف البريطانية الكبرى حتى اضطرت الوزارة البريطانية ان تغير سياستها هذه وأجبرت المستر بلفور ان يعود الى المجلس فيصرح بما يطمن الرأي العام و يعلن قرار الوزارة بسحب تأييدها المشروع ويؤكد للمجلس ان الوزارة بعد ان أعادت النظر في الامر لم تر وجهاً للاتفاق مع الالمان[٣].

وكان ممن أثار الرأي العام البريطاني على هذا المشروع أصحاب رؤوس الاموال من حملة أسهم شركة سكة حديد ازمير – ءايدين الانكليزية التي رأت فيه ما يهدد مصالحها و يقضي على نصيبها من نقل البضائع الى ازمير بعد ان يفتتح هذا الخط الطريق الى حيدر باشا والاسكندرونة ومرسينا على سواحل البحر الابيض المتوسط ؛ وكان لهذه الشركة من يمثلها في مجلس النواب البريطاني فاثارت ضجة عالية في سبيل الدفاع عن مصالحها الرأسمالية[٤] . وشركة لنج التي احتكرت نقل البضائع في نهر دجلة[٥] فقاضها التصريح في اتفاقية شركة سكة حديد بغداد للالمان بحق

(١) Earle ص ١٨٤

(٢) محاضر مجلس النواب البريطاني ، المجلد ١٢٠ (١٩٠٣) ص ١٢٤٧ — ١٢٤٨ و ١٣٥٨ و ١٣٦١ و ١٣٦٤ — ١٣٦٧ و ١٢٧١ — ١٣٧٤

(٣) محاضر مجلس النواب البريطاني ، المجلد ١٢١ (١٩٠٣) ص ٢٧١ — ٢٧٢

(٤) Earle ص ١٩٠

(٥) راجع ص ١٠٩

الملاحة في هذا النهر[١] فجملت منهم شريكاً لها بالارباح الطائلة التي تعود عليها من نقل البضائع بين بغداد والبصرة باجور عالية كانت تفرضها من غير رقيب ، وخشيت ان يقضى عليها بعد ان يتم انشاء الخط بين بغداد والبصرة بطريق النهر فتتوفر وسائط النقل البرية السريعة والرخيصة لو قورنت بالنقليات النهرية . وقد رفع رجال هذه الشركة علم الوطنية في الدفاع عن منافعهم الرأسمالية وراحوا يصرخون انهم لن يغادروا ميدان الاستثمار في العراق الا على رؤوس الحراب[٢]. وكان من جملة الرأسماليين الذين سعوا لاثارة الرأي العام البريطاني ضد المشروع أصحاب شركات البواخر البحرية الذين رأوا في ايصال مراكز الصناعة الاوربية بالخليج الفارسي عن طريق البر خطراً على مصالح شركاتهم وضياعاً لما كانوا يحصلون عليه من اجور نقل البضائع والبريد عن طريق البحر ؛ ولكنهم اتخذوا الوطنية ايضاً ستاراً لدوافعهم الحقيقية فراحوا يتطيرون مما ستنال مصالح بريطانية في قناة السويس من الاضرار بتأسيس هذا الطريق البري ، وادعوا ان المعاونات المالية التي منحها السلطان الى مشروع سكة حديد بغداد ستسدد من الفرق الذي سيعود

---

(١) المادتين الـ ٩ والـ ٢٣

(٢) كان رأس عائلة لنج (H. F. B. Lynch) من الثقات الانكليز في شؤون الشرق الادنى وعضواً من حزب الاحرار في مجلس النواب البريطاني بين سنتي ١٩٠٦ و ١٩١٠ فاستطاع ان يسمع صوت هذه الشركة في قاعة المجلس ويطالب الحكومة البريطانية بلزوم حماية مصالح أصحاب رؤوس الاموال في العراق وايران بمقاومة هذا المشروع ، واستطاع كذلك ان يسوق الحكومة سنة ١٩٠٩ الى الاحتجاج بشدة على الحكومة العثمانية لما أرادت تشغيل البواخر النهرية في دجلة وشط العرب

على خزينة الدولة بتزييد رسوم الكمارك على البضائع الانكليزية[١].

على ان أقوى ما ساق بريطانية الى مقاومة المشروع خوفها على طريق الهند ، قوام حياة الرأسمالية فيها والدرة اللامعة في التاج الامبراطوري فقد كانت بريطانية مصممة على ان لا تترك طريقاً الى الهند الا وتكون هي المسيطرة عليه . ولهذا رأت اما ان تقوم بانشاء سكة حديد بغـداد التي تمر باقرب الطرق الى الهند من دون ان يكون لها شريك فيها او ان تمانع في انشائها من قبل أي دولة اخرى بكل ما اوتيت من حول وقوة . فراحت تحتاط للطوارئ منذ ان أخذ الالمان يمهدون سبيل الحصول على المشروع في استانبول بالتقرب الى السلطان . وكانت تعـلم ان النجاح لن يتحقق للمشروع الا اذا انتهى بالخليج الفارسي فصممت على ان لا تفسح مجالاً للألمان لوضع قدمهم على سواحل الخليج[٢]. فلم تكد تسمع بنية الالمان ان يجعلوا الكويت نهاية لهذه السكة حتى أوعز اللورد كرزن — وكان نائب الملك في الهند — الى الكولونيل ميد ، المقيم البريطاني في الخليج الفارسي يومئذ ، ان يسرع الى مقابلة شيخ الكويت ليعقد معه اتفاقية جديدة تضمن لبريطانية اتخاذ التدابير اللازمة للحيلولة دون تقدم الالمان الى هذا الميناء .

وقد نجح الكولونيل ميد في إقناع الشيخ بقبول الحماية البريطانية والامتناع عن عقد أي اتفاق مع دولة غير بريطانية قبل الحصول على موافقـة المقيم البريطاني[٣]. فلما زارت البعثة الفنية الجرمنية الكويت سنة ١٩٠٠ قابلها

(١) Earle ص ١٩٢.

(٢) راجع تصريح اللورد لولسدون ، ص ٦١

(٣) محاضر مجلس النواب البريطاني ، السلسلة الرابعة ، المجلد ١٠١ (١٩٠٢) ص ١٢٩

الشيخ بجفاء ولم يفتح باباً للمفاوضة ، فحاول السلطان عبدالحميد ان يرغمه على الاعتراف بتابعيته الى الدولة العثمانية بارسال حملة على الكويت ولكن الحكومة الانكليزية قابلت عمل السلطان بارسال مدرعة بريطانية انذاراً له بان نفوذه قد زال من هذه البقعة . وقد أصرت بريطانية الى النهاية على عدم فسح المجال لتسرب النفوذ الالماني الى الخليج[١].

ولما زار قيصر المانية عاصمة الانكليز سنة ١٩٠٧ أعلمه اللورد هولدين ، وزير الدفاع ، والسر ادوارد كرى ، وزير الخارجية ، وغيرهما من الساسة الانكليز ان بريطانية ترضى ان توقف مقاومتها لمشروع سكة حديد بغداد اذا أعطى الرأسماليون الانكليز حق انشاء وادارة القسم الذي يوصل بغداد بالبصرة والخليج الفارسي ، فوافق القيصر مبدئياً على طلبهم وعلى الدخول في المفاوضة ولكن وزير الخارجية البريطانية طلب إشراك روسية وفرنسة في المفاوضة فلم يرض القيصر[٢]. ولما بلغ اللورد كرزن خبر اتفاق قيصري روسية والمانية في بوتسدام بشأن خط حديد بغداد ثار ثائره وصرح في آذار سنة ١٩١١ انه يعتبرالمشروع سهماً مصوباً الى قلب الامبراطورية البريطانية في الهند ، وطالب الحكومة الانكليزية ان تعارض بكل قواها انشاء القسم الذي يوصل بغداد بالخليج الفارسي[٣]. وكان تصريح اللورد كرزن مطابقاً للتصريح الذي فاه به المستر لويد جورج في مجلس النواب معلناً ان بريطانية

---

(١) Gooch ص ٣٧٠ — ٣٧١ و Earle ص ١٩٨

(٢) Gooch ص ٤٣٦

(٣) محاضر مجلس اللوردات ، السلسلة الخامسة ، المجلد الـ٧ (١٩١١) ص ٥٨٣ — ٥٨٧ و ٥٨٩

لا تستطيع التساهل قط في كل ما يؤدي الى مشاركتها النفوذ في الخليج الفارسي و يخل بسلامة طريق المواصلات الى الهند[١].

وكانت الحكومة الانكليزية ترى كذلك ان سيطرة الالمان على القسم الممتد بين بغداد والبصرة واتصاله بخانقين والحدود الايرانية لا يؤدي الى خسران الرأسماليين ما يربحونه من نقل البضائع الى ايران (وكان مبلغ هذه الارباح لا يقل عن ثلاثة أرباع المليون من الليرات الانكليزية في السنة) فحسب وانما يؤدي كذلك الى تسرب النفوذ الجرمني الى البلاد الايرانية فتتهدد طرق الهند من ناحية اخرى[٢]. وخشي الاستعماريون من الانكليز ان تؤدي هذه السكة الى انعاش الدولة العثمانية فتشتد الدعوة الى الوحدة الإسلامية وتقوى روح التمرد بين المسلمين في الهند وفي مصر ، ويقوى الجيش العثماني فيكون قادراً على تهديد قناة السويس . وكان الانكليز وهم أصحاب الخبرة في طرق الاستعمار يخشون ان تكون هذه المصالح الاقتصادية الالمانية مقدمة لاستعمار البلاد العثمانية و يعتقدون ان خزينة الدولة لابد ان تعجز عن تأدية المساعدات المالية التي تعهد بها السلطان الى شركة سكة حديد بغداد ، فتتخذ المانية من ذلك ذريعة للسيطرة على مالية الدولة و يصيب البلاد ما أصاب مصر على يدهم من قبل[٣].

---

(١) محاضر مجلس النواب البريطاني ، السلسلة الخامسة ، المجلد ٢١ (١٩١١) ص ٢٤١ — ٢٤٢

(٢) Earle ص ٢٠٠

(٣) محاضر مجلس النواب البريطاني ، السلسلة الخامسة ، المجلد ٢١ (١٩١١) ص ٢٤١ — ٢٤٢

وقد نوه اللورد لونسدون في مذكرة كتبها في ١٤ نيسان سنة ١٩٠٣ باهمية القسم الذي يمتد في العراق فقال « ان عدم اشتراك بريطانية فيه يعد خسارة وطنية كبرى لأن هذا الخط يمر باقصر الطرق الى الشرق ويقرب الهند الى انكلترة ثلاثة عشر يوماً و يفتح للاستثمار مناطق فسيحة[1]. » وأعلم الكونت ميترنيخ ، سفير المانية في لندن ، حكومته في كتاب مؤرخ في ٢٨ ايلول سنة ١٩٠٩ على أثر بحث دار بينه وبين السر ادوارد كري ، وزير خارجية بريطانية يومئذ ، بان السبب في مقاومة انكلترة لمشروع سكة حديد بغداد مروره في بلاد لها صلة بقضية الدفاع عن الهند ، ولأنها تخشى ان يؤدي هذا المشروع الى تزعزع مكانتها السياسية والتجارية في تلك البلاد[2]. وكان اللورد كرزن ، نائب الملك في الهند ، قد كتب الى حكومته يلفت نظرها الى ما قد ينجم من الخطر على المصالح البريطانية عندما يصبح الالمان قابضين على شؤون الدولة العثمانية ومسيطرين على أرض الرافدين التي تقع موقع القلب من بلدان الشرق الاوسط والادنى ، وأشار الى البوادر التي أخذت تدل على تقدم النفوذ الجرمني في بلدان الشرق الاوسط كتمضية ابن شاه ايران بضعة أشهر في برلين وتولي بعض الخبراء العسكريين من الالمان تنظيم وتدريب الجيش الايراني وتأسيس الحكومة الالمانية قنصلية في بوشهر وارسال شركة بريمن بواخرها الى الخليج ومزاحمة البضائع الجرمنية البضاعة الانكليزية في البصرة[3].

---

(١) المستندات البريطانية ، المجلد الثاني ص ١٨٧

(٢) المستندات الجرمنية ص ٣٦٩

(٣) المستندات البريطانية ، المجلد الرابع ص ٣٥٨

وأعلم سفير انكلترة في استانبول حكومته في كتاب مؤرخ في ٦ نيسان سنة ١٩٠٦ ، بان السفير الالماني لدى الباب العالي أبدى اهتماماً زائداً بقضية الحدود بين ايران والبلاد العثمانية ؛ وقال ان من جملة ما يدل على تصميم المانية على تعزيز نفوذها في ايران تعيينها سفيراً جديداً أكثر مهارة وقدرة من سفيرها السابق ، وزيارة البارون مارشال ، سفيرها في استانبول ، السفير الايراني والتنويه له بالمساعي التي بذلها في انهاء قضية الحدود وقوله له ان اهتمام المانية بشؤون ايران لا يقل عن اهتمام أية دولة اخرى بها[1] .

وكتب السر ادورد كري في ٧ تموز سنة ١٩٠٧ الى سفير بريطانية في باريس يقترح عليه ترويج فكرة تجزئة سكة حديد بغداد الى أجزاء تتولى كل دولة انشاء جزء منها حسبما تقتضيه مصالحها ليتسنى للحكومة الانكليزية ان تقوم بانشاء الخط الذي يمتد بالعراق والسيطرة عليه[2]. وطلب سفير بريطانية في برلين الى حكومته ان تصر على جعل القسم الذي يمتد في العراق حتى الخليج الفارسي من حصتها[3] . وأعلم البارون مارشال حكومته ان الصدر الاعظم أخبره سراً بان المستر تشرشل والجنرال السر هملتون بلغا محمود شوكت باشا ، وزير الحربية ، بأن شركة انكليزية تنوي ان تطلب الى الحكومة العثمانية منحها امتياز انشاء سكة حديد تمتد بين بغداد والكويت وتمر بالبصرة من دون أية مساعدة مالية ؛ وان برقية بهذا المفاد قد وصلت الباب العالي من توفيق باشا — سفير الدولة

---

(١) المستندات البريطانية ، المجلد الرابع ص ٣٨٢

(٢) المستندات البريطانية ، المجلد الرابع ص ٣٥٧

(٣) المستندات البريطانية ، المجلد الرابع ص ١٩٣ — ١٩٤

العثمانية في لندن ؟ وان هذا الامر قد أقلق بال حلمي باشا ، الصدر الاعظم ، لأنه لا يرى حكومته لأسباب سياسية قادرة على منح مثل هذا الامتياز لشركة انكليزية ولأن الحكومة العثمانية لا تستطيع كذلك ان تجد لنفسها مبرراً لرفض هذا الطلب بعد ان أذنت للشركة الالمانية بانشاء مثل هذه السكة .

وكتب البارون مارشال الى حكومته بتاريخ ٢٦ ايلول سنة ١٩٠٩ يخبرها بان رجال الدولة العثمانية أحسوا — من جراء النشاط الذي أخذت بريطانية تبديه أخيراً بشؤون العراق وتأسيس بانق السر ارنست كاسل والحرص الشديد الذي أبدته شركة لنج للسيطرة على الملاحة في دجلة والفرات واهتمام الرأسماليين الانكليز بمشاريع الري في بلاد الرافدين وهذه المحاولة الاخيرة لانشاء سكة حديد بين بغداد والخليج الفارسي — ان انكلترة ترمي من وراء ذلك الى تمهيد السبيل لاستعمار تلك البلاد وان خوفها من ان يعرقل انشاء سكة حديد بغداد هذه المقاصد الاستعمارية هو السر في مقاومتها هذا المشروع(١) .

من هذا يتبين للقارئ حرص بريطانية الشديد على محافظة نفوذها في الخليج الفارسي ، وما كان للعراق في نظرها من الاهمية في الدفاع عن امبراطوريتها الهندية وفي المحافظة على نفوذها في الشرق الاوسط والادنى ، الامر الذي جعلها ترى في تقدم المانية نحو هذه البلاد أعظم خطر يتهددها ، وساقها الى تبديل سياستها الامبراطورية فتقربت من فرنسة حتى عقدت معها اتفاقية سنة ١٩٠٤ وسوت جميع مشاكلها الاستعمارية مع روسية سنة ١٩٠٧

---

(١) المستندات الجرمنية ، المجلد الثالث ص ٣٦٨

لتتفرغ الى رد غارة الالمان على العراق والخليج الفارسي .

* * *

وقد بلغ ببريطانية الحرص في مقاومة مشروع سكة حديد بغداد حداً منعها من الاستفادة من تبدل السياسة العثمانية بمجيء الاتحاديين الى الحكم بعد خلع السلطان عبدالحميد . فقد كان القسم الاعظم من رجال جمعية الاتحاد والترقي ممن تلقى دروسه في فرنسة ، فكانوا مشبعين بروح الثورة الفرنسية معجبين بالدستور الانكليزي وبنظام الحكم في بريطانية حتى كان جل ماينبتغونه ان يقيموا نظاماً شبيهاً بالنظام الانكليزي في الدولة العثمانية . وكانوا من جهة اخرى شديدي النفرة من القيصر وليم الثاني نصير الحكم المطلق وصديق السلطان عبدالحميد الحميم ؛ وكان مما زاد في نفرتهم من القيصر والجبهة الجرمنية اغتنام النمسة فرصة اضطراب أحوال الدولة العثمانية على أثر انقلاب سنة ١٩٠٨ لضم البوسنه والهرسك ، واعلان فرديناند البلغاري — بتحريض من النمسة على ما يظن — استقلال بلغارية والمناداة بنفسه ملكاً عليها . وكان رجال العهد الجديد يعتقدون كذلك ان مشروع سكة حديد بغداد منح الى المانية بتأثير ما كان لها من النفوذ لدى الباب العالي وبدافع صلات الصداقة بين السلطان عبدالحميد والقيصر وليم الثاني فلم تراع فيه مصالح الدولة كما يدل على ذلك كتمان بنود الاتفاقية عن الرأي العام والاكتفاء بطبع خمسين نسخة منها وزعت على كبار موظفي البلاط والباب العالي ووزارة الحربية والبحرية والاشغال العامة فقط (١) .

---

(١) من مذكرة لحاويد بك أعدها في سنة ١٩٢٣ لفائدة المستر أدورد ميد ايرل

وقد أعرب الاتحاديون عن رأيهم في مشروع سكة حديد بغداد ونفرتهم من المانية في أول مجلس عقد تحت ظل النظام الدستوري في خريف سنة ١٩٠٨ فانتقدوا الامتياز بشدة ؛ وقال اسماعيل حقي بك نائب بغداد يومئذ ، ان هذا المشروع غول يتهدد كيان الدولة الاقتصادي والسياسي وانه أثر من آثار الحكم المطلق لا محل له في العهد الجديد ولذلك اقترح ان يلغى الامتياز الممنوح الى البانق الالماني ؛ وأيده في هذا الرأي جاويد بك الذي أصبح فيما بعد وزيراً للمالية ولكنه فضل ان يعاد النظر فيه فتعدل البنود التي فيها غبن لمصالح الدولة على الغاء الامتياز بكامله ، وذلك حفظاً للثقة الدولية بالعهد العثماني الجديد[١].

وكان من دلائل ميل الاتحاديين الى جانب الانكليز والفرنسيين وضع الاسطول العثماني سنة ١٩٠٩ بقيادة قائد انكليزي واستخدام عدد كبير من رجال البحرية الانكليز في السفن الحربية ، واستقدام السر ارنست كاسل لتأسيس البانق الوطني التركي ، وتعيين السر وليم ولكوكس مهندساً استشارياً في وزارة الاشغال العامة وتنفيذ التصاميم التي وضعها لمشاريع الري في العراق، وتعيين السر ريتشارد كروفرد — أحد الماليين البريطانيين — مستشاراً لوزارة المالية ، وتعيين أحد المحامين الانكليز مفتشاً عاماً في وزارة العدلية وأحد رجال السلك القنصلي البريطاني مفتشاً عاماً لوزارة الداخلية ، وتعيين أحد الضباط الفرنسيين مفتشاً عاماً « للجندرمة » ؛ ومنح أحدى الشركات الفرنسية

الذي يعتبر كتابه عن سكة حديد بغداد ، وقد اشير اليه في اكثر حواشي هذا الفصل ، من أفضل ما كتب في الموضوع

(١) مذكرة جاويد بك الى المستر ايرل (Earle ص ٢٢٠)

امتياز انشاء سكة حديد بين صومه وبندرمه في سنة ١٩١٠ ، ومنح امتياز نصب الخطوط التلفونية في استانبول لاحدى الشركات الانكليزية الفرنسية[١] .

وقد حاول الاتحاديون ان يسترضوا الانكليز ويزيلوا مقاومتهم لمشروع سكة حديد بغداد بحمل البانق الالماني على مفاوضة السر ارنست كاسل لإشراك رؤوس الاموال الانكليزية فيه واستحصلوا كذلك موافقة الالمان على تعديل امتياز سنة ١٩٠٣ بقصد تطمين رغائب الانكليز ومراعاة الاحوال المالية في تركية ، وطلب السفير العثماني في لندن في ٨ تشرين الثاني سنة ١٩٠٩ الى الحكومة الانكليزية ان تعلمه بما تقترح ادخاله من التعديلات لتتوقف عن مقاومة المشروع . وشرعت الحكومة العثمانية بالمفاوضة في الوقت عينه مع الماليين الفرنسيين لاسترضاء فرنسة[٢] . ولكن انكلترة وفرنسة أصرتا على مقاومة المشروع حتى ان جاويد بك ، وزير المالية ، لما ذهب في صيف سنة ١٩١٠ الى باريس يريد عقد قرض الدولة — وكان على وشك ان يتفق مع الماليين فيها — أعلم المسيو بيشون، وزير مالية فرنسة ، الماليين الفرنسيين بان الحكومة الفرنسية لن توافق على عقد مثل هذا القرض الا اذا رضيت الحكومة العثمانية بتعيين مستشار فرنسي لادارة امور ميزانيتها ؛ وعلى ذلك غادر جاويد بك باريس الى لندن سعياً وراء الحصول على هذا القرض فيها ، ولكن وزارة الخارجية البريطانية أوعزت الى الماليين ان لا يتفقوا على مثل هذا القرض لأن

---

(١) Earle ص ٢٢٠ — ٢٢١ و Moon ص ٢٥٢ — ٢٥٣

(٢) مذكرة جاويد بك للمستر ايرل (Earle ص ٢٢١) .

الحكومة الانكليزية تعتبر مشروع سكة حديد بغداد خطراً على مصالحها في العراق .

فيئس العثمانيون بعد هذا من مساعدة فرنسة وانكلترة واضطروا الى ان يعودوا الى أحضان المانية التي كانت تغتنم كل سانحة لتثبت اخلاصها وحسن نيتها تجاه الدولة العثمانية . وكانت روح الحرية التي حملها الاتحاديون في أبان حركتهم قد ذوت الآن واحتلت الروح القومية محلها فساعد هذا التبدل في تقربهم من الالمان ونفرتهم من الجبهة الانكليزية — الفرنسية التي ناصبتهم العداء وانقلبت صحافتها تكيل لهم الشتم والانتقاد المر بعد ان رحبت بانقلابهم أول الامر ، وذلك لخوفها من انتعاش الوحدة الاسلامية وتأييد الاتحاديين الحركة الوطنية في مصر . وكان الماليون الالمان قد جاؤا الى استانبول يحملون المبلغ الذي أرادت الدولة ان تستقرضه من الفرنسيين والانكليز وقبلوا الشروط التي رضيها جاويد بك في باريس فوافق الاتحاديون على عقد القرض معهم[1] .

ولكن الاتحاديين بالرغم من ذلك واصلوا السعي لاكتساب ود فرنسة وانكلترة بغية الحصول على موافقتها على الاقتراح الذي رفعته الحكومة العثمانية سنة ١٩١٠ الى الدول المعظمة لتزييد رسوم الكمارك بنسبة ٤ في المائة[2] . وكانت الحكومة البريطانية قد اقترحت على هذا الأثر ان يمنح امتياز انشاء سكة حديد بين بغداد والبصرة عن طريق الكوت والعمارة

(١) مذكرة جاويد بك للمستر ايرل (Earle ص ٢٢٤ — ٢٢٥)

(٢) راجع الحاشية (٣) ص ١١٣

الى شركة انكليزية ؛ وطلب السر أدورد كرى الى السفير البريطانى فى مايس سنة ١٩١٠ ان يشعر الحكومة العثمانية بان بريطانية لن توافق على اقتراح تزييد رسوم الكمارك الا اذا اجيب طلب الشركات الانكليزية بانشاء الخط المذكور ؛ وأعلم السر ادورد كرى السر هنرى بابينكتن سمث ، ممثل بريطانية فى هيئة الديون العثمانية ، بضرورة حصول بريطانية على ما لا يقل عن ٥٥ بالمائة من عدد الاسهم فى القسم الممتد بين البصرة و بغداد وعلى امتياز انشاء الميناء فى الكويت وقدم سفيرا الدولة العثمانية فى لندن و باريس فى ٧ آذار سنة ١٩١١ الى الحكومتين الانكليزية والفرنسية اقتراح الحكومة العثمانية بقيام شركة عثمانية بانشاء الخط بين البصرة و بغداد على ان يكون للحكومة العثمانية ٤٠ بالمائة من عدد الاسهم و يكون لكل من انكلترة وفرنسة والمانية ٢٠ بالمائة منه ؛ وأبدت الحكومة العثمانية استعدادها ، بهذه المناسبة ، لاجابة مطاليب انكلترة فيما يتعلق بالعراق وفرنسة فيما يتعلق بسورية ، ولكن السر ادورد كرى رد هذا الاقتراح معلناً فى قاعة مجلس النواب البريطانى ان الحكومة البريطانية غير مستعدة للموافقة على اقتراح الحكومة العثمانية بتزييد الرسوم بعد ان تبين لها ان هذه الحكومة غير راغبة باعطاء الضمانات الكافية لصيانة المصالح البريطانية فى العراق وفى الخليج الفارسي(١).

وكان الالمان على عكس ذلك يبدون رغبة صادقة في اجابة الحكومة العثمانية الى طلباتها ، فلما اقترحت تزييد الرسوم الكمركية كانوا أول من

---

(١) محاضر مجلس النواب البريطانى ، السلسلة الخامسة ، المجلد ٢٢ (١٩١١) ص ١٢٨٤ — ١٢٨٥

وافق على الاقتراح ، ولما أبدت رغبة بتنازل شركة سكة حديد بغداد عن حقها في انشاء الخط بين بغداد والبصرة تنازلوا عن هذا الحق وعن حقهم في انشاء الميناء وما يتعلق به في البصرة ووافقوا كذلك على عدم مطالبة الحكومة العثمانية بالمساعدات المالية التي نصت بها الاتفاقية ، واجريت التعديلات لهذا الغرض في اتفاقية المشروع في ٢١ آذار سنة ١٩١١[١] .

وكان الالمان يسعون كذلك لتخفيف مقاومة فرنسة وانكلترة وروسية للمشروع بالمفاوضة والمساومة . ففي أوائل تشرين الثاني سنة ١٩١١ دعى الامبراطور وليم الثاني قيصر روسية للاجتماع به في قصر بوتسدام وعقد العاهلان اتفاقية بوتسدام التي اعترفت فيها روسية بامتياز سكة حديد بغداد على ان تتولى هي انشاء سكة تمتد من طهران وتتصل بسكة حديد بغداد في خانقين[٢] .

وقد كانت هذه الاتفاقية فاتحة للمفاوضات التي دارت بين المانية والحكومة العثمانية من جهة وبريطانية وفرنسة من جهة اخرى للوصول الى حل مشكلة سكة حديد بغداد بما يرضي الطرفين . فقد كانت روسية هي التي ساقت فرنسة الى مقاومة مشروع سكة حديد بغداد فلما زال اعتراضها على هذا الخط بعد عقد اتفاقية بوتسدام لم يبق سبب لامتناع فرنسة عن أخذ حصتها من هذه الغنيمة الباردة . وكان الرأسماليون الفرنسيون — بعد ان رأوا الحكومة العثمانية تعقد القرض مع الماليين

(١) Earle ص ٢٢٩

(٢) Earle ص ٢٣٩ و Gooch ص ٤٢٥ — ٤٢٦

الالمان على أثر امتناع الحكومة الفرنسية عن الموافقة على اقراضهم — قد أدركوا ان لا فائدة من سلوك السياسة السلبية التي تحرمهم من مثل هذه الصفقات الرابحة . وكان الاتحاديون في سعيهم لاسترضاء فرنسة قد منحوا الرأسماليين الفرنسيين امتيازات واسعة النطاق لانشاء السكك الحديدية في الانضول وفي سورية ، وأبدوا استعداداً لمنحهم حق انشاء المرافئ في موانئ البحر الاسود كهرا كليه وصمصون وطرابزون وربط هذه الموانئ بواسطة السكك الحديدية بارضروم وسيواس وخربوط ووان ، ووصل هذه الخطوط بسكة حديد الانضول في بولي وسيواس وبفرع سكة حديد بغداد الذي يتصل بنصيبين وديار بكر في ارغانا ؛ وفاوضوا البانق العثماني (وهو بانق فرنسي) بتوسيع نطاق الخطوط الفرنسية في سورية وتأسيس المرافئ في يافا وحيفا وطرابلس ، وانشاء سكة حديد توصل حمص بالفرات . وقد تم الاتفاق على جميع هذه الامتيازات في سنة ١٩١١ (١) .

واشتدت رغبة الاتحاديين بعد انخذالهم في حرب البلقان سنة ١٩١٢ وحرب طرابلس الغرب سنة ١٩١٣ في استرضاء حكومة فرنسة والرأسماليين فيها لإنهاء مشكلة السكك الحديدية ، أملاً في ان يجعل ذلك باستطاعتهم تقوية جبهة الدفاع عن مملكتهم التي أصبحت نهباً للطامعين . فألحوا على رجال البانق الالماني بمفاوضة الفرنسيين وأوفدوا جاويد بك الى باريس لهذا الغرض . وانعقدت في خلال شهري آب وايلول من سنة ١٩١٣ اجتماعات متوالية حضرها ممثلوا البانق الالماني والبانق العثماني والبانق الفرنسي من الرأسماليين

(١) Earle ص ٢٤٤ — ٢٤٥

وحضرها كذلك ممثلون عن فرنسة والمانية والحكومة العثمانية وقد انتهت هذه المفاوضات بعقد اتفاقية ١٥ شباط سنة ١٩١٣ السرية بين المانية وفرنسة التي اتفقت الدولتان بموجبها : (١) ان يكون القسم الشمالي من بلاد الانضول وسورية منطقتي نفوذ لفرنسة وميداناً لاستثمار رؤوس الاموال الفرنسية ؛ (٢) ان تكون المنطقة التي تمر بها سكة حديد بغداد منطقة نفوذ لألمانية وميداناً لاستثمار رؤوس الاموال الالمانية ، وان يعتبر القسم الشمالي من سورية الذي يحاذي المنطقة الالمانية منطقة محايدة ؛ (٣) وان تسعى الدولتان لزيادة الرسوم الكمركية في البلاد العثمانية الى الحد الذي يكفي لتسديد نفقات مشاريع السكك الحديدية الالمانية والفرنسية ؛ (٤) وان يشتري البانق الالماني أسهم البانق العثماني في سكة حديد بغداد والمشاريع المتعلقة به . وبهذه الاتفاقية تم اتفاق الرأسماليين الفرنسيين والالمان ، ومن ورائهم ممثلوهم في مناصب وزارتي خارجية الدولتين ، على اقتسام البلاد العثمانية [1]. وقد ثار ثائر الرأسماليين البريطانيين عند سماعهم خبر هذه الاتفاقية ولفت السر مارك سايكس [2] أنظار أعضاء مجلس النواب البريطاني الى أهميتها وقال ان سياسة الماليين الفرنسيين ستكون سبباً في اضمحلال الامبراطورية العثمانية ، لأن القرض المزمع عقده مع الحكومة الفرنسية وهو ينوف على عشرين مليون ليرة انكليزية [3] سيؤدي الى منح الرأسماليين

---

(١) Earle ص ٢٤٦ — ٢٤٨

(٢) وكان من كبار الثقاة بشؤون الشرق الادنى من الانكليز وهو الذي مثل بريطانية في مفاوضة فرنسة لعقد معاهدة سايكس — بيكو

(٣) وكان قد تم الاتفاق بين البانق الالماني والبانق العثماني (الفرنسي) ان يقرض الاخير الدولة العثمانية هذا المبلغ بفائض قدره خمسة في المائة

الفرنسيين امتيازات مشاريع مهلكة ؛ وان امتيازات السكك الحديدية التي استحصلها الماليون الفرنسيون واحتكروا بها وسائط النقل في سورية ، والصحافة السورية التي سيطروا عليها بدس الاموال في جيوب أصحابها ستؤدي حتماً الى احتلال تلك البلاد ، وان الشعب الانكليزي لم يتحمل عواقب الوقوف الى جانب الشعب الفرنسي في المشاكل الدولية ليفعم جيوب الماليين الذين ليس لهم ذكر خارج استانبول وبورصة باريس ؛ وقال(١) :

« لقد زلزلت أركان الامبراطورية العثمانية وراح الرأسماليون »
« الذين جعلوا الارض ملكاً مشاعاً فيما بينهم يجزؤون »
« بلادها الى مناطق نفوذ واستغلال . ان الامبراطورية »
« قد تعيش بعد الكوارث ولكنها لا تستطيع ان تحتفظ »
« بالحياة مع الاستغلال . . ان البلاد العثمانية وهي بلاد »
« مفتقرة الى القدرة على التشريع بعيدة عن إدراك النظام »
« الاقتصادي الاوربي وافرة الخيرات قد عقرت كما يعقر الجمل . »

ولكن السر مارك سايكس وكثيراً من سامعي كلماته النارية كان يعلم حق العلم بان ما قام به الرأسماليون الانكليز — ومن ورائهم الحكومة البريطانية — لتدمير الامبراطورية العثمانية واستغلال شعوبها لم يكن أقل فضاعة مما قام به زملاؤهم الفرنسيون .

---

(٤) محاضر مجلس النواب البريطاني ، السلسلة الخامسة ، المجلد ٥٩ (١٩١٤) ص ٢١٧٩ — ٢١٨٩ . وهكذا الاستعماريون يقدرون أخطار الرأسمالية وعبثها بحياة الشعوب كل التقدير عندما ينحصر الربح في غيرهم ويغمضون عن هذه الاخطار عندما تقتضي مصالحهم ؛ فهذا الرجل هو نفسه الذي عقد بعد ذلك بمدة وجيزة معاهدة سايكس — بيكو التي تقرر فيها اقتسام بلاد المشرق الادنى وانتهاب ثروتها واستعباد شعوبها .

واصل الاتحاديون السعي لاسترضاء انكلترة — بالرغم من عنادها — بسوقهم الرأسماليين الالمان رغبة منهم في تعجيل انجاز المشروع . وكان السفير العثماني في لندن قد ألح على وزارة الخارجية البريطانية ان توقفه على آخر الشروط التي يمكن ان تضمن زوال معارضتها لمشروع سكة حديد بغداد فابلغته ان بريطانية قد تعترف بهذا المشروع اذا وافقت الحكومة العثمانية على ان تقوم بانشاء السكة بين بغداد والبصرة شركة يشترك فيها الانكليز والفرنسيون والجرمن والروس والعثمانيون بنسبة واحدة ، واذا اعطيت الضمانات الكافية لصيانة مصالح الامبراطورية البريطانية في العراق والخليج الفارسي ، ومنحت شركات الملاحة البريطانية حقوقاً وافية في الملاحة في شط العرب واعفيت البضائع والسفن البريطانية من رسوم المرور . فاعلمت الحكومة العثمانية سفيرها بعد الاطلاع على هذه المطاليب بانها مستعدة ان تجعل السكة بين بغداد والبصرة دولية ولكنها لا يسعها ان تشرك روسية فيها ، وانها ترتضي البحث مع انكلترة فيما يتعلق بصيانة حقوقها المشروعة في الشرق الاوسط على ان لا يكون في ذلك تجاوز جديد على سيادة الدولة في العراق ، وانها لا تستطيع الموافقة على المطاليب الاخرى ولكنها أوعزت الى السفير ان يواصل مساعيه لاسترضاء الانكليز[1].

وكانت المانية تسعى من جانبها للاتفاق مع الانكليز على اقتسام خيرات البلاد العثمانية فجرت المحادثات في هذا الشأن بين اللورد هولدين (الذي أوفدته الحكومة الانكليزية في شباط سنة ١٩١٢ ليحمل القيصر على

---

(١) مذكرة جاويد بك للمستر ايرل (Earle ص ٢٥٣)

ايقاف توسع الاسطول الالماني) والحكومة الالمانية حول مشروع سكة حديد بغداد ، وأعلم اللورد هولدين الحكومة الالمانية ان انكلترة لا تزال باقية على رأيها الذي أبدته سنة ١٩٠٧ وهو انها مستعدة للاعتراف بالمشروع اذا ضمنت مصالحها السياسية في العراق . وقد نقل البارون مارشال من سفارة استانبول الى سفارة لندن أملاً في الوصول الى التفاهم مع بريطانية ، ووصل حقي باشا لندن في شباط سنة ١٩١٣ موفداً من قبل الدولة العثمانية لمفاوضة الانكليز والوصول الى اتفاق معهم فبقي هذا يفاوض السر ادورد كرى مدة أربعة أشهر ، وكان يستعين بالسفارة الالمانية في لندن ، فتمهد بذلك سبيل التفاهم حتى تم الاتفاق في مايس سنة ١٩١٣ بين حقي باشا ووزارة الخارجية البريطانية على تسوية المشاكل المعلقة بين الحكومتين الانكليزية والعثمانية كقضية ديون انكلترة على الدولة العثمانية ، وحق السلطان في منع الحكومة المصرية من عقد القروض ، وتعيين الحدود العثمانية الايرانية ولاسيما ما يتعلق منها بمنطقة النفط ، وقضية الملاحة في دجلة والفرات وشط العرب ، ومشاريع الري في العراق ؛ ووضع الكويت ؛ وعقدت الاتفاقيات التي تناولت جميع هذه الشؤون في ٢٩ حزيران و ٢١ تشرين الاول من السنة ١٩١٣ وفي أوائل حزيران سنة ١٩١٤ [1] . ومما جاء في هذه الاتفاقيات[2] :

(١) اعتراف الحكومة العثمانية بما لبريطانية من المقام الخاص في الخليج

---

(١) محاضر مجلس النواب البريطاني ، المجلد الـ ٥٣ (١٩١٣) ص ٣٩٢—٣٩٥

(٢) Earle ص ٢٥٥—٢٥٦

الفارسي واعتراف بريطانية بسيادة السلطان الاسمية على الكويت على ان تتعهد الحكومة العثمانية ان لا تتدخل بشؤون شيخ الكويت وان تعترف بجميع المعاهدات المعقودة بينه وبين بريطانية وفي جملتها المعاهدة التي اعترف الشيخ فيها بالحماية البريطانية .

(٢) اتفق الطرفان على ان تكون نهاية سكة حديد بغداد في البصرة الا اذا وافقت بريطانية على انشاء فرع يوصل البصرة بالخليج .

(٣) وان تضمن الحكومة العثمانية تعيين عضوين بريطانيين فى هيئة ادارة شركة سكة حديد بغداد .

(٤) وتمنح « الشركة العثمانية الملاحة النهرية » ، التي تقرر ان يقوم البارون انشكيب بتأليفها ، امتياز القيام بالملاحة فى دجلة والفرات وشط العرب . وقد خولت هذه الشركة — التي اشترط ان يعرض على أصحاب رؤوس الاموال العثمانية ٥٠ بالمائة من مقدار الاسهم فيها — صلاحيات واسعة لتحسين وتنظيم الملاحة فى أنهر العراق ؛ ومنح البارون انشكيب امتياز هذه الشركة لمدة قدرها ستون سنة على ان تمدد لمدد لا تزيد عن عشر سنوات كل مرة .

(٥) وتعهدت الحكومة العثمانية بصيانة مصالح شركة لنج مما قد يصيبها من جراء انشاء سكة حديد بغداد وتأسيس شركة الملاحة العثمانية الآنفة الذكر . وقد اجيز لشركة لنج أيضاً ان تضيف باخرة اخرى الى مجموعة بواخرها على ان ترفع العلم العثماني عليها .

(٦) وتعهدت الحكومة البريطانية بان لا تتخذ ما منح لرعاياها من حقوق

الملاحة في العراق ذريعة لعرقلة أعمال الري فيه ؛ وتعهدت الحكومة العثمانية ان لا تجعل من أعمال الري في العراق سبباً في تبديل المجاري الصالحة لسير البواخر .

(٧) ووافقت الحكومة البريطانية بعد الحصول على هذه الضمانات والامتيازات على زيادة رسوم الكمارك في البلاد العثمانية بنسبة ٤ في المائة .

وبهذا فتح باب الاستثمار للرأسماليين البريطانيين ، وفي مقدمتهم البارون انشكيب أحد كبار الرأسماليين ، فقد كان رئيساً وعضواً في مجلس إدارة أربع شركات من أعظم شركات الملاحة البحرية بين انكلترة والهند وبين انكلترة والولايات المتحدة واستراليا ، وعضواً في مجلس إدارة شركة فحم للبواخر ، وشركة التلغراف في استراليا والصين وشركة ضمان البواخر وشركة تصدير اللحوم المركزية في كوينزلند ، وكان أيضاً نائب الرئيس في شركة قناة السويس وأحد المدراء في شركة النفط الانكليزية الفارسية وفي شركة النفط السكوتلندية وشركة دارسي ، فقد وقع ممثل البانق الالماني وهذا البارون في ٢٣ شباط سنة ١٩١٤ على عقد ، صدقه كذلك ممثلان من وزارة الخارجية البريطانية والسفارة الالمانية في لندن ، اعترفت به شركة سكة حديد بغداد بامتياز انحصار الملاحة في أنهر العراق الممنوح للبارون ، ووافقت على الغاء اتفاقها مع شركة لنج لنقل مواد الانشاء من البصرة الى أماكن الانشاء على الفرات ، وضمنت للبارون حمولة لا تقل عن مائة الف طن باجر قدره ٢٢ شلناً ونصف شلن عن الطن الواحد . ووافق المستر جون لنج صاحب الشركة المعروفة باسمه ان تندمج شركته بشركة البارون انشكيب وأجري التعديل في هذا

الشأن في العقد الذي ابرم بين البارون وشركة سكة حديد بغداد في ٢٧ آذار سنة ١٩١٤ لحمل المستر لنج طرفاً ثالثاً ومديراً لشركة الملاحة العثمانية التي طلب في العقد ان يشرع البارون بتشكيلها حالاً . واتفقت الجهات الثلاث ان يكون للبارون انشكيب والمستر لنج أيضاً أربعون في المائة من أسهم شركة موان عثمانية تقوم بتشكيلها شركة سكة حديد بغداد على ان يكون لها عشرون في المائة من أسهم شركة الملاحة العثمانية . وجرت المفاوضات بين الانكليز والالمان أيضاً لضمان مصالح شركة سكة حديد ازمير — عايدين الانكليزية فعقدت اتفاقية في هذا الشأن جعلت ملحقاً للاتفاقية الانكليزية المنعقدة في ١٥ حزيران سنة ١٩١٤ منحت الشركة الانكليزية بموجبها الحق بانشاء ٢٠٠ كيلومتر اخرى من الخطوط الحديدية والاتصال بسكتي حديد الانضول و بغداد في مفرق افيون قره حصار ، ومنح الانكليز كذلك حق الملاحة في بحيرات الانضول(١) .

وجرت المفاوضات أيضاً بين الانكليز والالمان حول النفط في العراق فاعترفت المانية لانكلترة بان تكون ميادين النفط في العراق الاسفل وايران الوسطى منطقة استثمار خاصة بشركة النفط الانكليزية الفارسية ، ووافقت كذلك على انشاء سكة حديد تمتد بين مندلي والكويت لتسهيل تحميل النفط ؛ ثم تألفت شركة النفط التركية لاستثمار ميادين النفط في الموصل وخصص خمسون بالمائة من عدد الاسهم فيها للبانق التركي الوطني (وهو مصرف انكليزي) وشركة دارسي التي كان البارون انشكيب أحد أصحابها ،

(١) Earle ص ٢٥٩ — ٢٦٢

وخمس وعشرون بالمائة لشركة النفط الهولندية الملكية (وهي انكليزية أيضاً) وخصص الباقي للبانق الالماني . وقد منح السلطان هذه الشركة في حزيران سنة ١٩١٤ امتياز استخراج النفط في المنطقة الكائنة بين بغداد والموصل[١].

ولما تم اقتسام الرأسماليين الانكليز والالمان ميادين الاستثمار في البلاد العثمانية على هذا الوجه شرع السر ادورد كرى ، وزير الخارجية البريطانية ، والبرنس لخناوسكي ، سفير المانية في لندن ، في ١٥ حزيران سنة ١٩١٤ ، بالعمل لوضع اتفاقية سرية تحدد مناطق النفوذ الانكليزية والالمانية في البلاد العثمانية فانتهيا من وضعها في منتصف شهر تموز سنة ١٩١٤ ؛ ولكن اتفاقها جاء متأخراً اذ انشغلت اوربا يومئذ بحادثة سرجوفا التي اندامت على أثرها نيران الحرب العامة[٢]. ومما جاء في هذه الاتفاقية السرية[٣] :

(١) ان تتعهد الحكومة البريطانية بمساعدة شركة سكة حديد بغداد و بعدم مقاومتها لها بصورة من الصور ، و بان لاتطلب كذلك امتيازات خطوط حديدية في البلاد العثمانية من شأنها ان تضر بمصلحة الشركة الالمانية ؛ وان توافق على رفع الرسوم الكمركية فى البلاد العثمانية من ١١ فى المائة

---

(١) Correspqndance Between His Majesty's Government and The United States' Ambessador Respecting Economic Rights in Mandated Territories, Parliamentary Papers No. Cmd 675

(٢) محاضر مجلس النواب البريطانى ، المجلد الـ ٦٤ (١٩١٤) ص ١١٦ — ١١٧

(٣) The Secret Anglo-German Convention of 1914 Regarding Asiatic Turkey, By E. M. Earle, Political Science Quarterley No. 1, of Mareh 1923

الى ١٥ في المائة وان لا تعترض على تخصيص موارد هذه الرسوم اوالرسوم العثمانية الاخرى وكذلك انحصارات ورسوم الكحول والنفط وعيدان الكبريت والمواد الملتهبة وورق السجاير وورق اللعب والسكر (وكان البحث في هذا الشأن دائراً بين الالمان والحكومة العثمانية) لمساعدة شركة سكة حديد بغداد .

(٢) ان تكون نهاية الخط في البصرة ؛ وقد تعهد الطرفان ان لا يوافقا على مده الى الخليج الفارسي باي حال من الاحوال الا اذا حصل الاتفاق بينهما على ذلك ؛ وتعهدت الحكومة الالمانية ان تمتنع بتاتاً عن انشاء مرفأ او سكة حديد على الخليج الفارسي وعن مساعدة أي شخص او شركة لهذا الغرض الا اذا حصل الاتفاق على ذلك بينها وبين الحكومة البريطانية .

(٣) ان تتحمل الحكومة الالمانية مسؤولية انتخاب عضوين بريطانيين توافق عليهما الحكومة الانكليزية الى هيئة إدارة شركة سكة حديد بغداد .

(٤) اعتراف بريطانية بمنافع المانية في ري سهل سيليسيا ، واعتراف المانية بمصالح انكلترة في ري العراق .

(٥) إقرار الدولتين الاتفاقية الجرمنية — التركية المنعقدة في تموز سنة ١٩١٣ التي منحت رعايا الدولة البريطانية حق الملاحة في العراق ؛ واقرارها الاتفاقيات المنعقدة بين البارون انشكيب وسكة حديد بغداد المتعلقة بالملاحة والمرافئ في دجلة والفرات ، والاتفاقية المنعقدة بين شركة سكة حديد بغداد وشركة ازمير — عايدين الانكليزية .

(٦) اتفاق الحكومتين الانكليزية والالمانية على لزوم حمل الحكومة العثمانية على جعل شط العرب صالحاً للملاحة وعلى صيانته لهذا الغرض ليضمن للبواخر البحرية الدخول الى ميناء البصرة .

وقد خيل للناس بعد ان تم التفاهم بين روسية والمانية وبين المانية وانكلترة وفرنسة على انتهاب خيرات الشرق الادنى والاوسط ان معضلة من أعظم معضلات الرأسمالية الدولية قد سويت بسلام ، غير ان الواقع كان خلافاً لذلك لأن هذه الرأسمالية الهوجاء ما كان ليهدأ لها بال قبل ان تسوق البشرية الى تلك الحرب الهائلة التي جعلت من سطح الكرة الارضية مجزرة لبني الانسان الابرياء ، وما كان جشعها ليجد ما يرضيه فكانت كلما توسعت ميادين استثمارها طلبت المزيد . ولذلك لم يكن هذا الاتفاق ليرضي هؤلاء الرأسماليين فراحوا يسوقون دولهم للمعركة الفاصلة ، فكانت المانية دائبة في تهيئة العدة في جبهتها الممتدة من سواحل بحر الشمال الى سواحل الخليج الفارسي بتمهيد طرق المواصلات وتقوية الجيش العثماني التي عزمت على سوقه الى ميدان الحرب المنتظرة لحسابها ، وكانت قد أوفدت الجنرال ليمان فون ساندرس على رأس بعثة عسكرية لإعادة تنظيم الجيش العثماني وتهيئة طرق ووسائل الدفاع فعينته الحكومة العثمانية قائداً للفرقة الاولى وجعلت استانبول مقراً له ولكن الجنرال اضطر الى الاستقالة من هذا المنصب تطميناً لروسية وفرنسة وانكلترة التي ساءها هذا التعيين فعين مفتشاً عاماً للجيش العثماني ؛ وكان جيش السلطان يموج بالضباط الالمان الذين سيطروا عليه وعلى روحية ضباطه . وكان البارون فون وانكنهايم ، سفير المانية لدى الباب العالي ، يسعى بجد لحمل الحكومة العثمانية على عقد معاهدة مع المانية تضمن لها السيطرة

على الجيش وما له علاقة بالاستعداد للحرب ، حتى كاد ان يفوز بها [١] .

وكانت المانية تسوق الحكومة العثمانية الى الاستعداد للحرب بقوة ، وكانت دلائل هذا الاستعداد تشتد ظهوراً كل يوم حتى دعى وزير الحربية ، في آذار سنة ١٩١٤ ، ممثلي شركات السكك الحديدية في البلاد العثمانية الى مؤتمر المداولة في موضوع استخدام الخطوط الحديدية لتعبئة الجيوش في حالة الحرب وتم الاتفاق على خطة وضعتها هيئة أركان الجيش المؤلفة من العثمانيين والالمان ، وكانت أعمال تحصين البوغازين تجري بسرعة ؛ ووسعت مدارس إعداد الضباط وفتحت مدارس لإعداد الضباط الاحتياط ونضمت هيئة أركان الجيش وأعدت خطط الهجوم والدفاع ؛ حتى اذا كان يوم ٢٣ تموز سنة ١٩١٤ ختمت هذه الاعمال باستعراض عسكري عام . وبعد بضعة أيام انضمت الحكومة العثمانية الى الحلف الثلاثي — الذي كان يضم المانية والنمسة وايطالية — بموافقة النمسة وبدون علم ايطالية فتمت بذلك استعدادات المانية للحرب التي اندلعت نيرانها بعد ذلك بايام معدودة [٢] .

وقد فعلت فرنسة لروسية ما فعلته المانية لتركية استعداداً لهذه الحرب ، ففي آب سنة ١٩١٣ أوفدت الحكومة الفرنسية الجنرال جوفر ليتداول مع هيئة أركان الجيش الروسي بشأن إعداد جيش روسية للحرب واعادة تنظيمه ، وقد تولى الضباط الفرنسيون تنظيم الجيش فعلاً ووضعت الخطط المشتركة للدفاع والهجوم وأقرضت فرنسة الحكومة الروسية مبالغ طائلة لتنفقها على معدات القتال [٣] .

---

(١) Gooch ص ٥١٧ — ٥٢٠ ، Earle ص ٢٦٩ (٢) Earle ص ٢٧٠
(٣) Gooch ص ١٦٥ — ١٦٧ ، ١٧٨ ، ١٨٣ ، ٥٢٤ — ٥٢٥

البـــاب الثالث

عوامل اخرى تؤيد المصالح السياسية البريطانية في العراق

الفصل الثامن

القطن والحبوب

كان الصليبيون أول من أدخل القطن والبضائع القطنية الى أوربا الغربية فقوبلوا بمقاومة عنيفة من صناع وتجار المنسوجات والبضائع الصوفية ، غير ان مكانة القطن أخذت ترتفع بظهور النهضة الصناعية الحديثة في اوربا ، حتى اذا انتصف القرن الثامن عشر أصبح القطن قوام صناعة النسيج في انكلترة وفي القارة الاوربية فاستوردت منه كميات كبيرة من أمريكا وآسيا .

وبقيت قيمة القطن تزداد بتقدم الحركة الصناعية في اوربا طيلة القرن التاسع عشر حتى ان مقدار ما كان يستهلك منه في صناعة النسيج في انكلترة ازداد بين سنة ١٨٠١ وسنة ١٨٦٠ من (١٢٠٠،٠٠٠) بالة الى (٢،٦١٤،٠٠٠) بالة ومقدار ما استهلك في بقية الممالك الاوربية في هذه المدة من (٧٥،٠٠٠) بالة الى (١،٧٢٣،٠٠٠) بالة[١] . وكان معدل ما تصدره انكلترة من المنسوجات القطنية بين سنة ١٨١١ و ١٨٩٠ يقدر بـ (٧٢،٢٠٠،٠٠٠) ليرة انكليزية[٢] .

وقد اعتمدت انكلترة في الحصول على ما احتاجت اليه من القطن الخام على محاصيل أميركا ، فلما نشبت الثورة الاميركية وانسلخت بنتيجتها الولايات الاميركية عن جسم الامبراطورية وكونت من نفسها دولة الولايات المتحدة قلق أصحاب مصانع النسيج في لنكشير وخافوا ان يؤدي استقلال

---

(١) « القطن » في : Encyclopaedia of The Social Sciences, First Edition

(٢) « القطن » في : Encyclopaedia Britannica, Eleventh, Edition

هذه الولايات الى مزاحمتهم من قبل رأسمالي الدول الاخرى في الحصول على القطن والى ظهور الحركة الصناعية في أميركا فيستهلك محصول القطن فيها ، فاهتموا لذلك بتشجيع زراعته في المستعمرات البريطانية . على ان مصانع لنكشير بقيت تعتمد على القطن الاميركي الى ان نشبت الحرب الاهلية بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية في أميركا التي انتصر فيها الشمال على الجنوب وتحرر العبيد — وكانوا عماد زراعة القطن — فاضطربت أحوال الزراعة وتدهور المحصول حتى نزل مقدار ما كانت تستورده انكلترة الى الثلث[١].

وشاع في اوربا في أواخر القرن التاسع عشر مذهب الاستقلال الاقتصادي والاستغناء عن الممالك الاخرى والاعتماد على النفس في الصناعة فراح الرأسماليون يسعون للحصول على مستعمرات خاصة بممالكهم يستخرجون منها ما يحتاجون اليه من المواد الخام ، فكان ذلك أقوى سائق الى الاهتمام بزراعة القطن ، فتألفت في انكلترة وفي غيرها جمعيات أخذت على عهدتها تشجيع زراعة القطن في المستعمرات والعناية به وايجاد أماكن جديدة صالحة لزراعته ، ومن أشهر هذه الجمعيات « جمعية زراعة القطن البريطانية[٢] » التي اسست في ١٢ حزيران سنة ١٩٠٢[٣] ؛ وأصبح القطن ، وهو يؤلف ثمانين بالمائة من مواد صناعة النسيج في العالم ، موضوع نزاع جديد بين الرأسمالية الدوليه[٤].

---

(١) ص ١٨١ — ١٨٥ من : The Political History of England, 1837–1901. By Sidney Law and L. C. Sanders

(٢) British Cotton Growing Association

(٣) Encyclopaedia Britannica, Eleventh Edition

(٤) Encyclopaedia of The Social Seienees, First Edition

وكان قد صحب النهضة الصناعية في أوربا تزايد عظيم في عدد النفوس فقد ازدادت نفوس هذه القارة من (١٨٧،٦٩٣،٠٠٠) نسمة في سنة ١٨٠٠ الى (٢٦٦،٢٢٨،٠٠٠) نسمة في سنة ١٨٥٠ الى (٤٠٠،٥٧٧،٠٠٠) نسمة في سنة ١٩٠٠[١] ، فاصبحت لهذا السبب بحاجة ماسـة الى المواد الغذائية وبالاخص الحبوب ؛ وهي أهم ما يقتات به الانسان ، وعليها تتوقف أيضاً حياة الحيوانات التي تموّن الانسان بالحليب والبيض واللحوم ، وكلها مواد ضرورية لحياة الاوربي . وكان من جملة نتائج النهضة الصناعيـة في أوربا أيضاً ان هجر الفلاحون وأهل القرى مزارعهم الى المدن والمعامل فكان لذلك تأثير سيء على الزراعة مما سبب اشتداد الحاجة الى الحبوب[٢]. وكان الرأسماليون بعد منتصف القرن التاسع عشر

(١) Encyclopaedia of The Social Sciences, First Edition

وفيما يلي يرى القاريء تزايد النفوس في أهم الممالك الاوروبية :

	٣١ كانون الاول ١٨٠٠	٣١ كانون الاول ١٩٠٠	٣٠ حزيران ١٩١٤
انكلترة	١٥،٩٨٣،٠٠٠	٤١،٥٠٧،٠٠٠	٤٦،١٩٧،٠٠٠
المانية	٢٣،٠٠٠،٠٠٠	٥٦،٤٣٠،٠٠٠	٦٧،٧٩٠،٠٠٠
فرنسة	٢٦،٩٠٠،٠٠٠	٣٨،٩٣٥،٠٠٠	٣٩،٨٠٠،٠٠٠
ايطالية	١٨،١٢٤،٠٠٠	٣٢،٤٧٥،٠٠٠	٣٥،٨٥٩،٠٠٠
النمسة والمجر	٢٣،٣٠٠،٠٠٠	٤٥،٤٠٦،٠٠٠	٥٠،٧٩٨،٠٠٠

ويلاحظ ان هذه الزيادة في النفوس تتناسب تناسباً طردياً مع قوة الحركة الصناعية

(٢) The Political History of England 1837-1901 ص ٤٧٩

يتوقعون ان يؤدي بهم التنافس الى خوض حرب فاصلة ولذا فقــد شاعت منذ ذلك الحين فــكرة لزوم حصول كل دولة على مستعمرات تعتمد عليها وقت الحرب في تموينها بالمواد الخام والاغذية (١).

على اننا لو دققنا النظر في هــذه الدوافع لرأيناها دوافع ظاهرية تستر وراءها جشع الرأسماليين في الاسواق والمواد الخام ورغبتهم في الحصول على بلاد تصلح لاســـتثمار فضلة رؤوس أموالهم ؛ فلا قضية الاغذية كانت كما صوروها ولا تزايد النفوس اقتضى في الحقيقة هذا التخوف الذي أظهروه ؛ ولــكن الرأسماليين اعتادوا ان يستروا مطامعهم الاستعمارية بستار المصلحة العامة ومنفعة الوطن وتحقيق المجد الى الامة وخدمة الانسانية وغير ذلك من المظاهر الخلابة المغرية (٢).

وقد اعتــاد الرأسماليون الاستعماريون ان يمهدوا السبيل لحملاتهم الاستعمارية ببث الدعاية الواسعة للبلاد التي يريدون استعمارها ؛ ولهذا رأيناهم يسبقون حملتهم على بلدان الشرق الادنى — لاسيما العراق — بدعاية واسعة النطاق لها فيعيدون الى الاذهان ذكر ماضيها المجيـــد وما قام فيها من امبراطوريات و يبثون في الناس أخبار ألف ليلة وليلة وهرون الرشيد وما ورد عن هذه البلاد في الـكتب المقدسة وفي تاريخ هيرودوكس ؛ و يذهب قول العرب عنها من ان الديكة كانت تتجاوب على طول المسافة بين بغداد والبصرة مذهب المثل ؛ وتكثر التخرصات عن خصوبة أرضها فيذهب أحد

---

(١) Moon ص ٦٨

(٢) Moon ص ٧٠ — ٧٤ و ٥٤٠ — ٥٤٢ و ٥٥٨

الدعاة الى ان كل ما يقتضي ان يعمله الفلاح في هذه الارض المباركة هو ان ينبش الارض و يضع البذر ثم يحصد . وقال روهرباخ — الداعية الالماني — ان العراق وحده يستطيع ان يمون المانية بكل ما تحتاج اليه من قطن وحبوب[١] ، وان العراق وسورية الشمالية وبلاد الانضول تستطيع ان تصدر من الحبوب في السنة ما يزيد عما تصدره روسية ، وان العراق سيكون في المستقبل القريب من أعظم مخازن الحبوب في العالم[٢]. وكان فيما نشرته بعثة جسنى — التي جاءت هذه البلاد لأغراض سياسية — دعاية واسعة لأرض الرافدين وكثرة خيراتها وقدرتها على تصريف البضائع[٣]، وتضمنت الدعاية لمشروع سكة حديد الفرات تخرصات كثيرة عن خصوبة هذه الارض وجسامة ثروتها الطبيعية أيضاً . وما كان يقصد بهذه الدعاية في الحقيقة غير الفات نظر الرأي العام الى هذه البلاد وتشجيع الاقبال على مشروع سكة حديد الفرات وتبرير ما قد تقتضيه مثل هذه المشاريع الاستعمارية الرأسمالية من النفقات من خزينة الدولة .

على ان السر وليم ويلكوكس[٤] كان أول من أطنب في وصف

---

(١) Moon ص ٢٤٨

(٢) راجع ص ٨٧ و Earle ص ١٦

(٣) راجع ص ٥٨ — ٦٠

(٤) كان السر وليم ولكوكس من أكبر الثقاة في شؤون الزراعة في الهند ومصر والعراق ، باشر في خدمة دائرة الاشغال العامة في الهند وعمره لا يتجاوز العشرين عاماً ، فبقي فيها مدة أحد عشر سنة (١٨٧٢ — ١٨٨٣) قام في خلالها بمشاريع ري أكسبته شهرة عظيمة ؛ واستخدمته مصلحة الاشغال العامة في مصر بين سنتي ١٨٨٣ و ١٨٩٣ نقام باعمار أعمال الري في وادي النيل ووضع عام ١٨٩٨ تصميم خزان اسوان الذي يعتبر

خصوبة أرض العراق وقدرتها الزراعية . فقال في هذا الشأن(١) :

« لو ضبط فيضان نهري دجلة والفرات ضبطاً متقناً لبلغ »
« وادي الرافدين في الخصوبة شأواً لا مثيل له في التاريخ »
« ولرأينا الناس يأتون من الغرب ومن الشرق(٢) »
« فيجعلون من أرض شنعار منافساً لأرض مصر . »

وقال :

« . . . ان قيمة كل فدان في دلتا الرافدين ترتفع ثلاثة »
« أضعافها في الوقت الحاضر قبل ان تتم أعمال الري فيها ، »
« فاذا تمت هذه الاعمال تضاعفت القيمة مرة اخرى . »
« وتصبح كل بلد ومزرعة في الوادي الممتد بين بغداد »
« والبصرة بنجوة من خطر الفيضان ونفقاته وما يسببه »

أعظم خزان في الشرق . واستخدم في سنة ١٩٠٩ في وزارة الاشغال العامة في الدولة العثمانية بوظيفة مستشار فني فوضع تصميم سدة الهندية ووقف على انشائه بين سنتي ١٩١١ و ١٩١٣ . ومن أشهر ما نشره عن شؤون الزراعة والري في العراق :

1- A proposal for The Irrigation of Mesopotamia. Blackwood's Magazine. December 1903

2- The Restoration of Ancient Irrigation Works on The Tigris. Cairo 1903

3- The Recreation of Chaldea. (Cairo 1903)

4- The Irrigation of Mesopotamia (London 1905)

5- Mesopotamia, Past, Present and Future, in The Geographical Journal, January 1910

6- From The Garden of Eden to The Crossing of The Jordan 1919

(١) ص xulll من The Irrigation of Mesopotamia

(٢) مشيراً الى هجرة الفلاحين من الهند ومن مصر ، وكان من دعاتها

« من الفاق العظيم ، فيتحقق بعث هذه الارض القديمة »
« من جديد »

وكان يعتقد ان هذا البعث يتحقق لهذه الارض المباركة بانشاء أربعة سدود ، اثنين على دجلة أحدها بالقرب من السكوت والآخر بالقرب من بلد روز ، واثنين على الفرات فى الهندية (وقد تم بناؤه سنة ١٩١٣) وفي الصقلاوية . وكان يرى ان اقامة هذه السدود تجعل ثلاثة ملايين فداناً من الارض صالحة للزراعة وان القيمة الزراعية لهذه الارض تبلغ عندئذ مائة وخمسين مليون ليرة انكليزية عدا ما قد يتأتى من المنافع الاقتصادية الاخرى بانشاء المشاريع العمرانية والصناعية . وان مايعود به هذا المشروع من الثروة يجعل بالاستطاعة إعداد ثلاثة ملايين فدان اخرى للزراعة فترتفع القيمة الزراعية للأرض الى ثلاثمائة مليون ليرة انكليزية . وقد قدر نفقات انشاء هذه السدود بما لا يزيد على أربع وعشرين مليون ليرة انكليزية ، ومجموع نفقات ما يقتضي لإعداد ستة ملايين فدان باقامة السدود والخزانات وتطهير الاراضي من الاملاح وتهيئة وسائل الزراعة الحديثة بما لا يزيد على ثمان وسبعين مليون ليرة انكليزية (١).

وقال أيضاً ان أرض العراق كانت مغطاة قبلاً بغابات كثيفة وان من الميسور إعادة هذه الغابات بعد إتمام مشاريع الري بزرع جملة أنواع من الاشجار التي تصلح الارض لانمائها (٢) . وكان يرى أيضاً ان افتقار

(١) ص xxII من : The Irrigation of Mesopotamia
(٢) The Irrigolion of Mesopotamia ص ٢٦ — ٢٧

العراق الى الايادي العاملة بالنظر لقلة عدد سكانه يجلب اليه المهاجرين من مصر والهند فيتمهد بذلك السبيل لتعزيز النفوذ البريطاني فيه [١]. وقد أحدثت كتاباته هذه تأثيراً بليغاً فى الاوساط المالية والصناعية فى انكلترة ، وأثراً سيئاً فى الاوساط الاستعمارية فى المانية اذ انهم اعتبروها دعوة للانكليز الى زيادة الاهتمام بالعراق وعرقلة سير الاستعمار الجرمني فيه . والحقيقة ان الانكليز جعلوا من هذه المصالح الزراعية الخلابة ستاراً لمصالحهم السياسية التي اقتضت تمهيد السبيل لاستعمار العراق ، واتخذوا منها ذريعة لمقاومة الرأسمالية الجرمنية فى حملتها على بلاد الرافدين ، حتى ان كثيراً من المداولات والمخابرات التي دارت بين وزارتي خارجية انكلترة والمانية تناولت البحث فى هذه الشؤون وغلب عليها تظاهر بريطانية بالاصرار على ان تجعل من العراق منطقة ري وزراعة خاصة بها . وقد استحصلت انكلترة بعد مفاوضتها مع المانية سنة ١٩١٤ موافقتها على جعل مشاريع الري والزراعة فى العراق منحصرة بالانكليز مقابل موافقة بريطانية على جعل مشاريع الري والزراعة فى سهل أذنه منحصرة بالالمان ، كما جاء فى الكتابين الذين تبودلا بين السر ادورد كرى ، وزير خارجية بريطانية ، والبرنس لخنودسكى ، سفير المانية فى لندن ، فى حزيران سنة ١٩١٤ والحقا بالاتفاقية السرية التي عقدت بين الدولتين واعطيا حكم بنود هذه الاتفاقية [٢].

وكانت الحكومة البريطانية تتوسل بكل الوسائل التي من شأنها ان

(١) أشار الى ذلك في رسالته : The Recreation of Chaldea

(٢) Political Science Quarterly, May 1923 راجع كذلك ص ١٤٥ـ١٤٦

تنمي رغبة الانكليز بالمشاريع الزراعية في العراق فكان وكلاؤها في العراق على عهد الدولة العثمانية يتتبعون شؤون الري والزراعة ويرفعون عنها التقارير المسهبة ، وكانوا يستقدمون أحياناً أخصائيين من حكومة الهند ومن أعضاء الجمعية الخديوية الزراعية لدرس أتربة العراق وامكانياته الزراعية . ويرجع بعض هذه التقارير الى سنة ١٩٠٣ ، وقد يكون هناك قسم يرجع الى ما قبل ذلك . ومن جملة هذه التقارير تقرير رفعه السر جون اليوت — أحد كبار موظفي دائرة الزراعة في الهند — عام ١٩٠٣ عن طقس العراق ومقارنته بطقس جهات الهند ومصر ، وقد اعتمد في كتابته على سجلات المقيم البريطاني في بغداد واقتبس منها كثيراً من الاحصائيات ؛ وتقرير آخر رفعه السر فودن — في السنة عينها — عن « الامكانيات الزراعية في العراق[1] » أبان فيه صلاح أرض العراق لزراعة الحبوب والقطن والأثمار وأيد ما اشيع عن خصوبتها وامكان قيام مشاريع ري وزراعة كبرى فيها . وقد أثبت السر فودن في تقريره هذا صلاح أرض العراق وطقسه لزراعة القطن بصورة خاصة فقال ان البلاد تقع في منطقة القطن وان طقسها موافق لزراعته بالرغم من ارتفاع درجة الحرارة فوق ما هي عليه في دلتا النيل بعد ان دلت التجارب على ان نمو شجرة القطن يبلغ أشده في أراضي مصر العليا حيث الحرارة أشد مما هي في الدلتا ، وأثبتت ان في الاستطاعة الحصول على حاصل جيد في الاماكن الشديدة الحرارة القليلة الرطوبة بخلاف ما هو معروف من ان أجود أنواع القطن تنبت في الاماكن التي ترتفع درجة الحرارة فيها تدريجاً

---

(١) Agricultural Possibilities in Mesopotamia

وتكون درجة رطوبة هوائها عالية ؛ وقال انه لا يرى مايحول دون نجاح زراعة القطن المصري في العراق ولاسيما ما يزرع منه في مصر العليا . وجاء في التقارير عن الاتربة ان نسبة أملاح النتروجين وحوامض الفوسفور والبوتاس في أراضي دجلة تلائم حاجة النباتات ، ولم تظهر هذه التقارير نقصاً في أراضي الفرات سوى افتقار بعضها الى أملاح النتروجين .

***

وقد بقي الاستعماريون البريطانيون ينادون بامكان قلب أراضي الرافدين الى جنة غناء تدر على الرأسماليين الخير الوفير حتى أوائل سني الحرب العامة ليبرروا النفقات العظيمة التي كلفتهم إياها الحملة العسكرية على العراق وكان الغرض الحقيقي من القيام بها ضمان سلامة طريق الهند(١) : فقد قال اللورد كرزن في خطاب له في مجلس النواب البريطاني في ٦ كانون الثاني سنة ١٩١٥

« ان العراق البلاد التي كانت تموج يوماً بمزارع الحبوب »
« ويحيا فيها عدد كبير من السكان حياة موفورة قد »
« أصبحت الآن صحراء قاحلة . ولكنني آمل ان تسترجع »
« في عهدها الجديد ماضي مجدها فتعود هذه الصحراء كما »
« كانت جنة نظرة(٢) . »

وما كاد يستقر لهم الامر في العراق سنة ١٩١٧ حتى باشروا بالعناية

---

(١) كما يتبين من الامر الصادر الى السر جون نكسن الذي قاد الحملة الاولى على العراق . ص ٣٨ من :
Loyalties, Mesopotamia 1914-1917 By Sir Arnold. T. Wilson
(٢) ص ١٠٤ من : Loyalties, 1914-1917, Wilson

بشؤون الزراعة والري فعينت ادارة الاحتلال الليوتننت كولونيل كراهام عام ١٩١٨ لاجراء تجارب زراعة الحبوب ، فدرس أصناف الحبوب المزروعة في الحلة والفلوجة ، وجرب زراعة سبعة وثمانين نوعاً من أنواع الحنطة والشعير لانتقاء ما يلائم طبيعة البلاد وأرضها منها ، ودرس أيضاً زراعة الحبوب في جهات العراق المختلفة كالزبير والبصرة والناصرية والعمارة والحلة والكوت و بغداد و بعقوبة والموصل ، وأبان في تقرير نشره عام ١٩٢٠ ان أرض العراق تصلح لزراعة أجود أنواع حنطة الخبز وشعير التخمير وتستطيع ان تصدر الى أسواق العالم كميات كبيرة من الحبوب(١).

وكان العراق بعد ان دمرت الجيوش المتحاربة مزارعه مهدداً بالمجاعة وقد ارتفعت فيه أسعار الحبوب حتى باع الزراع ما احتفظوا به من البذور ، فوضع المستر كاربت ، وكان القائم باعمال الزراعة في ادارة الاحتلال ، منهاجاً لزرع ٦٠٠٠٠٠ فدان من الارض والحصول على ٢٨٠٠٠٠ طن من الحبوب ، لسد حاجة الجيش (وقد قدرت بـ ٩٠٠٠٠ طن) والاهلين . وقد اقتضى هذا المنهاج تموين الفلاحين بـ ١٥١٠٠٠ طن من البذور بلغت قيمتها ٢٥٠٠٠٠٠ ليرة انكليزية ، واقتضى كذلك صرف مبلغ ٢٠٠٠٠٠ ليرة انكليزية لتطهير الانهر ومبلغ ٣٠٠٠٠٠ ليرة انكليزية كسلفات زراعيــة للفلاحين ، فبلغت مجموع مخصصات المشروع ٣٠٠٠٠٠٠ ليرة انكليزية ، ثم اضيف اليها بعــد ذلك مبلغ ١٠٠٠٠٠٠

---

(١) Note on The Wheates and Barleys of Mesopotamia Together With Observations on Local Conditions, Agricultural Dept. 1920

ليرة انكليزية لتسديد نفقات الموظفين وقيمة الآلات الزراعيـــة ونفقات النقل . وحصر المشروع أول الامر بالاراضي التي تسقى من نهر الفرات ، ولـكنه لم ينجح لأن تخمينات الاراضي وضعت بموجب خرائط غير مضبوطة ولان الآراء استمدت من السجلات العثمانية — وكان أغلبها غير صحيح — ولأن أراضي الفرات كانت لا تزال مجهولة لدى السلطات المحتلة . وقد عرقلت الاضطرابات بين القبائل سير أعمال الري فنقصت الاراضي المخمنة المزروعة مقدار ١٠٠٠٠٠ فدان . وتبين كذلك ان البذور التي جلبت من الهند لم تأت بالمحصول المأمول منها لعدم صلاح الارض لنموها ، وان كميات كبيرة من مقدار الماء الذي ظن انه يكفي لسقي هذه المزارع كانت تتوارى في شقوق الارض . على ان المحصول بلغ بالرغم من ذلك مقدار ١٢٥٠٠٠ طن ، استعاضت الادارة المحتلة به عن استيراد الحبوب من الهند ، وقد كانت مهددة بالمجاعة أيضاً ، وكانت كلفة مثل هذا المقـــدار من الحبوب لو استورد من الهنـــد تنوف على مليوني ليرة انكليزية . وقد استفادت السلطات المحتلة من المساعدات والسلفات التي قدمتها الى الشيوخ في الفرات في تعزيز نفوذها واكتساب حب القبائل(١) .

وقد اهتمت ادارة الاحتلال أيضاً بدرس الحشرات الزراعية وحياة النبات في العراق فدرس الكابتن بوكستن (P. A. Buxton) حياة الحيوان والنبات(٢) ، ودرس الكابتن داوسن (V. H. Dowson) أمراض النبات

---

(١) ص ٥٤ — ٥٨ : Mesopotamia, 1917–1920, Wilson

(٢) ومما نشره : (Survey of Irap Fauna) , (Animal Life in Deserts)

خاصة ، ثم استقدم الميجر ومسهرست (Major Wimshurst) مع هيئة من الاخصائيين للقيام بمهمة درس حياة الحشرات والنباتات ومكافحة الامراض النباتية . وتولى المستر وبستر (J. F. Webster) دراسة الاتربة والاملاح وكتب عنها عدة تقارير[1] أظهرت للانكليز ان اعادة هذه الارض الى خصوبتها الاولى تتطلب نفقات كثيرة لم تكن متيسرة لديهم يومذاك[2].

واهتم الانكليز كذلك بزراعة القطن بعد ان تم لهم احتلال العراق فعينوا المستر هولند والمستر ولسن سنة ١٩١٧ لدرس الموضوع وتقديم تقرير عنه فاظهرا في تقريرهما ان التربة والمناخ يلائمان زراعة القطن واقترحا استقدام خبير لاجراء التجارب واختيار المناطق الصالحة ، فاوفدت حكومة الهند الكابتن توماس (R. Thomas) ، أحد موظفي دائرة الزراعة في الهند ، فعين خبيراً زراعياً في ادارة الاحتلال في أواخر سنة ١٩١٧[3] . وقام على أثر قدومه بجولة في أراضي شط العرب ووادي دجلة — بين البصرة وبغداد — وأراضي الفرات المحيطة بالناصرية والحلة ، ثم اختار أرضاً في

---

(١) ومما نشره في الموضوع :

1- The Mechanical Analysis of arid and semi-arid soil with special reference to Mesopotamia. Dept. of Agriculture. Memoir Mo.4 1921
2- Furthur studies on alkali soil in Iraq. Dept. of Agriculture. Memoir. No. 5. 1921

3- Alkali Land in Iraq. A preliminary Investigation. Dept. of Agriculture. Memoir. No. 1 1921

(٢) ص ٥٩ — ٦٠ Mesopotamia, 1917–1920. Wilson

(٣) ص ٧٥ من المجلد الـ ١٨ من : Bulletin of The Imperial Institute of 1920

« السكرادة » أجرى فيها تجارب التي تضمن نتائجها تقرير نشر عام ١٩١٩[١]. أبان فيه ان الغرض من التجارب التي قام بها انتقاء أنواع القطن التي تصلح للزراعة في مناخ وتربة العراق وتعطي حاصلاً وافياً . وقد أظهرت التجارب التي قام بها ان تربة العراق ومناخه يساعدان على نمو بعض أنواع القطن الاميركي والقطن المصري المسمى « بالتركي » ، وان النوع المسمى (Webber 49) يعطي أكبر حاصل بالنسبة لبقية الانواع . ومما قاله ان زراعة القطن في العراق تحتاج الى كمية من الماء أكبر مما تحتاج اليه زراعة القطن في مصر . وكان من رأيه ان أهم ما تحتاج اليه زراعة القطن في العراق :

(١) تأسيس حقول تجربية يديرها أخصائيون مدربون .

(٢) تأسيس دائرة لبث الدعاية لزراعة القطن بين الفلاحين والزراع .

(٣) تهيئة أسواق ومحالج ومكابس .

(٤) تأسيس دائرة لمراقبة أحوال الطقس ومكافحة الحشرات والامراض التي تنتاب القطن .

(٥) تهيئة رؤوس الاموال والايدي العاملة .

(٦) تشجيع السكنى في الاراضي الصالحة لزراعة القطن وتسهيل ريها .

(٧) تهيئة مصانع استخراج الزيت من بذور القطن .

(٨) القيام بمشاريع الري لتوفير ما تحتاج اليه زراعة القطن من المياه .

---

(١) The Possibilities of Mesopotamia as a Cotton Growing Country, Notes : II, III and IV, by R. Thomas B. Sc., Cotton Expert, 1920

(٩) منع استيراد أي نوع من أنواع البـــذور عدا ما تستورده دائرة الزراعة [١].

وقد حاولت دائرة الزراعة في ادارة الاحتلال ان تنشر زراعة القطن وان تقوم بها بطريقة تجارية فوزعت ثمانين فداناً من الارض لتزرع من قبل الفلاحين تحت اشرافها ثم وزعت خمسمائة فدان اخرى على جماعة من الملاكين لمين القرض . وأوفدت جمعية زراعة القطن البريطانية اثنين من رجالها لدرس ومراقبة سير هذا المشروع فتبين لهما ان من الميسور القيام بزراعة القطن بنطاق واسع فاقترحا على الجمعية ان تقوم هي بمثل هذه التجربة اذا ضمنت الحصول على مساعدة الحكومة المحلية . وكان رأي المستر توماس ان مما يحول دون نجاح زراعة القطن بنطاق واسع افتقار البلاد الى مشاريع الري والى الايدي العاملة ، وان أعظم ما يمكن الحصول عليه لا يتجاوز المليون بالة في السنة [٢]. وعلى أثر التقرير الذي رفعه عضو جمعية زراعة القطن البريطانية أوفدت الجمعية المستر فيبر ، أحد المهندسين المستخدمين لديها ، لانشاء محلج لحلج محاصيل سنتي ١٩٢٠ و ١٩٢١ . واهتمت دائرة الزراعة بقضية البذور فاستوردت عام ١٩٢٠ عشرين طناً من نوعين كانت قد نجحت زراعتها في تجارب سنتي ١٩١٨ و ١٩١٩ ، واستقدمت عدداً من الخبراء

---

(١) ومن تقارير الكابتن توماس عن زراعة القطن في العراق التقريرين التاليين :
Interim Report on Cotton Experimental Work in Mesopotamia in 1918
Report on Cotton Experimental Work in Mesopotamia in 1918

(٢) The Possibilities of Mesopotamia as a Cotton Growing Country

بزراعة القطن بالطريقة التجارية في مصر . ولكن هذه المساعي باءت بالفشل لأن الزراع الذين غامروا بهذه التجربة في أراضي دلتاوة وبلدروز والفلوجة تكبدوا خسائر جمة ولم يحصلوا على ما كانوا يتوقعون(١) .

وكانت المبالغ الطائلة التي انفقت على هذه المشاريع التي لم تعد بفائدة ظاهرة قد أثارت ضجيجاً عالياً في الاوساط السياسية في انكلترة ، ورأى البعض ان اهتمام السلطة المحتلة بهذه الشؤون التي لا علاقة لها بالجيش كان ضرباً من العبث ، وعلى ذلك أوفدت حكومة الهند السر جون هيوت قبيل عقد الهدنة ليدرس مشاريع الري والاعمال الزراعية التي قامت بها السلطة المحتلة وعلاقتها بالجيش والحركات العسكرية ويرى فيما اذا كان هناك سبيل لرفع هذه التكاليف عن كاهل الجيش . فبين في تقريره انه لم يجد ما يبرر تكبد الجيش المحتل مثل هذه النفقات التي بلغت المليوني ليرة انكليزية ، فكان هذا الرأي نذيراً بايقاف العمل في هذا السبيل(٢) .

ولم يكن مستقبل العراق معلوماً في أثناء مفاوضات الصلح وقد اختلفت آراء الانكليز في ضرورة البقاء فيه او مغادرته ، وكان الرأي العام البريطاني وكثير من الموظفين البريطانيين ورجال الصحف يجهلون ما كان يجري وراء الستار ويجهلون كذلك ما سيؤول اليه أمر الاتفاقيات السرية أمام إصرار المستر ولسن رئيس الولايات المتحدة على نقاطه الاربعة عشر فكان هذا التبلبل عاملاً آخر في توقف العمل في مشاريع الري والزراعة . وتبين ان

---

(١) Adminstrative Report of The Department of Agriculture in Mesopotamia For The Year 1920

(٢) ص ١٦٦ — ١٦٨ : Mesopotamia 1917-1920, Wilson

اعادة الحياة الزراعية لبلاد العراق بحيث تكون صالحة لاستثمار الرأسماليين يحتاج الى ما لا يقل عن الخمسين مليون ليرة انكليزية على الاقل ، ولم يكن بين أصحاب المصارف ورجال المال والرأسماليين من يرضى ان يغامر بمثل هذا المبلغ في مشاريع مجهولة العاقبة وفي بلاد لم تستقر أحوالها على حال ولم يكن ينتظر يومئذ ان تستقر أحوال هذه البلاد في مدة قصيرة . وكان خطر قحط الحبوب في العالم قد زال بتقدم وسائل الزراعة التي جعلت باستطاعة الفلاح الواحد في كندا والولايات المتحدة مثلاً ان يزرع ما ينوف عن الـ ٥٠٠ فدان ، وازداد حاصل مزارع الحبوب بزيادة العناية بالحبوب وتحسين أنواعها (١) .

وقد اختلت شؤون العالم الاقتصادية بعد عام ١٩٢٠ واضطربت الاحوال المالية في اوربا فلم يبق مجال لتحقيق تلك الخيالات التي أثارها الرأسماليون قبل الحرب العامة فخيل للناس انها كانت سراباً .

ولم يبق للاستعمار البريطاني بعد ان تخلصوا من منافسة الالمان وأصبحوا بمأمن من الاخطار التي كانت تتهددهم قبل الحرب العامة — كخوفهم من انتعاش الدولة العثمانية وانتشار فكرة الوحدة الاسلامية — حاجة بمثل هذه الوسائل التي استخدموها في اثارة اهتمام الرأي العام البريطاني واتخذوا منها ذريعة للتدخل في شؤون العراق في عهد الدولة العثمانية ومقاومة النفوذ الجرمني فيه . ورأوا ان يطمئنوا مصالحهم في الوضع السياسي الذي عقب الحرب العامة بوسائل جديدة تلائم الزمان . وهكذا اسدل الستار على فصل من فصول الاستعمار .

(١) ص ١٦٥ و ٢١٦ — ٢١٧ و ٢١٥ — ٢١٦ : Mesopotamia, 1917-1920, Wilson

الفصل التاسع

النفط

ليست قصة النفط بحديثة عهد فقد عرف البشر هذه المادة واستعملها للاستنارة في البيوت وفي المعابد وفي معالجة الامراض الجلدية منذ أقدم العصور ، وقد استعمل القار أيضاً في طلاء سطح السفن والمباني . وكان أول عهد البشر بها في بلاد الرافدين وبلاد ايران[1] .

غير ان تاريخ النفط الحديث يبدأ بوقوع المستر صموئيل كير على منبع نفط في أثناء قيامه بحفر الآبار لاستخراج الملح في ولاية بنسلفانية قبيل الحرب الاهلية في الولايات المتحدة . ولم يكن يقدر أهميته يومئذ فراح يضعه في القناني و يبيعه كعلاج للكوليرا والنزلة الصدرية والسل وأمراض الكبد ، فلما جاءت سنة ١٨٥٩ لفت هذا العلاج نظر الكولونيل ادورد دريك فاسرع الى ولاية بنسلفانية وحفر فيها أول بئر لاستخراجه بواسطة الآلات البخارية . فكان ذلك فاتحة عهد صناعة النفط بالاساليب والوسائل الحديثة . ثم امتدت يد المستر جون روكفلر الى هذه الصناعة حوالي سنة ١٨٨٠ فقبض على خناقها وافتتح عهد الصراع الرأسمالي عليها فاخذت أهميتها

---

(١) يجد القارئ خلاصة موجزة في ذلك في مجموعة محاضرات السر جون كادمن التي جمعتها وطبعتها شركة نفط خانقين في كتيب صغير أسمته « اسطورة النفط » وقد القيت هذه المحاضرات في لندن في المدة بين ٦ آذار و ١٠ نيسان من سنة ١٩٣٠

ويجد كذلك بحثاً مسهباً في هذا الموضوع في كتاب « النفط مستعبد الشعوب » (ص ٢٠ — ٢٨) لصاحبه الاستاذ يوسف ابراهيم يزبك (مطبعة الفن الحديث — بيروت ١٩٣٤) وهو الاول من نوعه باللغة العربية

تتضاعف يوماً بعد يوم باختراع الآلات التي تشغل بالنفط واختراع السيارات واحتلال النفط تدريجاً المكانة التي كانت للفحم في مختلف الصناعات[١].

وخطر لأحد رجال الانكليز عام ١٨٨٢ ان في الاستطاعة الاستفادة من النفط في البواخر والسفن التجارية والحربية — ولكن هذا الرجل الذي أصبح فيما بعد الاميرال اللورد فيشر كان يهمه أمر الاسطول أكثر مما يهمه أمر السفن التجارية — فاخذ على نفسه دعوة رجال بريطانية الى استعمال النفط لتحريك سفن الاسطول ، وكان يعتقد « ان الاستعاضة بالنفط عن الفحم تضاعف قيمة الاسطول » و « ان استعمال النفط كوقود يزيد في قوة الاسطول البريطاني بنسبة ٣٣ في المائة و يجعل بالاستطاعة تجهيزه بالوقود في عرض البحر بعيداً عن مرافيء الاعداء . » ... « بينما استعمال الفحم يستلزم ان يكون ثلث الاسطول منشغلاً دائماً بالتردد على مراكز تموين الفحم . » وان استعمال النفط يزيد في السرعة بمقدار ثلاث عقد في الساعة ... — والسرعة هي الكل في الحرب - و يقلل عدد عمال الآلات والافران بنسبة ٦٠ بالمائة . وان الفحم يتلف بالخزن اما النفط فلا يؤثر الخزن فيه[٢].

وكان للدعاية التي بثها اللورد فيشر — وقد تولى رئاسة ديوان البحرية البريطانية[٣] سنة ١٩٠٤ — تأثير عظيم في الفات نظر الانكليز الى أهمية

---

(١) ص ١٣ — ١٦ : The Secret War by F. C. Hanighen and Anton Zischka, London 1935

(٢) ص ٢٤ : We Fight For Oil, by Ludwell Denny وراجع أيضاً ص ٤٠ — ٤١ (الحاشية) من كتاب « النفط مستعبد الشعوب » و ص ١٧ — ١٨ من : The Seret W.r

(٣) First Lord of The Admirality

النفط — لاسيما وقد كان في حيازة الولايات المتحدة ثلاثون مليوناً من الخمسة وثلاثين مليون برميل مما يستخرج من هذه المادة — وسوقهم الى خوض غمار الحرب النفطية للسيطرة على مراكز النفط في العالم[١] . وكان اللورد فيشر كذلك أول من اكتشف شخصية هنري ديتردنك وشجع الحكومة البريطانية على استخدامه في الحرب النفطية فقاد كثيراً من الحملات الرأسمالية في هذه الحرب الطاحنة وفاز بكثير من الانتصارات حتى لقب بنابليون النفط . وانظم المستر ونستن تشرشل الى الرجلين فكان الثلاثة قواد الجبهة الرأسمالية البريطانية للسيطرة على نفط العالم . وقد كشف المستر تشرشل قبيل الحرب العامة — وكان رئيس ديوان البحرية البريطانية — أمام مجلس النواب البريطاني عن سياسة الحكومة البريطانية في هذا الشأن فقال ان الحكومة تستهدف في سياستها ان تجعل البحرية البريطانية تملك

(١) كانت الحرب الخفية التي استعرت نيرانها بين دوائر الرأسماليين من جهة والدوائر السياسية الاستعمارية من جهة اخرى منذ أواخر القرن التاسع عشر — ولاسيما بين بريطانية والولايات المتحدة — من أهول الحروب الرأسمالية الخفية . ولم تكشف هذه الحرب عن الروابط التي تربط الرأسماليين في كل دولة برجال الحكومة والسياسة وعن تسخير الرأسمالية رجال الدولة لمصالحهم فحسب بل قد أثبتت أيضاً ان الرأسماليين والدوائر السياسية ورجال الحكومات يؤلفون في الحقيقة عصابة واحدة للنهب والسلب واستغلال الشعوب . ويرى القارئ قصة هذه الحرب في كثير من الكتب التي نشرت بعد الحرب العامة ومنها كتاب « النفط مستعبد الشعوب » وهو أول كتاب باللغة العربية بحث هذا الموضوع وكتابي (The Secret War) .، (We Fight For Oil) وقد اشير اليها ، ومنها أيضاً :

Oil ; Its Influence on Politics, by Oelaisi, Francis (London, 1922)
Oil in The World War, by Fanning, L. M. (New York, 1922)
Oil Imperialism, by Fischer, Louis. (New York, 1926)
The Oil War by Mohr, Anton (New York, 1926)

وتستخرج بنفسها كل ما تحتاج اليه من النفط وذلك بانشاء مخازن احتياطية للنفط في بريطانية تسد حاجة الاسطول أثناء الحرب وتستطيع ان تتغلب على تقلبات الاسعار وقت السلم ، وجعل البحرية قادرة على شراء النفط الخام باسعار بخسة من الاسواق ، ثم بان يكون في حيازتها مقدار من ينابيع النفط التي تجهزها ولو بقسط مما تحتاج اليه من هذه المادة[١].

وكان من أول بوادر هذه الحرب النفطية حملة الرأسماليين الانكليز ومن ورائهم الحكومة البريطانية للسيطرة على ميادين النفط في ايران. وكان المستر وليم دارسي قد استحصل في سنة ١٩٠١ من مظفر الدين شاه على امتياز التنقيب عن النفط واستخراجه والقيام بما يتطلبه ذلك من المشاريع والانشاءات في كافة أراضي ايران عدا الولايات الخمس الشمالية (اذربايجان وغيلان ومازندران واستراباد وخراسان) لمدة ستين سنة فتشكلت شركة النفط الانكليزية الفارسية لتتولى القيام باستثمار ينابيع النفط في الاراضي الايرانية[٢].

---

(١) Denny ص ٢٦

(٢) وقد جاء في كتاب « النفط مستعبد الشعوب » ص ٤٦ — ٤٩ ، وكذلك في كتاب « The Secret War » ص ٦ — ١٢ الذي استقى مؤلفه على ما يذكر ما أورده من المعلومات من كتاب Antoine Zischke, La Guerre Serete Pour Ie Petrole, 1933 استناداً الى الاوراق الرسمية الفرنسية (File No 23779-1925, French Secret Service, Second Bureau) ان الحكومة الانكليزية هي التي قامت في الحقيقة بتاليف هذه الشركة بعدما سلبت المستر دارسي من امتيازه بحيلة شيطانية د ِرها أحد منتسبي دائرة التجسس البريطانية واسمه « سدني رايلي » (واسمه الحقيقي روزنلوم وهو يهودي) اذ تزيا بزي راهب واقنع المستر دارسي — الذي رفض ان يبيع الامتياز الى أصحاب ؤوس الاموال — ان يمنحه اياه ليستثمره في سبيل

ولما نشبت الحرب العامة تبين للجميع ان لا سبيل الى النصر الا على مجار من النفط ، اذ كان النفط المحرك الرئيسي لجميع آلات الحرب وأدوات القتال من مدرعات وبواخر وسيارات وطيارات وغواصات ، وكان كثير من المفرقعات يصنع من مواده ، وقد استعمل المتحاربون النفط كذلك لتوليد الدخان الذي كانوا يحجبون به سفن القتال عن أعين العدو لتتمكن من القيام بمناوراتها الحربية بعيدة عن قنابل الطيارات وقذائف الغواصات . وكانت وسائط النقل وساحبات المدافع والطائرات قد تضاعف عددها عشرات المرات في خلال الحرب العامة فقد كان لدى الجيش الفرنسي أبان الحرب مائة وعشرة سيارة من سيارات النقل وستون ساحبة ومائة واثنين وثلاثون طائرة فلما جاءت سنة ١٩١٨ بلغ ما لديه من سيارات النقل ٧٠٠٠٠ سيارة ومن الطيارات ١٢٠٠٠ طائرة . وساقت الولايات المتحدة بدخولها الحرب ١٠٥٠٠٠ سيارة نقل و ٤٠٠٠ طائرة ، حتى بلغ ما يستهلك من النفط في اليوم الواحد ١٢٠٠٠ برميل . وكانت المانية قد وجهت غواصاتها على حاملات النفط فهددت الحلفاء في الصميم واشتدت حاجة فرنسة الى النفط حتى كتب كليمانصو الى الرئيس ولسن يقول[1] :

« ان انقطاع النفط عنا يوقف حالاً كافة أعمال الجيش »

نشر الديانة المسيحية فى ايران . فلما حصلت الحكومة الانكليزية على الامتياز تشكلت على الاثر « شركة النفط الانكليزية الفارسية » برأس مال قدره مليوني دولار ، ولم يكن أحد يعرف شيئاً عن مورد المال وحملة الاسهم حتى كشف الستار عن هذا السر عام ١٩١٤ فتبين ان الحكومة البريطانية كانت تملك (٥٦) فى المائة من عدد الاسهم

(١) The Secret War ص ٥٥ — ٥٦ و Denny ص ٢٧ — ٢٨

« وقد يضطرنا لقبول صلح لا يروق الحلفاء . ان الحد »
« الادنى الذي يجب ان يكون جاهزاً لدى الجيوش »
« الفرنسية من النفط حسب تقدير القيادة العليا لا يقل »
« عن ٤٤٠٠٠٠ طن والاستهلاك الشهري لا يقل عن »
« ٣٥٠٠٠٠ طن . على ان هذه الكمية قد انخفضت الآن »
« الى ٢٨٠٠٠٠ طن وربما نفذت اذا لم تتخذ الولايات »
« المتحدة التدابير العاجلة والحازمة . ان هذه التدابير »
« يجب ان تتخذ حالاً من غير ان تتأخر يوماً واحداً »
« حفظاً لسلامة الحلفاء جميعاً . وان من أهم مستلزمات »
« هذه التدابير ان يستحصل الرئيس ولسن من شركات »
« النفط الاميركية على حاملات نفط لها حمولة احتياطية »
« لا تقل عن ١٠٠٠٠٠ طن . ان سلامة الحلفاء في »
« الميزان ، فان شاؤا ان لا يخسروا الحرب في اللحظة التي »
« يقوم الالمان فيها بهجومهم العظيم فعليهم ان لا يقطعوا »
« عن فرنسة النفط الذي له في حروب الغد من القيمة »
« بقدر ما للدم فيها . »

وقد تحقق النصر للحلفاء فعلاً بعد ان توفر النفط في ميادين القتال ، حتى قال اللورد كرزن في مؤتمر النفط (سنة ١٩١٨) « ان الحلفاء فازوا بالنصر على فيض من النفط . » وقال المسيو هنري بيرانجه ، ممثل الحكومة الفرنسية في هذا المؤتمر ، « ان النصر الذي فزنا به ما كان ليتحقق لولا دم

آخر هو دم الارض الذي نسميه بالنفط . » وقد بلغ مجموع ما استهلكه الاسطول الانكليزي من النفط في خلال الحرب العامة (٩،١٠٠،٠٠٠) طن وما استهلكه الجيش الانكليزي (١،٢١٩،٠٠٠) طن ، وما استهلك من قبل الجيش الفرنسي (١،٨٥٥،٠٠٠) طن[١].

وهكذا فان الحرب لم تنته الا وقد أعطت الدول درساً بليغاً في قيمة النفط في الحروب ، فضاعفت بذلك جشع الرأسمالية ومن ورائها الدوائر السياسية في هذه المادة وزادت في لهيب النزاع الذي كان دائراً بينهم للحيازة على ينابيع النفط في بقاع الكرة الارضية . وقد كان من أهم عوامل هذا النزاع ، الميادين التي تجري من تحتها أنهار من النفط في الوادي الكائن بين بغداد والموصل ، فقد اشتدت رغبة بريطانية في الحصول على هذه الثروة الكامنة حتى ذهب بعض الباحثين في الشؤون السياسية الى ان مصالح الانكليز في نفط العراق تفوق في أهميتها مصالحهم السياسية والحربية فيه[٢].

* * *

ظهرت الادلة على وجود النفط في أرض الرافدين منذ أقدم العصور ، وكان من هذه الادلة : النصب الناري القريب من كركوك ، وهو عبارة عن شعاع تغذي ضوءه الغازات المتصاعدة من جملة شقوق في جوف الارض ،

(١) Denny ص ٢٨

(٢) Iraq and The British Treaties. Foreign Policy Association, Information Service, August, 20, 1930. Vol. VI, No. 12

ويظن انه النصب الذي اتي فيه بامر من نبوخذنصر ثلاثة من اليهود ؛ ومنها أيضاً مجاري النفط الاسود بين بغداد والموصل ، وقد أشار اليها السائحون فيما كتبوه عن هذه البلاد[١]. وقد استفاد المصريون على عهد الفراعنة من النفط الاسود — وكانوا يحملونه الى مصر من أماكن بالقرب من هيت — في تحنيط الموتى[٢].

على ان هذه المادة بقيت مهملة حتى انتبه الرأسماليون الى أهميتها بعد ان شاع استعمالها في الصناعات وفي تحريك الآلات ، فبثوا رسلهم يفتشون عنها في أطراف المعمورة وفي مجاهل الكرة الارضية .

وكان بعض مروجي فكرة الاستعمار قد حملوا الى الرأسماليين نبأ وجود مقادير غزيرة من النفط تحت سطح أرض الرافدين ، وذهبوا الى ان هناك بحيرة من النفط تمتد من سواحل بحر الخزر في الشمال الى سواحل برما في الجنوب وان أرض العراق تغطي وسط هذه البحيرة . فجاءت العراق بعثة من الفنيين عام ١٨٧١ لترى ما اذا كان في الاستطاعة استثمار ينابيع وادي الرافدين للاغراض التجارية فتبين لها ان فقدان وسائط النقل لحمل النفط الى سواحل البحر الابيض المتوسط يحول دون نجاح أية شركة تتولى استخراج هذا النفط لغرض التجارة في منافسة النفط الروسي والاميركي ؛ ولكن هذه البعثة أكدت بالرغم من ذلك جودة النفط الموجود في العراق وغزارته[٣] .

---

(١) « اسطورة النفط » ، للسر جون كادمن

(٢) « النفط مستعبد الشعوب » ص ٢٥

(٣) F. Maunsell, The Mesopotamian Petroleum Field, in The Geographical Journal, Vol. IX (1897)

وانتبه السلطان عبدالحميد — على أثر ظهور هـــذه الشائعات — الى أهمية أراضي النفط في ولاية الموصل فاصدر سنة ١٨٨٨ « فرماناً شاهانياً » حصر بموجبه حق التحريـــ عن النفط ومنح امتيازات استخراجه بالخزينة الخاصة (وبذلك أصبحت أراضي النفط من الاملاك السنية) وذلك لأن التشريع العثماني كان يحصر حق التعدين باصحاب الاراضي التي يكتشف بها المعدن[1].

وقد ظهرت بوادر النزاع على نفط العراق بين الدول منذ أوائل سني القرن العشرين[2] ، فقد جاءت العراق عام ١٩٠١ بعثة من الفنيين الالمان لدرس ينابيع النفط فيه وأبلغت الحـــكومة الالمانية في تقريرها بان تحت سطح العراق بحيرة نفطية لا ينفذ معينها ، وحرضتها على الاسراع للسيطرة على هذه الارض واستخراج النفط من ينابيعها للتخلص من تحكم شركـة « ستاندرد » الاميركية التي كانت على وشك السيطرة على جميع ينابيع النفط في العالم[3] . وزار العراق الدكتور روربانج — داعية الاســـتعمار الجرمني — عقيب مجيء هذه البعثة فايدها فيما ذهبت اليه وصرح بان هذه

---

(١) « النفط مستعبد الشعوب » ص ٧٧ — ٧٨ و Earle ص ١٠

(٢) وكانت رحى الحرب النفطية دائرة بين انكلترة والولايات المتحدة ، في شخص ديتردنك وروكفلر ، في أميركا الشمالية والوسطى وروسية وفي كافة أسواق العالم . وقد انضمت المانية الى هذه الحرب الخفية قبيل القرن العشرين لما تبين لها ان مستقبل حياتها الصناعية وفوزها في النزاع الرأسمالي العالمي المنتظر يتوقفان الى حد بعيد على حيازتها على المقادير الكافية من النفط . (راجع في هذا الشأن كتاب Denny وكتاب The Secret War وكتاب « النفط مستعبد الشعوب »)

(٣) Parliamentary Popers, 1921, Cmd, 675.

الارض مشبعة بالقار والنفط وغازات الهيدروكاربونات ، وان مستقبل الينابيع فيها أعظم من حاضر ومستقبل ينابيع بحر الخزر . ولم تمر على هذه التخرصات غير فترة قصيرة حتى استحصل البانق الالماني سنة ١٩٠٤ — لما كان له من النفوذ في الباب العالي — على اذن بالقيام باعمال مسح ميادين النفط في وادي الرافدين على ان يكون له الاختيار في التعاقد مع الدولة العثمانية بعد انقضاء سنة على تاريخ مباشرة أعمال المسح لاستخراج النفط من هذه المنطقة ، ولكن البانق العثماني — وكان منشغلاً في معالجة مشاكل سكة حديد بغداد — لم يواصل مساعيه في هذا السبيل فوقفت عند هذا الحد(١).

وبينما كانت الرأسمالية الانكليزية مجدة في سعيها للحيازة على ينابيع النفط في ايران ، والرأسمالية الالمانية تواصل السير نحو ينابيع الموصل ، امتدت يد الرأسمالية الاميركية من وراء البحار تطلب نصيبها من هذه الغنائم ؛ وذلك ان الرئيس روزفلت أوفد الاميرال شستر (Colby. M. Chester) سنة ١٨٩٩ ، الى الباب العالي بحجة إغاثة الارمن والمطالبة بتعويض للمبشرين الاميركيين الذين اعتدي عليهم في أثناء المذابح(٢) ، لدرس المشاريع الاقتصادية التي يمكن للرأسمالية الاميركية ان تستثمرها . ولم يلبث الاميرال شستر طويلاً حتى تخلى عن وظيفته في البحرية الاميركية وعاد الى البلاد

(١) Earle ص ١٥

(٢) والرأسماليون الاوربيون هم الذين حرضوا الارمن — وكانوا على أتم وئام مع العثمانيين حتى سموا بالرعية الامينة — على القيام بوجه السلطة العثمانية ، كما فعلوا مع بقية رعايا هذه الدولة ، ليتخذوا من ذلك ذريعة للاصطياد في المياه العكرة باسم الانسانية والدين

العثمانية يطالب بمنحه امتيازات مد السكك الحديدية واستخراج النفط والتنقيب عن المعادن في بلاد الاناضول والعراق . ولكنه لم ينل من السلطان عبدالحميد غير وعود لا طائل تحتها ؛ على ان مساعيه كانت من جملة أسباب الخلاف الذي نشأ بعد الحرب العامة بين الولايات المتحدة الاميركية وبريطانية حول نفط الموصل(١).

ودخلت الرأسمالية الانكليزية الى ساحة النزاع على أثر دخول الولايات المتحدة بتقدم جماعة دارسي (وعلى رأسهم البارون انشكيب) التي جاءت تطالب بمنحها امتياز استخراج النفط في أراضي الدولة بمقتضى الشروط التي عرضت قبلاً على البانق الالماني (وكان السفير البريطاني لدى الباب العالي يعضد مساعيها هذه) فبقي السلطان عبدالحميد يماطل — وكان يسيء الظن بالانكليز للأسباب التي مر ذكرها في الفصول السابقة — الى ان وقع انقلاب سنة ١٩٠٨ الذي خسر به السلطان عرشه فتوقفت هذه المفاوضات . ولما نقلت ملكية الاراضي السنية بزوال عبدالحميد الى خزينة الدولة ، اندمجت مفاوضات النفط بالمساومات التي جرت يومئذ بين حكومة الاتحاد بين من جهة وفرنسة وانكلترة من جهة اخرى حول عقد القروض وتزييد الرسوم الكمركية ، ولما كانت الدولتان تعارضان في تزييد الرسوم أهملت الحكومة العثمانية طلب هذه الجماعة(٢)

وأعاد الانكليز الكرة في سنة ١٩١٢ لاستحصال امتياز النفط ، وكان

---

(١) Parliamentary Papers, Cmd. 675. (1921)

(٢) راجع ص ١٢٣ — ١٣٥

يمثلهم السر ارنست كاسل الذي استقدم من قبل الاتحاديين لتأسيس البانق الوطني التركي ، وكان من محبذي تعاون الرأسماليين الانكليز والالمان في مشروع سكة حديد بغداد وغيره من المشاريع في البلاد العثمانية[١]. وكان المستر شستر الاميركي قد جدد مساعيه للحصول على الامتيازات واستحصل من الاتحاديين وعداً تحريرياً في هذا الشأن[٢]، فأدى ذلك بالالمان والانكليز الى توحيد جهودهم لمقاومة هذا الدخيل ، وكانت ثمرة هذا التعاون ان تألفت شركة النفط التركية عام ١٩١٢ برأسمال قدره ثمانون الف ليرة انكليزية لاستحصال امتياز استخراج النفط في العراق وفي كافة الاراضي العثمانية . ونجح السر ارنست كاسل بالحصول على موافقة شركة سل الهولندية الملكية وشركة النفط الانكليزية السكسونية[٣] والبانق الالماني ولكنه لم يفز بتأييد جماعة دارسي فخاب في مسعاه[٤].

على ان الحكومة البريطانية لما رفعت القناع عن وجهها وظهرت في ميدان النزاع النفطي[٥] جددت البحث مع الحكومة العثمانية والرأسمالية

---

(١) والسر ارنست كاسل الماني الاصل انكليزي التبعة ولهذا فقد كان شديد الرغبة في تحقيق تعاون الرأسمالية الالمانية والانكليزية في ميادين الاستعمار والاستثمار

(٢) Denny ص ٢٢

(٣) The Anglo-Saxon Petroleum Co. , The Royal Dutch Shell
وهما شركتان انكليزيتان سعتا لاستحصال الامتياز بمعونة كولبنكيان (C. S. Gulb-enkian) وهو من رعايا الدولة العثمانية وكان له نفوذ قوي واطلاع واسع في شؤون النفط حتى لقب بـ « تاليران السياسة النفطية »

(٤) Political Science Quarterly, June 1924

(٥) راجع ص ١٧٠ — ١٧١

الالمانية لتأسيس شركة النفط التركية فتمكنت من جمع كلمة الرأسماليين الانكليز والالمان على عقد اتفاقية ١٩ آذار سنة ١٩١٤ التي وقعها السرهنري سميث بالنيابة عن السر ارنست كاسل والبانق الوطني التركي ، والمسترهنري ديتردنك عن الشركة الهولندية الملكية ، والمستر والتر صموئيل عن شركة النفط السكسونية ، والدكتور كارل بيركان عن البانق الالماني ، والسر تشارلس كرينوي والمستر بارن عن جماعة دارسي وشركة النفط الانكليزية الفارسية ؛ ووقع عليها السر آير كراو بالنيابة عن الحكومة البريطانية والهر كوهلمان عن الحكومة الالمانية . وكان حقي باشا — الذي أوفدته الحكومة العثمانية لمفاوضة الحكومة الانكليزية بشأن سكة حديد بغداد — قداشترك في هذه المفاوضات ولكنه لم يوقع الاتفاقية (١).

وقد أبان السر روبرت كوهن — أحد مدراء شركة شل الهولندية — في كتاب أرسله الى التايمس اللندنية في ١ تشرين الاول سنة ١٩٢١ ، ان شركة شل انضمت الى هذه الاتفاقية بايعاز من الحكومة البريطانية وان هذه الحكومة هي التي قامت بتأسيس شركة النفط التركية . ولما تمت هذه الصفقة تخلى السر ارنست كاسل عن حصته وحصة البانق الوطني التركي في شركة النفط التركية الى شركة النفط الانكليزية الفارسية التي تديرها

---

(١) وقد نشرت هذه الاتفاقية لأول مرة في مجلة :
Political Science Quarterly, June 1924 ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان الحكومةالانكليزية كانتالسيطرة على هيئة ادارة أكثر هذه الشركات وتمتلك أكثرية الاسهم فيالبعض منها كما كان لرؤساء هذهالشركات صلات وثيقة برجال السياسة البريطانية والدوائر الرسمية الظاهرة والخفية

الحكومة الانكليزية مباشرة . وكان قد تم الاتفاق على ان توزع أسهم هذه الشركة بالنسب التالية : -

٥٠ في المائة الى شركة النفط الانكليزية الفارسية .

٢٥ في المائة الى شركة شل الهولندية الملكية وشركة النفط الانكليزية السكسونية ، وكانت الشركتان قد اتفقتا على ان تمنح كل منهما اثنين ونصف في المائة من حصتها الى كولبنكيان .

٢٥ في المائة الى البانق الالماني .

وعلى أثر هذا الاتفاق وتفاهم الانكليز والالمان حول مشروع سكة حديد بغداد تقدمت شركة النفط التركية الى الباب العالي تطلب منحها امتياز استخراج النفط في ولايتي بغداد والموصل ، فوافقت الحكومة العثمانية مبدئياً على إجابة طلبها على ان يتم الاتفاق بين حكومتي المانية وانكلترة ووزارة المالية العثمانية على تفاصيل الامتياز وتعيين حصة الدولة العثمانية . ولما لم يصل المتفاوضون في لندن الى الاتفاق بالسرعة اللازمة بلغت الحكومة العثمانية حقي باشا — ممثلها في لندن — في ٢٢ تموز سنة ١٩١٤ ، بلزوم قدوم ممثل شركة النفط التركية الى استانبول لتجري المفاوضات بينه وبين وزارة المالية العثمانية رأساً .

وعلى هذا الاثر اعلنت الحرب العامة فتوقفت المفاوضات في هذا الصدد عند هذا الحد . ومن ذلك يتبين ان شركة النفط التركية لم تحصل على الامتياز وانما كل ما كان لديها هو وعد من الحكومة العثمانية بمنحها إياه

فيما اذا تم الاتفاق على تفاصيل المشروع(١).

* * *

أثبتت الحرب العامة ما توقعه الاميرال فيشر والمستر تشرشل وغيرهما من رجال الاستعمار الانكليز وغير الانكليز بشأن أهمية النفط في الحروب، وتبين للدول — كما رأينا في استغاثة المسيو كليمنصو بالرئيس ولسن — ان النصر في هذه الحرب وفي الحروب المقبلة سيكون نصيب الدولة التي تحظى بالسيطرة على أكبر مقدار من منابع النفط. وكان الانكليز قد سبقوا غيرهم في ادراك هذه الحقيقة فعملوا في السر منذ سنة ١٩٠٥ للحيازة على ميادين النفط في جنوب آسيا وفي ايران واشتبكوا في حرب مع الشركات الاميركية على ميادين المكسيك وفنزويلا وأميركا الوسطى والجنوبية. فلما توترت العلاقات الدولية واشتد تسابق الدول في الاستعداد للحرب كشفت بريطانية عن مساعيها الخفية في السيطرة على ميادين النفط فاعلنت امتلاكها لأكثرية الاسهم في شركة النفط الانكليزية الفارسية(٢) وأجبرت الباب العالي على ان يوافق مبدئياً على منح شركة النفط التركية امتياز استخراج النفط في وادي الرافدين بين بغداد والموصل وكانت الشركات الانكليزية تملك ٧٥ في المائة من أسهم هذه الشركة، ثم سعت بمساعدة حليفتها روسية القيصرية لتعديل الحدود العثمانية الايرانية حتى اذا تحولت بعض أراضي ايران الى العراق بموجب بروتوكول ٤ — ١٧ تشرين الثاني سنة ١٩١٣

---

(١) Parliamentary Papers, Cmd. 675 (1921)

(٢) تصريح المستر تشرشل، محاضر مجلس العموم، المجلد ٤٥ ص ١٤٦ (١٩١٣)

الذي بمقتضاه أصبحت بعض أراضي النفط المشمولة بامتياز دارسي من جملة البلدان العثمانية ، أجبرت انكلترة الدولة العثمانية في البروتوكول الآنف الذكر على ان تعترف بان يكون لشركة النفط الانكليزية الفارسية من الحقوق فى العراق مثل ما كان لها فى الاراضي الايرانية وبهذا أصبح للانكليز موقع قدم فى هذه البلاد على سبيل الاحتياط لما سيأتي به المستقبل القريب[١].

وما كادت الحرب تعلن بين انكلترة والمانية حتى بدت بوادر استعداد الانكليز لمهاجمة العراق وحماية منطقة شركة النفط الانكليزية الفارسية فى عبادان[٢]. ولما اعلنت الحرب بين الدولة العثمانية والحلفاء فى ٣١ تشرين الثاني سنة ١٩١٤ ، صدرت الاوامر الى الدارعات الانكليزية فى شط العرب والخليج بلزوم حماية المصالح البريطانية فى عبادان ، وفى ١٤ من هذا الشهر تحركت الجيوش من الهند متوجهة نحو العراق بقيادة أمير اللواء « ديلامين » وكان برفقته السر برسي كوكس ؛ وكانت الاوامر الصادرة اليه تتضمن : حماية

(١) « النفط مستعبد الشعوب » ص ٩٧ — ١٠٤

(٢) يقول المستر ولسن فى كتابه (Lovalties, Mesopotamia 1914-1917 ص ٦) بانه ثبت لدى الحكومة الانكليزية منذ تشرين الاول سنة ١٩١٤ ان الدولة العثمانية ستدخل الحرب الى جانب المانية ، فقد استلم المقيم الانكليزي في الخليج فى ٢٧ من هذا الشهر كتاباً من ابن السعود يعلمه فيه ان أنور باشا أنذره بلزوم الاستعداد لمهاجمة الانكليز فى الخليج ، وجاءت أخبار البصرة تنبيء بان الوالي فيها قد بلغه مثل هذا الاشعار . وكانت حكومة الهند قد أشعرت من أصفهان منذ أوائل شهر آب باحتمال مهاجمة الاتراك عبادان ، وبلغها أيضاً خبر سير بعثة تركية الى بلاد الافغان . وكان المقيم الانكليزي فى عربستان قد اقترح ارسال دارعة حربية الى عبادان فوصلت الدارعة Espiégle الى المحمرة في ٢٩ من شهر تشرين الاول ، ورست الدارعة Odin فى مدخل سد الفاو والدارعة Dalhousie أمام عبادان

مصافي ومخازن ومجاري النفط والاتصال بالقبائل العربية وتبليغها باستعداد بريطانية لمساعدتها ضد الدولة العثمانية[١]. وبذلك أصبحت الحرب الخفية على منابع النفط في العراق حرباً علنية خاضت بريطانية غمارها بمنتهى السرعة والقوة ، فصادرت حصة المانية في شركة النفط التركية وأعلنت تجنس المستر هنري ديتردنك مدير شركة شل الهولندية الملكية بالجنسية البريطانية سنة ١٩١٥[٢].

ولم تكد انكلترة تتخلص من منافسة الالمان لها على نفط الموصل حتى برزت لها فرنسة تطالب حصتها من نفط العراق ومن كل ما قد يصيب الحلفاء منه بنتيجة الحرب العامة . وكانت الموصل قد جعلت بموجب اتفاقية سايكس — بيكو (كما سيأتي بيانه) ضمن منطقة النفوذ الفرنسية[٣]، وكانت انكلترة تعتقد ان مصالحها في نفط هذه الولاية ستبقى مضمونة حسب امتياز شركة النفط التركية ، ولكنها عدلت عن رأيها هذا لأسباب سنأتي على ذكرها في الفصول التالية وشرعت تتفاوض مع فرنسة لضم الموصل الى ولايتي البصرة وبغداد اللتين جعلتا من حصة انكلترة في اتفاقية سايكس — بيكو الآنفة الذكر . فجرت بين الدولتين مفاوضات سرية قام بها المسيو كليمنصو رئيس الوزارة الفرنسية — الذي وصل الى لندن في كانون الاول سنة ١٩١٨ — والمستر لويد جورج الذي كان رئيساً للوزارة الانكليزية . ومع ان حقيقة هذه المفاوضات لم تنكشف حتى الآن الا ان المسيو تارديو قد رفع الستار عن

---

(١) Loyalties, Mesopotamia 1914-1917 ص ٨

(٢) Moon ص ٣٨٠

(٣) Dunny ص ١٥٢ و Earle ص ٢٩٣ — ٢٩٤

طرف منها في مقال نشره في احدى المجلات الفرنسية (١) ، ونشر المستر بيكر شيئاً عنها في كتابه عن « الرئيس ولسن ومؤتمر الصلح (٢) » ، وأيد المستر تمبرلي في كتابه عن « تاريخ مؤتمر الصلح (٣) » ما جاء به المسيو تارديو وتبين مما عرف عن هذه المفاوضات ان المستر لويد جورج طلب الى المسيو كليمنصو ان تحول الموصل من المنطقة الفرنسية الى المنطقة الانكليزية فوافق الوزير الفرنسي على ان يكون لفرنسة حصة في نفط الموصل مقابل ذلك بتعديل اتفاقية سايكس بيكو .

وتجددت هذه المساومات في خلال مفاوضات الصلح فتم الاتفاق مبدئياً في ٨ نيسان بين المسيو بيرانجه ، المفاوض الفرنسي ، والمستر والتر ، المفاوض الانكليزي على ما يلي :

(١) ان يكون لفرنسة (٥٠) في المائة من جميع امتيازات النفط التي تستحصلها المملكتان في روسية ورومانية وغاليسية .

(٢) ان يكون لفرنسة (٣٤) في المائة من النفط المستخرج من الممتلكات البريطانية .

(٣) ان يكون لبريطانية (٣٤) في المائة من النفط المستخرج من الممتلكات الفرنسية .

---

(١) L' Illustration, 19 June 1920

(٢) ص ٧٠ و ٧٤ و ٧٦ من المجلد الاول من : Baker, R. S., Wilson and World Settlement

(٣) ص ١٨٢ من المجلد السادس من : H. W. V. Temperley, History of The Peace Conference

(٤) ان تحول حصة للمانية في شركة النفط التركية الى فرنسة .

(٥) ان يكون لبريطانية الحق في ان تمد أنابيب النفط من الموصل الى البحر الابيض المتوسط في الاراضي التي يكون لفرنسة الانتداب عليها .

ولكن هذه التسوية لم ترض النمر الفرنسي فصرح الى المستر لويد جورج في خلال الحديث الذي دار بينهما حول هذا الموضوع في ٢١ – ٢٢ ايار سنة ١٩١٨ بانه لو كان يعلم ان التخلي عن الموصل يستلزم التخلي عن ممتلكات جسيمة لما رضي به . وقد رفض تصديق الاتفاقية التي تمت بين المسيو بيرنجه والمستر والتر حتى بعد ان وقعت من قبل وزارة الخارجية الفرنسية ، وبقيت القضية معلقة الى ان استقال كليمنصو من رئاسة الوزارة في ٢٠ كانون الثاني سنة ١٩٢٠ فتجددت المساومات بين الدولتين وتمت التسوية بينهما في اتفاقية سان ريمو المنعقدة في ٢٤ نيسان سنة ١٩٢٠ والتي وقع عليها السر جون كادمن عن الحكومة الانكليزية والمسيو بيرتلو عن الحكومة الفرنسية . وقد نصت هذه الاتفاقية على :

(١) ان يكون لفرنسة خمسون في المائة من امتيازات النفط التي تستحصلها الدولتان في رومانية . ولم تتطرق هذه الاتفاقية (خلافاً لاتفاقية بيرنجه – والتر) الى ممتلكات روسية او غاليسية .

(٢) ان يكون لانكلترة ما لا يقل عن ثلاث وثلاثون في المائة من النفط المستخرج من الممتلكات الفرنسية ، ولفرنسة ما لا يقل عن مثل هذا المقدار من النفط المستخرج من الممتلكات البريطانية .

(٣) ان تحول حصة المانية في شركة النفط التركية الى فرنسة على ان توافق فرنسة على مرور أنابيب النفط الممتدة بين الموصل والبحر الابيض المتوسط من الاراضي التي يكون لها الانتداب عليها .

وما كادت انكلترة تنهي الخلاف بينها وبين فرنسة حول اقتسام النفط المستخرج من أرض العراق حتى برزت لها الولايات المتحدة ترعد وتزبد وتدعي انها قد أهملت في اقتسام هذه الغنيمة ، وهي من أهم غنائم الحرب العامة التي فاز الحلفاء بها بفضل ما أسداه اليهم الرأسماليون الاميركيون وحكومتهم من المساعدات والخدمات . وكانت الحرب العامة قد أحدثت انقلاباً عظيماً في اقتصاديات الولايات المتحدة ، فقد كانت هذه الدولة مكتفية بما توفر لديها من الثروة الطبيعية ولم يكن لها من المرامي الاستعمارية غير القليل[١]، وكان القسم الاعظم من صادراتها يتألف من المواد الخام والاغذية ، وكانت عدا ذلك مدينة لرأسمالية العالم القديم بما ينوف عن الخمس مليارات دولار ؛ فلما وقعت الحرب العامة قلبت هذا الوضع رأساً على عقب فأصبح جل صادرات هذه الولايات من البضائع المصنوعة ، وخرجت اوربا من الحرب وهي مثقلة بالديون للرأسمالية الاميركية الفتية التي أغارت على أسواقها

(١) كان الاميركيون يتبجحون كثيراً بسلامتهم من الميول الاستعمارية ولكن الحقيقة كانت خلاف ذلك — والرأسمالية والاستعمار أمران متلازمان — فالرأسمالية الاميركية وكانت حديثة عهد بالحياة لم تكتف حتى بما توفر لديها من ميادين الاستثمار في اميركا الشمالية فحملت على اميركا الجنوبية والوسطى وعلى جزر المحيط الهادي وأعلنت كل هذه المنطقة ميداناً خاصاً لاستثمارها (قاعدة منرو) ، على ان استعمارها كان استعماراً اقتصادياً خفياً لا يستهدف ضم الممتلكات وكان بعيداً عن أعين شعوب العالم القديم فبقي مجهولا لديها وجعلها تعتقد أن اميركا الرأسمالية تختلف عن اوربا الرأسمالية وهو اعتقاد باطل

وراحت تحتلها بسرعة ، وحملت الى ميادين الاستثمار في العالم القديم كميات هائلة من رؤوس الاموال حتى ضاقت الرأسمالية الاوربية ذرعاً بهذا المنافس الجديد[١] . وكان الشرق الادنى في مقدمة البلدان التي اجتذبت رؤوس الاموال الاميركية فأسس أحد المصارف الاميركية[٢] سنة ١٩٢٠ فرعاً له في الاستانة وراح يدعو الرأسمالية الاميركية الى الاغارة على هذه الناحية من الكرة الارضية فاصدر كراسة[٣] عن توسع المصالح الاقتصادية الاميركية في الشرق الادنى جاء فيها :

« لم يكن لتجارة الولايات المتحدة قبل الحرب العامة أثر »
« يذكر في الحياة الاقتصادية في استانبول فلم تكن ترى »
« سفينة رافعة العلم الاميركي الا نادراً . اما اليوم فانك »
« تشاهد ما لا يقل عن أربع أو خمس سفن بحرية راسية »
« في القرن الذهبي في كل آن . وفي استانبول الآن »
« فروع ثابتة لحوالي الاثني عشر شركة اميركية ، ويمثل »
« الوكلاء التجاريون فيها كثيراً من الشركات الاخرى . »

« ان مستقبل واردات وصادرات موانئ البحر الابيض »
« المتوسط وبحر مرمرة والبحر الاسود من الولايات »

---

(١) Earle ص ٢٣٧ — ٢٣٨ و Denny ص ٤ — ٨

(٢) The Guarantee Trust Company of New York ، وهو من أكبر مصارف الولايات المتحدة

(٣) Trading With The Near East-Present Conditions and Future Prospects

« المتحدة والبها ستبلغ من السعة حداً غير قابل للتصور . »
« فان جميع البلاد المحيطة بهذه الموانئ تفتقر الى الاغذية »
« والمنسوجات والى كل ما يعيد اليها الحياة ، وجميع »
« جهاتها بحاجة الى الطرق والموانئ والسكك الحديدية »
« والاعمال العامة على اختلاف أنواعها . »

وكانت صادرات الولايات المتحدة قبيل القرن العشرين لا تزيد قيمتها على ٥٠٠٠٠٠ دولار فبلغت سنة ١٩١٣ ثلاثة ملايين ونصف مليون دولار ، وتضاعفت بين أول الحرب العامة ونهايتها اثني عشر مرة فبلغت ٤٢٠٢٠٠٠٠٠ دولار في سنة ١٩٢٠ وازدادت الواردات في هذه المدة من ٢٢٠١٠٠٠٠٠ دولار الى ٣٩٦٠٠٠٠٠٠ دولار[١].

وفي الوقت الذي تفتحت فيه عيون الرأسماليين الاميركيين الى الشرق الادنى وأخذوا يتطلعون الى استثمار منابعه بلغهم خبر اقتسام الانكليز والفرنسيين منابع النفط فيه — وكان الاميركيون قد استنفذوا القسم الاعظم من النفط الذي بحيازتهم وأحسوا بما أصبح لهذه المادة من القيمة وما فازت به الرأسمالية الانكليزية من التوسع على حسابهم في اميركا الوسطى والجنوبية — فغاضهم هذا النبأ فشددوا الخناق على حكومتهم حتى أجبروها على الدخول في نزاع مع الحكومة البريطانية كاد ان يؤدي الى انقطاع العلاقات بين الدولتين[٢]. وأوعزت وزارة الخارجية الاميركية الى كافة ممثليها — بعد

---

(١) Earle ص ٣٣٩
(٢) Parliamentary Papers, Cmd 675 (1921)

ان ذكرتهم بما أصبح للنفط من المكانة في الحياة الدولية الحاضرة — بلزوم الاستعلام عن كل ما يتعلق بشؤون النفط ومنابعه والامتيازات التي تمنح لاستثمارها ، وبمساعدة ومناصرة الذين يتقدمون من رعايا الولايات المتحدة (ممن يعتمد عليهم) للحصول على هـــذه الامتيازات ، على ان يميز بين الرعايا الاميركيين الذين يريدون استثمار رؤوس أموال اميركية وبين الذين يعتمدون على رؤوس الاموال الاجنبية وكذلك بين الشركات المؤلفـــة في اميركا من رؤوس أموال اميركية والشركات المؤلفة فيها معتمدة على رؤوس الاموال الاجنبية[١].

وكانت الحكومة البريطانية قد نشطت كثيراً بعــد الحرب العامة في سعيها لحيازة منابع النفط في العالم وتنظيم الحرب النفطية الخفية فعينت لجنة خاصة[٢] لشؤونه مربوطة بالوزارة مباشرة[٣] . وقد أبان السر هنريـــك ديتردنك في تقرير النفط لسنة ١٩٢٠ في هذا الصدد[٤] :

« لقد اشتد النزاع (حول النفط) بصورة خاصة بعد ان »
« ثبتت أهميته في الوقود . وكان قد تبين ان الافضل ان »
« تكون أعمال النفط غير محصورة فى مملكة واحدة بل »

---

(١) Denny ص ٢٠

(٢) The Cabinet Petroleum Imperial Policy Commission

(٣) وكان تسعون في المائة من سفن الاسطول البريطاني بعــد الحرب العامة تعتمد على النفط بدل الفحم في الوقود ، وقد كانت هــذه النسبة قبل الحرب لا تتجاوز الـ ٤٥ فى المائة

(٤) Federal Trade Commission, Report on Foreign Owner-ship in The Petroleum Industry

« مبثوثة فى كافة أنحاء العالم لكيما يكون فى الاستطاعة »
« توزيعها بمقتضى الاوضاع الجغرافية . وقد لا تكون لنا »
« حاجة لأن نذكر هنا بان الشركات الاميركية قد »
« أدركت بعد فوات الاوان انه ليس من المصلحة فى »
« شيء ان تحوز على مقادير كبيرة من النفط المستخرج فى »
« مملكتها . اما فيما يتعلق بجماعتنا فى هذا الشأن فانها »
« قد وضعت أعمالها على أساس تجهيز كل سوق من »
« النفط المستخرج فى الاماكن القريبة منه جغرافياً . »
« ونحن الآن نتمتع بالفوائد التي نجمت عن هذا التنظيم »
« النافع . على اننا ان شئنا الاحتفاظ بمكانتنا فى السوق »
« العالمي فيجب ان لا نقنع بما نلناه حتى الآن ، انما »
« يقتضي ان لا يسبقنا أحد فى الحصول على ممتلكات »
« جديدة . ولذلك فاننا مجدون فى توسيع أعمالنا وقد »
« بثثنا مهندسينا الجيولوجيين فى كل مكان فيه »
« بارقة أمل . »

وقد صرحت الحكومة الاميركية جواباً على سؤال وجه اليها من قبل ممثلي الرأسمالية الاميركية فى مجلس الشيوخ فى صدد المنافسة البريطانية ، ان سياسة الامبراطورية — على ما بلغها — تستهدف ابعاد الاجانب عن التسلط على منابع النفط فى الامبراطورية والسعي للحصول على مقدار من النفوذ فى ميادين النفط الاجنبية ، وان هذه السياسة الموجهة ضد رعايا الولايات

المتحدة بصورة خاصة تتبع السبل الآتية (١) :

(١) منع الاجانب من امتلاك وتشغيل آلات استخراج النفط في الجزر البريطانية وفي الممتلكات والاراضي المحمية .

(٢) امتلاك الحكومة البريطانية معظم أسهم شركات النفط وتولي ادارتها رأساً .

(٣) اتخاذ التدابير للحيلولة دون بيع شركات النفط البريطانية ما تمتلكه من ميادين ووسائل استخراج النفط الى الشركات الاجنبية او الى الشركات التي تكون تحت السيطرة الاجنبية .

(٤) اصدار مراسيم تمنع انتقال أسهم شركات النفط البريطانية الى غير الرعايا البريطانيين .

وكان اعتراض الولايات المتحدة على اتفاقية سان ريمو مبنياً على انكارها مشروعية امتياز شركة النفط التركية التي تناولتها الاتفاقية (٢) واعتراضها على مخالفة الدولتين فيها لقاعدة الباب المفتوح والمساواة في اقتسام غنائم

(١) 66 th. Congress, 2 nd. Session, Senate Document No. 272
عن Denny ص ٤٤

(٢) وكانت الحكومة الاميركية تدعي ان لا فرق بين الموافقة المبدئية التي استحصلتها شركة النفط التركية قبل الحرب العامة وبين الوعد الذي حصل عليه المستر شستر فيما يتعلق بمنحه الامتياز . وكان المستر شستر قد استحصل موافقة حكومة انقرة في ١٠ نيسان ١٩٢٣ على منحه امتياز مد السكك الحديدية في بلاد الاناضول وشمال العراق الى الموصل والسليمانية وحق استخراج المعادن وكذلك النفط في منطقة عرضها عشرون كيلومتر تمتد على جانبي الخط ، وبهذا استحصل حق استخراج النفط في الاراضي التي اعتبرت في امتياز شركة النفط التركية داخلة في حدود منطقة هذه الشركة

الحرب العامة من قبل الدول المعظمة الفائزة . وفي ٢٠ تشرين الثاني سنة ١٩٢٠ أرسل المستر كولبي [١] ، وزير خارجية الولايات المتحدة ، مذكرة الى وزارة الخارجية البريطانية أبان فيها اعتراض حكومته على اتفاقية سان ريمو لمخالفتها نصوص الانتداب التي اشترطت اتباع سياسة الباب المفتوح والنظر بعين المساواة لمصالح الدول المختلفة الداخلة في العصبة وفسح المجال لرعاياها من دون تمييز ؛ وقد ادعت الحكومة الاميركية أيضاً ان بريطانية قد ناقضت في بنود هذه الاتفاقية وعودها بصيانة خيرات العراق لينتفع منها أهل البلاد والحكومة الوطنية المراد تأسيسها ؛ واحتجت على تجاهل انكلترة مصالح الولايات المتحدة التي لها في البلاد المنتدب عليها مثل ما لبقية دول الحلفاء ، واعترضت في الاخير على اعتبار بريطانية امتياز شركة النفط التركية مشروعاً بينما هو بخلاف ذلك حسبما ترى [٢].

---

(١) كتاب المستر كولبي الى اللورد كرزن في ٢٠ تشرين الثاني سنة ١٩٢٠ (Cmd 97, 1921)

(٢) كانت شركة النفط التركية تدعى في الاصل بـ شركة الامتيازات الافريقية والشرقية (African and Eastern Concessions Limited) وقد ألفت في ٣١ كانون الثاني سنة ١٩١١ ، ثم غيرت اسمها الى « شركة النفط التركية المحدودة » في ٢٣ تشرين الثاني سنة ١٩١٢ . وقد كان الغرض من تأليف هذه الشركة كما جاء في نظامها الداخلي (Memorandam of Association of Irrq Petroleum Company Limited) ان تقوم بالمفاوضة والتعاقد واتخاذ التدابير مع الاشخاص والشركات والمؤسسات والحكومات والسلطات التي لها الحق بمنح أو نقل الامتيازات وغير ذلك مما يسمح للشركة او الشركات التي تؤلفها لغرض القيام باعمال التحري والانشاء وامتلاك الاراضي في أية جهة من جهات الكرة الارضية بقصد الزراعة والتعدين والمتاجرة ، وكان لها الحق كذلك بتأسيس الشركات في انكلترة وفي غيرها من الممالك للقيام بالاعمال

وقد تأخر جواب الحكومة الانكليزية على هذا الكتاب الى ٢٨ شباط سنة ١٩٢١ . فقد كانت الحكومة البريطانية تدرك ان الذي تريده حكومة الولايات من كل هذه الاعتراضات والاحتجاجات والدفاع عن حقوق الشعب العراقي هو ان تحصل على نصيبها من غنيمة النفط ، وعلى ذلك فتحت معها باب المفاوضات والمساومات السرية وأوفدت السر جون كادمن في ربيع سنة ١٩٢٢ فنجح في تهدئة العاصفة وعقد هدنة نفطية بين الحكومتين ريثما يتم الاتفاق على اقتسام الغنيمة . وقد استمرت هذه المفاوضات السرية الى مابعد صدور قرار العصبة في كانون الاول سنة ١٩٢٥ بضم الموصل الى العراق وتوقيع تركية على معاهدة تعيين الحدود العراقية التركية في حزيران سنة ١٩٢٦ وتنازلها عن بعض حقوقها في نفط الموصل مقابل استلامها مبلغ مليونين ونصف مليون دولار ، وانتهت في نيسان سنة ١٩٢٦ بموافقة انكلترة على

التي الفت من أجلها هذه الشركة الخ ...

وكان مبلغ رأسمالها عند تأليفها ٥٠٠،٠٠٠ ليرة انكليزية فبلغ :

٨٠٠،٠٠٠	ليرة انكليزية	في	٢٥	ايلول	سنة	١٩١٢
١٦٠٠،٠٠٠	»	»	٣	نيسان	»	١٩١٤
١٠،٠٠٠،٠٠٠	»	»	٢٥	تشرين الثاني	»	١٩٢٥
٢٠،٠٠٠،٠٠٠	»	»	٤	آذار	»	١٩٢٧
٣٠،٠٠٠،٠٠٠	»	»	١٢	تشرين الاول	»	١٩٢٨
٤٠،٠٠٠،٠٠٠	»	»	٢٨	تشرين الثاني	»	١٩٢٩
٤٠،٤٠٠،٠٠٠	»	»	٢٦	آذار	»	١٩٣١
٥٠،٠٠٠،٠٠٠	»	»	١٨	حزيران	»	١٩٣١
٥٠،١٠٠،٠٠٠	»	»	١٧	آذار	»	١٩٣٢
٥٠،٨٠٠،٠٠٠	»	»	١٧	تشرين الثاني	»	١٩٣٢
٦٠،٥٠٠،٠٠٠	»	»	١٤	تشرين الثاني	»	١٩٣٣

ان يكون للشركات الاميركية خمس وعشرون في المائة من أسهم شركة النفط التركية[١] . وقد حفظت نسبة حصتي فرنسة واميركة بعد ذلك الى ٢٣٫٧٥ في المائة وثم الى ٢١٫٢٥ في المائة . وغير هذا التوزيع بعد ذلك فاخذت شركة النفط الفارسية عشرة في المائة وكولبنكيان خمسة في المائة من مجموع الاسهم ، ووزع الباقي بصورة متساوية بين الفرنسيين والاميركيين وشركة شل وشركة النفط الانكليزية الفارسية فاصاب كل فريق ٢١٫٢٥ في المائة من المجموع . ولما كانت شركة شل وشركة النفط الانكليزية الفارسية انكليزيتين فقد كان مجموع حصة بريطانية في شركة النفط التركية ٥٢٫٥٠ في المائة من المجموع فضمنت لنفسها بذلك السيطرة على هذه الشركة[٢] . وقد غير هذا الترتيب في سنة ١٩٢٨ فقد عقد مجلس الشركة اجتماعاً فوق العادة بتاريخ ١٥ و ٣٠ آب ١٩٢٨ في مركز الشركة بلندن ، قرر فيه المصادقة على نظام الشركة الجديد الذي وضع بمقتضى اتفاقية عقدت في هذه السنة بين الشركات المساهمة . وقد نص هذا النظام

---

(١) Political Science Quarterly, June 1924 و American Oil Interests in Mesopotamia, Foreign Policy Association, Information Service No. 6 of May 1926

اما الشركات الاميركية التي اقتسمت الحصة الاميركية فهي :

Standard Oil Co. of New York
Standard Oil Co. of New Jersey
Pan American Petroleum and Transport Co.
The Gulf Refinery Co.
The Atlantic Refinery Co.

(٢) Denny ص ١٠٦ — ١٠٧

بأن تكون الشركة محدودة ، وان يجري نقل الاسهم بمقتضى اتفاقية سنة ١٩٢٨ ، وان تنحصر الاسهم بالشركات المساهمة فلا تعرض على الجمهور .

وقد وزعت الحصص بموجب النظام الجديد على الوجه الآتي :

لجماعة دارسي (١) لشركة النفط الانكليزية	٤٧٥٠،٠٠٠ حصة أي بنسبة	٢٤،٢٥ في المائة
السكسونية (٢)	٤٧٥٠،٠٠٠ « « «	٢٣،٧٥ « «
لشركة النفط الفرنسية (٣)	٤٧٥٠،٠٠٠ « « «	٢٣،٧٥ « «
لشركة استثمار الشرق الادنى (٤)	٤٧٥٠،٠٠٠ « « «	٢٣،٧٥ « «
لشركة التعاون والاستثمار (٥)	١٠٠،٠٠٠ « « «	٥ « «

واشترط ان يحتفظ بهذه النسبة كلما زاد عدد الاسهم .

وكان مجلس ادارة الشركة وتألف في سنة ١٩٢٨ من :

السر جون كادمن (مدير شركة النفط الانكليزية الفارسية) والسر جون بولك لويد عن جماعة دارسي .

والسر هنري وهلم اوغست ديتردنك (مدير شركة شل الهولندية

---

(١) D'arcy Exploration Company Limited وتمثل شركة النفط الانكليزية الفارسية

(٢) The Anglo-Saxon Petroleum Company Limited وهي تمثل شركة شل أيضا

(٣) Compagnie Francaise des Pétroles وتمثل الشركات الفرنسية

(٤) The Near East Exploration Company وتمثل الشركات الاميركية

(٥) Participations and Investments Limited وهي تمثل حصة كولبنكيان

الملكية) والمستر اندرو انيو عن شركة النفط الانكليزية السكسونية .

والمسيو ارنست ميرسيه والمسيو روبرت كيرول عن شركة النفط الفرنسية .

والمستر هاري جورج سيدل والمستر مونتاكو بييس عن شركة استثمار الشرق الادنى .

وكولبنكيان عن شركة التعاون والاستثمار .

وجعفر باشا العسكري عن الحكومة العراقية (١) .

على ان هذه الاتفاقيات لم تنه مشاكل النفط لأن كل فريق من المتنازعين انما رضي مرغماً بهذا الحل ، فلم يمض غير اليسير من الوقت حتى نشب الخلاف بين الانكليز والفرنسيين حول أنابيب النفط المراد مدها الى سواحل البحر الابيض المتوسط ، فقد رغبت بريطانية فى ان تمتد هذه الانابيب جنوباً وتقطع حدود العراق الى فلسطين لتمر من الاراضي الخاضعة للنفوذ الانكليزي ، وذلك على سبيل الاحتياط فى حالة وقوع الحرب بين الدولتين . اما فرنسة فاصرت على ان تتبع الانابيب الطريق الذي اتفق عليه . ثياً فى سان ريمو أي ان تمتد غرباً الى حدود سورية ، وبذلك يكون المنفذ البحري لها في بلد خاضع للسيطرة الفرنسية ؛ وكان المنتظر أيضاً ان تصحب الانابيب سكة حديد تربط العراق بالبحر الابيض المتوسط ، فاذا مرت الانابيب بمنطقة النفوذ الفرنسي مرت السكة كذلك ، وهو أمر

---

(١) Memorandam and Articles of Association of Iraq Petroleum Company Limited, Reprinted October, 1928. Bischoff, Coxe, Bischoff and Thomson, 4, Great Winchester Streat, E. C. 2.

لا يخلو من الفائدة لفرنسة (١) . وقد كان هذا الخلاف سبباً في توقف أعمال الشركة وتجشمها كثيراً من الاضرار والخسائر . وقد تم الاتفاق بعـــد مفاوضات طويلة على ان يتشعب الخط في « حديثه » (بعد ان يمر بالطريق الذي اختاروه) الى شعبتين الاولى تتجه غرباً فتقطع الحدود السورية بالقرب من « البوكمال » وتنتهي بطرابلس الشام ، والثانية تستمر في طريقها نحو الرطبة الى حدود فلسطين فتمر بام الجمال وتنتهي بحيفا .

اما الاميركيون فلم يرغبوا كثيراً في الاشتراك بشركة النفط التركية بعد ان أصبحت تحت سيطرة الانكليز الذين قرر ان يكون لهم أكثر من

---

(١) وكانت الحكومة البريطانية قد تعهدت في اتفاقية سان ريمو فيما يتعلق بالانابيب والسكة بان تعضد الحكومة الفرنسية فيما تتخـذه من التدابير للحصول على حاجتها من نفط شركة النفط الانكليزية الفارسية الى حد ٢٥ في المائة من الكمية المستخرجة التي تنقل من ايران الى البحر الابيض المتوسط بانابيب تمر من الاراضي الخاضعة للانتداب الفرنسي وبشروط تتفق عليها الحكومة الفرنسية وشركة النفط الانكليزية الفارسية . وعلى هذا وافقت الحكومة الفرنسية على ان تسمح — عند الطلب — بانشاء انبوبين وسكتي حديد (لغرض انشاء وحماية الانبوبين ونقل النفط المستخرج من العراق وايران) تمر بمنطقة النفوذ الفرنسي وتنتهي على البحر الابيض المتوسط في ميناء واحـد أو أكثر تختاره الحكومتان بالاتفاق

وتعهدت فرنسة في حالة مرور هذه الانابيب والسكك في منطقة نفوذها ان تهيء لها جميع التسهيلات كحق المرور بلا رسوم ، على ان يعوض أصحاب الاراضي التي تشغلها هذه الاعمال . وتعهدت أيضاً ان تهيء جميع التسهيلات في الموانيء المراد جعلها نهاية لهذه الخطوط على البحر الابيض المتوسـط فيما يتعلق باستملاك الاراضي لانشاء المستودعات والخطوط الحديدية والمصافي والارصفة وغير ذلك مما له علاقة باعمال الشحن ؛ على ان يكون النفط المنقول بهذه الوسائط ، وكذلك مواد الانشاء اللازمة لمد الانابيب وانشاء السكك والمصافي والتأسيسات الاخرى ، معفية من جميع رسوم التصدير والمرور . (عن Federal Trade Commission في Denny ص ١٦٠ — ١٦١)

نصف الاسهم فيها ، لاسيا وان النفط المراد استخراجه موجود في بلاد خاضعة للنفوذ الانكليزي . الا انه لما كان امتياز الشركة التركية قد اشترط فيه ان تختار هذه الشركة أربع وعشرون قطعة لاستخراج النفط فيها وان تعرض الحكومة العراقية الباقي للبيع على الراغبين من غير تعيين ، فقد كان أمل الاميركيين ان يتنازلوا الانكليز عند عرض هذه القطع للبيع فيستقلوا بما يصلح لهم منها ؛ ولكن الانكليز حرموهم من هذه الفائدة أيضاً بتعديل الامتياز كما سترى . وقد أحس الاميركيون بنوايا الانكليز في هذا الشأن منذ سنة ١٩٢٨ لما بلغهم ان الحكومة الانكليزية أخذت تشدد الخناق على حكومة العراق بواسطة السر آدم رتشي[١] لتأجيل عرض القطع الآنفة الذكر للبيع ، وبلغهم كذلك ان الانكليز قد اتفقوا سراً مع الفرنسيين بان يوحدوا جبهتهم ضد الاميركيين لشراء هذه القطع ، الى ان انتهى الامر أخيراً بتعديل المادة المتعلقة بالقطع وتعيين منطقة خاصة بشركة النفط العراقية ومنح امتياز استخراج النفط في المناطق الاخرى الى شركة استثمار النفط البريطانية كما سنأتي على بيانه[٢].

* * *

اما شركة النفط التركية فقد فتحت باب المفاوضات مع الحكومة العراقية في أثناء الخلاف الذي نشأ حول الموصل لتستفيد من الارتباك الذي حل بحكومة العراق لخوفها على ضياع هذه الولاية[٣] . فتم الاتفاق بين الكاتبن

(١) Sir Adam Ritchie

(٢) Denny ص ١٦١ — ١٦٢

(٣) ومع ان أهمية الموصل للانكليز لا تقل عن أهميتها للعراق فقد استغلوا هذه

كيلنك[١]، ممثل الشركة ، وبين الحكومة العراقية فى ١٤ آذار سنة ١٩٢٥ على منح الامتياز . وقد طالبت الصحف العراقية يومئـذ بانتظار انعقاد المجلس النيابي لتعرض الاتفاقية عليه قبل ان يبت فيها نهائياً ، غير ان الوزارة العراقيـة[٢] لم تلتفت الى ذلك فانهت الامر مع الشركة قبل ان يقرر مصير الموصل بحجة ان منحها الامتياز يؤيد موقف العراق أمام الاتراك فى المطالبة بهذه الولاية[٣]. وكانت الحكومة التركية قد وافقت على منح المستر شستر امتيازاً تناول منطقتي الموصل والسليمانية[٤] بقصد اضعاف موقف العراق والانكليز فاتخذت الحكومة العراقية من هذا ذريعة لتعجيل الموافقة على منح امتياز شركة النفط التركية محتجة بمقابلة عمل الاتراك بمثله . وقد اعترض وزيرا العدلية والمعارف (الشيخ رضا الشبيبي ورشيد عالي بك الكيلاني) على تسرع الوزارة في مصادقة هذه المقاولة التي حرمت العراق حتى من الحقوق الممنوحة له بموجب اتفاقية « سان ريمو » التي وافقت فيها فرنسة وانكلترة على ان يكون للحكومة العراقية والعراقيين — اذا تولت استخراج النفط جهة ثالثة — حق شراء عشرين بالمائة من الاسهم ، واستقلال

القضية لابتزاز ما أرادوا ان يبتزوه من العراق — بالرغم من ان النهاية لم تكن لتخفى على المطلعين على مصالح الانكليز فى الموصل من الوجهتين الدفاعية والاقتصادية وعلى وضع عصبة الامم وسيطرة الدول المعظمة — ولاسيما بريطانية — على شؤونها واتخاذها وسيلة جديدة من وسائل الاستعمار واقتسام البلدان

(١) Captain E. H. Keeling

(٢) وكانت برئاسة يسن باشا الهاشمي

(٣) ولا يستبعد ان تكون القضية مدبرة مقدماً

(٤) راجع الحاشية (٢) فى ص ١٩٢

الوزيران على الاثر[١].

وقد منحت الشركة بموجب مقاولة سنة ١٩٢٥[٢] حقاً محصوراً بها دون غيرها « في البحث والتحري عن زيت البترول والنفط والغازات الطبيعية والاوزوكروات والحفر تطلباً لهذه المواد وكذلك حق استخراجها واعدادها للتجارة وأخذها من أماكنها وبيعها هي وما يستخرج منها من المنتوجات » على ان تراعى في ذلك أحكام المادة السادسة التي نصت بان « تقوم الحكومة في ظرف أربع سنوات على الأكثر من تاريخ هذه المقاولة ثم سنوياً بعد ذلك بانتقاء ما لا يقل عن ٢٤ بقعة مستطيلة مساحة كل منها ٨ أميال مربعة وتعرض الحكومة هذه البقع للمزايدة السرية على جميع الشركات والمحلات التجارية والأفراد من ذوي المسؤولية ممن يرغبون في الالتزام ان يبينوا أي بقع يجب عرضها من ضمن الاربع والعشرين بقعة المبحوث عنها (غير تلك المنتقاة بموجب المادة الخامسة من هذه المقاولة) وتعرض هذه البقع من قبل الحكومة للمزايدة على هذه الصورة . وعلى الشركة ان تعطي جميع راغبي الامتياز ما لديها من المعلومات الجيولوجية فيما يتعلق بالبقع المعروضة للمزايدة الخ » اما المادة الخامسة فقد اشترطت ان تنتقي الشركة « خلال اثنين وثلاثين شهراً من تاريخ هذه المقاولة ٢٤ بقعة مستطيلة من الارض

---

(١) American Oil Interests in Mesopotamia. F P. A. May 1926

(٢) شركة النفط العراقية المحدودة — مقاولة مؤرخة ١٤ آذار ١٩٢٥ منعقدة بين شركة النفط التركية المحدودة والحكومة العراقية والتعديلات التي اجريت فيها حسب الاتفاق المؤرخ ٢٤ آذار ١٩٣١ المعقود بين شركة النفط العراقية المحدودة والحكومة العراقية . مطبعة الحكومة — بغداد (١٩٣١)

مساحة كل منها (٨) أميال مربعة وان تشرع في أعمال الحفر في هذه البقع في ظرف ثلاث سنوات من تاريخ هذه المقاولة مستعملة بصورة مستمرة ستة أجهزة حفر على الاقل وفي حالة عدم امتثال هذا الشرط تصبح هذه المقاولة ملغاة وباطلة بتمامها . »(١)

وجعلت مدة المقاولة (٧٥) سنة ابتداءً من تاريخ عقدها على ان يصبح جميع ما للشركة في العراق « من الاراضي والابنية والآبار والارصفة والطرقات وخطوط الانابيب والسكك الحديدية والمكائن والادوات وغير ذلك من وسائل العمل الثابتة على اختلاف أنواعها المستعملة في أعمال الشركة المنصوص عليها » في المقاولة ملكاً للحكومة بدون مقابل(٢). وسمح للشركة بالقيام باعمال الحفر في جميع أراضي العراق عدا الاراضي المحولة والجهة المعروفة سابقاً بولاية البصرة والمقابر والاماكن المستعملة للعبادة الدينية وأماكن الآثار القديمة كما هي محددة في قانون الآثار القديمة لسنة ١٩٢٤ على ان تعين منطقة الشركة بالضبط بعد انتهاء مشكلة الموصل وتعيين حدود العراق(٣).

وتعهدت الشركة في المادة الثامنة « ان ترسم خرائط صحيحة وواضحة لجميع الآبار والانشاءات والاعمال وتحفظها في ما لها من مركز (مكتب) أو أكثر من مراكز العمل في العراق وان تقدم على نفقتها الخاصة الى الحكومة ما يأتي : (أ) تقريراً عن أعمالها يقدم في خلال ستة شهور من

---

(١) شركة النفط العراقية . مقاولة ٤ آذار سنة ١٩٢٥ المادة الـ ١ والـ ٦ والـ ٥

(٢) المادة الـ ٢ . مقاولة سنة ١٩٢٥

(٣) المادة الـ ٣ . مقاولة سنة ١٩٢٥

نهاية كل سنة و (ب) بياناً عما بلغته الحفريات في كل بئر يقدم في خلال ثلاثين يوماً من نهاية كل شهر و (ج) نسخاً لا تتجاوز الست من جميع التقارير الجيولوجية والخرائط الجيولوجية التي يعدها موظفوا الشركة تقدم في خلال ثلاثين يوماً من إكمالها و (د) نسخاً لا تتجاوز الست من سائر أنواع الخرائط التي يعدها موظفوا الشركة مما قد تطلبه الحكومة ضمن المعقول تقدم في خلال ثلاثين يوماً من تلقي طلب تحريري بذلك من الحكومة ولممثل الحكومة الرسمي حق الاطلاع في جميع الاوقات المعقولة على جميع الخرائط الجيولوجية غير المطبوعة . » واشترط على الحكومة العراقية ان تعتبر هذه الخرائط والتقارير سرية .

وعينت حصة الحكومة العراقيــة لقاء هذه الحقوق الممتازة الممنوحة للشركة في كل طن (بعد ان يسقط من المجموع غير الصافي : جميع المياه والمواد الغريبة ، وجميع ما يوزع من البترول بموجب المادة الـ ١٧ من المقاولة[١] ، وجميع ما تستعمله الشركة ضمن العراق من المواد لأجل أعمالها المنصوص عليها في هذه المقاولة) على الوجه الآتي[٢] :

(١) الى حين مرور ٢٠ سنة على انجاز مد أنابيب الى أحد الموانئ لأجل

---

(١) وقد نصت المادة الـ ١٧ بان الشركة اذا منعت « أحد سكان الاراضي المعينة من أخذ البترول او حالت دون أخذه إياه من جهة قد تعود أخذ البترول منها مجاناً او لقاء دفع رسم الحكومة فقط فعليها ان تقدم له مجاناً من أحواضها شهرياً او كل ثلاثة أشهر لاجل الاستهلاك محلياً مقداراً من النفط يساوي معدل ما تعود أخذه شهرياً او كل ثلاثة أشهر على الوجه الآنف الذكر خلال السنتين اللتين سبقتا ذلك المنع او هذه الحيلولة »

(٢) المادة الـ ١٠ . مقاولة سنة ١٩٢٥

التصدير الى الخارج بحراً يكون مقدار الحصة أربعة شلينات (ذهب) عن كل طن .

(٢) عن كل عشر سنوات تعقب المدة المذكورة أعلاه يزداد مقدار الحصة البالغ أربعة شلنات (ذهب) او يخفض — حسبما تكون الحال — بمقدار الزيادة او النقصان بالمائة في الارباح او الخسائر في خلال مدة الخمس سنوات السابقة .

(٣) واشترط على الشركة أيضاً ان تدفع حصة قدرها بنسان عن كل الف قدم مكعب من كل ما تبيعه من الغاز الطبيعي محسوباً تحت ضغط جو واحد مطلق وعلى حرارة ستين درجة فارنهيت .

واشترط أيضاً ان تدفع الحصة المستحقة عند نهاية كل سنة تقويمية في ظرف ثلاثة أشهر من نهاية كل سنة .

ونصت المادة الرابعة عشر من هذه المقاولة بان يكون للحكومة العراقية الحق في ان تطلب الى الشركة (أ) ان تستخرج لها ٤٠،٠٠٠ طن من البترول سنوياً لسنتين متعاقبتين و (ب) ان تقوم بتصفية ما هو ضروري من البترول والكيروسين وزيت الوقود لسد احتياجات العراق من الـ ٤٠،٠٠٠ طن الآنفة الذكر وعلى مقربة من أحد الخطوط الحديدية و (ج) ان لا تصدر النفط الى الخارج الا بعد ان تكون احتياجات العراق منه قد سدت . و (د) ان تخزن وتحفظ من منتوجات النفط المصفاة لأجل الحكومة من قبيل الاحتياط في الاماكن التي تعينها الحكومة كمية لا تقل عن ضعفي ما تستهلكه الحكومة شهرياً على ان تقوم الحكومة بالنفقات

الاضافية التي تكبدتها الشركة لذلك الغرض .

ونصت المادة الخامسة عشر من المقاولة بان يكون الثمن الذي يباع به النفط لسد احتياجات العراق قبل انجاز مد الانابيب الى البحر الابيض المتوسط أقل من ثمن البيع في الجملة في سوانسي بنسبة ٣٥ في المائة ، وان لا يتجاوز بعد انجاز مد الانابيب ثمن البيع بالجملة في سوانسي بعد طرح الفرق بين نفقة نقل البترول الخام من رأس بئر الشركة الى سوانسي ونفقة نقله الى معمل التصفية في العراق . واشترط ان يباع البترول وأدنى أصناف الكيروسين الى العامة بالجملة (لسد احتياجات العراق) في مخزن ببغداد بثمن لا يتجاوز مجموع الثمن المعين بموجب هذه المادة تضاف اليه اجرة النقل بالسكك الحديدية من محل التصفية وآنة واحدة عن كل غالون من البترول و (٩) بايات عن كل غالون من الكيروسين ؛ وان يكون للحكومة الحق في أي وقت كان بعد الشروع في تصدير البترول الى الخارج بواسطة الانابيب في ان تستملك بثمن يتفق عليه او يعين بموجب المادة (٤٠)[1] من هذه المقاولة الابنية والمكائن والمعامل المستعملة لأجل تصفية احتياجات العراق وعرضها في الاسواق وان تشتري من الشركة ما يلزم من البترول

---

(١) وقد نصت المادة (٤٠) بوجوب إحالة ما يحدث بين الحكومة والشركة من شك او خلاف او نزاع حول تفسير او تنفيذ مواد هذه المقاولة او متعلقاتها او بحقوق ومسؤوليات أحد الفريقين المتعاقدين — في حالة عدم الاتفاق على حسمه — الى حكمين اثنين ينتخب كل من الفريقين واحداً منهما ورئيس ينتخبه هذان الحكمان قبل ان يشرعا في التحكيم ، وفي حالة عدم اتفاق الحكمين على الرئيس فيعين الرئيس بين الحكومة والشركة وفي حالة عدم اتفاقهما يطلب الى رئيس محكمة العدل الدولية الدائمة ان يعين الرئيس المذكور ؛ ويكون قرار الحكمين وقرار الرئيس في حالة اختلافهما نهائياً

الخام لأجل استخراج احتياجات العراق بادنى ثمن تبيع به الشركة البترول الخام بعد طرح الفرق بين نفقة نقله من رأس البئر الى محل البيع ونفقة نقله الى معمل التصفية .

وقد اجيز للشركة — في المادة العشرون من هذه المقاولة — ان تنشيء وتشغل ضمن البقع المنتقاة بموجب المادة ٥ او المادة ٦ وضمن معامل التصفية العائدة الى الشركة مراكز لتوليد القوة الكهربائية ومعامل ومستودعات لخزن الوسائل ومستودعات للتصدير ومخازن وما يلزم من السكك الحديدية لأجل أعمالها ، واجيز لها أيضاً مد سكك حديدية لا يزيد عرضها على القدمين وست عقدات لربط مراكز أعمالها بالسكك الحديدية او احدى وسائل النقل المنظمة الاخرى في العراق وكذلك انشاء السكك الحديدية في المنطقة المعروفة سابقاً بولاية البصرة لعين هذا الغرض ، وان تنشيء وتشغل أيضاً من السكك الحديدية ما يلزم لأجل مد أنابيب الى أحد موانيء البحر الابيض المتوسط بعد ان تعرض الخرائط المتعلقة بذلك على الحكومة لأجل موافقتها التي لا يجوز الامساك عنها او تأجيلها بصورة غير معقولة ، على ان يكون للحكومة — اذا اقتضت المصلحة العامة — الحق في ان تشتري أية سكة حديدية يزيد عرضها على قدمين وست عقد انشئت من قبل الشركة خارج منطقة البقع المعينة لها بثمن يتفق عليه او يعين بموجب المادة الـ ٤٠ من هذه المقاولة ، وللشركة أيضاً ان تحفر الآبار والمناجم والخنادق وان تنشيء السداد والمنازح ومجاري الماء وان تنصب وتبني وتمد وتقيم معامل ومكائن وأحواضاً وخزانات ومصافي وخطوط أنابيب ومراكز مضخات ودواوين ومنازل

وأبنية وأرصفة وغير ذلك من أسباب تسهيل النقل في أطراف خطوط المواصلات ومراكب ووسائل نقل ومعابر وجسور وغير ذلك من الانشاءات مما يتراءى للشركة انه ضروري للقيام باعمالها ، على ان تعرض خرائط هذه الاعمال على الحكومة للحصول على موافقتها . التي لا يجوز الامساك عنها امساكاً غير معقول ولا ان يتأخر البت في أمرها تأخراً غير معقول أو أكثر من ثلاثين يوماً فيما يخص المعابر أو الجسور .

ونصت المادة الثامنة والعشرون من المقاولة بان يعفى من رسوم الكمارك جميع مواد الانشاء التي تستوردها الشركة من الخارج للقيام بالاعمال التي مر ذكرها فى المادة العشرين وكذلك ما تصدره الى الخارج من المواد المشتملة عليها المادة الاولى من المقاولة وجميع المواد المستوردة مجاناً بشرط ان تخرج بنفس الطريق التي أتت به .

ونصت المادة التاسعة والعشرون بان يكون مستخدموا الشركة فى العراق من رعايا الحكومة ما عدا المديرين والمهندسين والكيماويين والحفارين وملاحظي العمال والميكانيكيين وغيرهم من العمال الفنيين والكتبة الذين يجوز استقدامهم من خارج العراق اذا لم يمكن ايجاد الاشخاص الاكفاء في العراق ، على انه اشترط ان تقوم الشركة بقدر ما يمكن عملياً ضمن المعقول و باقرب ما يمكن من الوقت بتدريب العراقيين فى هذه الاعمال .

ونصت المادة الثانية والثلاثون من هذه المقاولة بان تكون الشركة شركة بريطانية مسجلة فى بريطانية العظمى وان تبقى كذلك وان يكون مركز أعمالها الرئيسي ضمن ممالك صاحب الجلالة البريطانية وان يكون

مجلس ادارتها دائماً من الرعايا البريطانيين .

ونصت المادة الخامسة والثلاثون على ان يكون للحكومة حق تعيين مدير واحد الى مجلس مديري الشركة يتمتع بنفس ما يتمتع به المديرون الآخرون من الحقوق والامتيازات ويتقاضى عين الراتب والمخصصات من الشركة .

ومع ان المجال لا يسع هنا لمناقشة مواد هذه المقاولة غير ان في الاستطاعة القول انها لا تختلف بوجه عام عن المقاولات التي أملتها الرأسمالية تحت ضل الاستعمار في كل مكان ؛ ولكن الذي يلفت النظر بصورة خاصة ويصح ان يتخذ كقاعدة من قواعد الرأسمالية الانكليزية المستعمرة ان الشركة قصرت في القيام بما يترتب عليها بموجب هذه المقاولة بالرغم مما أصاب العراق فيها من غبن فاحش[1] ، (وقد نجم هذا التقصير — على مايظهر — عن الخلاف الذي نشأ بين الانكليز والفرنسيين حول طريق الانابيب المراد نقل النفط بواسطتها الى البحر الابيض المتوسط[2]) فحق للحكومة العراقية ان تعتبر الامتياز مفسوخاً وتأخذ مبلغ الضمان المودوع لديها بموجب المادة

---

(١) راجع ص ٢٠١ — ٢٠٢ . فقد منحت الشركة بموجب المادة الخامسة من هذه المقاولة حق اختيار أربع وعشرون قطعة — كما هو مبين في هذه المادة — على ان يتم هذا الانتخاب قبل تشرين الثاني سنة ١٩٢٧ ، وان تبدأ باستخراج النفط قبل آذار سنة ١٩٢٨ وتحفر بين آذار هذا وآذار سنة ١٩٣١ من الآبار ما يبلغ مجموع عمقها ستة وثلاثين الف قدم تضاف اليها كل سنة مائة وعشرون الف قدم الى ان يتم الحفر في القطع التي اختارتها أو يتم انشاء أنابيب النفط الى ساحل البحر الابيض المتوسط . وفي حالة عدم قيامها بهذه التعهدات فيعتبر العقد مفسوخاً ، الا اذا كان التأخير لأسباب قهرية

(٢) راجع ص ١٩٧

السادسة والثلاثين من هذه المقاولة[1] ؛ ولكن الشركة المقصرة والتي سميت ابتداءً من ٨ حزيران سنة ١٩٢٩ بـ « شركة النفط العراقية المحدودة[2] » استطاعت — بعد ان تم الاتفاق بين الانكليز والفرنسيين في اتفاقية سنة ١٩٢٨ واعيد وضع نظام الشركة بموجب هذه الاتفاقية ووزعت الاسهم من جديد[3] — بالرغم من ذلك ان ترغم الحكومة العراقية في الظروف التي عقدت فيها معاهدة ١٩٣١ على وضع مقاولة جديدة (في ٢٤ آذار سنة ١٩٣١[4]) عدل فيها الكثير من مواد المقاولة السابقة حسبما اقتضته مصلحة الشركة[5] ، ولم تنل حكومة العراق فيه غير ما حصلت عليه من

---

(١) فقد نصت هذه المادة بان « تودع الشركة لدى الحكومة من قبيل التأمين بعد أربعة أشهر من تاريخ هذه المقاولة على الاكثر سندات من سندات الحكومة البريطانية التي تدفع الى حامله بقيمة ٣٥٠٠٠٠ ليرة انكليزية وتعاد هذه السندات الى الشركة عندما تكون قد صرفت ٧٠٠٠٠٠ ليرة انكليزية على مايتم فى العراق من العمليات بموجب هذه المقاولة ولكن يجب ان تخسر هذه السندات وتستولي عليها الحكومة فى حالة فسخ هذه المقاولة بموجب المادة (٤) أو المادة (٥) منها وقبل إعادة هذه السندات أو فقدانها على النحو الآنف الذكر سيستحق دفع فائدة عنها الى الشركة واذا عجزت الشركة عن ايداع التأمين فى خلال التاريخ المذكور أعلاه فيمكن للحكومة ان تفسخ هذه المقاولة . »

(٢) Memorandum and Articles of Association of Iraq Petroleum Company, Limited

(٣) راجع ص ١٩٥ — ١٩٦

(٤) شركة النفط العراقية المحدودة . (١٩٣١) وكذلك : الوقائع العراقية ، العدد ٩٨٢ ، ١٩ مايس ١٩٣١

(٥) من عادة الاستعمار الانكليزي والرأسمالية الانكليزية من ورائه — كما يظهر في أكثر من موضع واحد فى هذا الكتاب — ان لا يفاجئ من يتعاقد معه لامتصاص دمه باشد الشروط بل ان يظهر السخاء والتسامح فى أول الامر ثم يغتنم كل فرصة لتعديل المقاولات أو المعاهدات أو الاتفاقيات المعقودة فيبتز في كل جديد منها شيئاً جديداً حتى

السلفات بموجب المادة العاشرة الجديدة (١٩٣١) لتلافي العجز الذي أخذ يتوالى ظهوره في ميزانياتها المتعاقبة [1] . وقد تبين الآن ان هذا المبلغ الذي

يحقق ما يبغيه من النهب والسلب وهذا يظهر جلياً في جميع الاتفاقيات مع الاستعمار البريطاني اذ لا يمكن ان يجد المرء — لو أمعن النظر — اتفاقية جديدة الا ويراها أشد ويلا من سابقتها

(١) راجع المادة الـ ١٠ من المقاولة القديمة ، ص ٢٠٣ — ٢٠٤ . اما المادة العاشرة الجديدة فقد اشترطت على الشركة « ان تدفع الى الحكومة لقاء الامتيازات الممنوحة لها في هذه المقاولة أربعمائة الف ليرة انكليزية ذهباً على ان لا يتأخر الدفع عن ٢٣ نيسان ١٩٣١ وان تدفع مثل هذا المبلغ في اليوم الاول من شهر كانون الثاني في كل سنة من السنين التالية على ان تتم الدفعة الاخيرة في اليوم الاول من شهر كانون الثاني الذي يسبق تواً تاريخ الشروع في اصدار المواد الوارد ذكرها في المادة الاولى من هذه المقاولة من شاطىء البحر المتوسط بصورة منتظمة »

وكذلك : « تتعهد الشركة بانه لمدة عشرين سنة ابتداء من اليوم الاول من شهر كانون الثاني الذي يعقب تاريخ الشروع في اصدار النفط بصورة منتظمة من شاطىء البحر المتوسط لا يقل المبلغ السنوي المدفوع الى الحكومة على حساب حصتها عن أربعمائة الف ليرة انكليزية ذهباً على ان يدفع هذا المبلغ في اليوم الاول من شهر كانون الثاني فوراً على الوجه المار ذكره وبعد ذلك في اليوم الاول من شهر كانون الثاني في كل سنة ، ويشترط في هذا دائماً :

أولا — ان تباع في مصادر النفط في المنطقة المحدودة انتاج كمية لا تقل عن ٢،٠٠٠،٠٠٠ طن في خلال السنة التي يستحق دفع الحصص عنها وانه بالمساعي المعقولة التي تبذلها الشركة يمكن تسليم هذه الكمية في شاطىء البحر الابيض المتوسط بواسطة مجموعة خطوط أنابيب الشركة الموجودة غير ان هذا الشرط لا يسري على السنة التي يتم فيها الشروع في الاصدار المنتظم

ثانياً — تسترد الشركة بلا فائدة في خلال سني المقاولة التاليات من المبلغ السنوي البالغ أربعمائة الف ليرة انكليزية المذكورة في الفقرة الاولى من هذه المادة ٢٠٠،٠٠٠ ليرة انكليزية أو مبلغ نقص حصص استحقاق في السنة السابقة عن ٢٠٠،٠٠٠ ليرة انكليزية على ان يتم ذلك بحسم مبالغ من حصة تؤخذ من كل مبلغ يزيد على حصة مقدارها ٤٠٠،٠٠٠ ليرة انكليزية تستحق للحكومة في كل سنة تالية من سني المقاولة ولا يمكن

تستلمه الحكومة من الشركة في كل سنة — والذي ادعت أول الامر بانها ستخصصه للقيام بالمشاريع المثمرة ولكنها ما فتئت حتى الآن تستنفذه في تسوية الخلل الذي يطرأ على ماليتها وسد الخروق التي تحدث في هذا النظام — كان من أقوى مفسدات هذا الوضع السيء وأشد مشجع لسياسة التبذير والاهمال في الشؤون المالية والاقتصادية في هذه المملكة .

ومن جملة التعديلات التي وضعت لصالح الشركة في مقاولة ١٩٣١ الاستعاضة عن اختيار الشركة ٢٤ قطعة كما جاء في المادة الخامسة من مقاولة ١٩٢٥[1] بتعيين منطقة تشتمل على « جميع الاراضي الواقعة في ولايتي بغداد والموصل والتي تحدها ضفة نهر دجلة الشرقية والحدود العراقية التركية والحدود العراقية الفارسية » على ان يستثنى منها « المنطقة التي تشملها أحكام الاتفاق المؤرخ ٣٠ آب ١٩٢٥ المعقود بين الحكومة وبين شركة النفط الانكليزية الفارسية المحدودة[2] . » وبهذا أصبح للشركة الحق المطلق في استثمار أغنى منطقة في العراق ، وكان الانكليز وقد سبروا غور جميع أراضي النفط قد

استرداد المبلغ بغير هذه الطريقة

ثالثاً — في كل سنة تقويمية اذا جاءت الحصة المستحقة على الشركة من مجموعة الطنات وفقاً للفقرة الاولى في هذه المادة أقل من ٤٠٠,٠٠٠ ليرة انكليزية فالفرق بين الحصة من مجموعة الطنات المستحقة على الشركة وبين مبلغ الاربعمائة الف ليرة انكليزية تسترده الشركة حينئذ بلا فائدة في سني المقاولة التالية بحسمه من المبلغ الذي يزيد على أربعمائة الف ليرة انكليزية من الحصة التي تستحق للحكومة في كل سنة تالية من سني المقاولة ولا يمكن استرداد الفرق بغير هذه الطريقة . »

(١) راجع ص ٢٠١ — ٢٠٢

(٢) المادة الثالثة ، مقاولة ٢٤ آذار سنة ١٩٣١

اكتشفوا ان النفط الموجود في المناطق الاخرى ليس من النوع الجيد[1].

ووضعت مادة جديدة بدلاً من المادة السادسة المتعلقة بعرض القطع للبيع[2] توجب على الشركة القيام بمد مجموعة خطوط أنابيب لا يقل مجموع

---

(١) وقد كان الانكليز منذ دخولهم العراق يتحرون عن النفط في العراق ويكتبون عنه التقارير كما يتبين من التقارير التالية :

Geological Reports by Dr. E. H. Pascoe

No. 1. Report on The Prospects of obtaining oil in The Jabal Hamrin and Jabal Makhul between Tikrit and Sharqat. December, 1918

No. 2. Odd notes on The country between Tikrit and The Jabal Hamrin and Jabal Makhul. December, 1918

No. 3. Oil Prospects in Jabal Khanuqa S. E. of Sharqat. December, 1918

No. 4. Oil Prospects in Jabal Qaiyara. January, 1919

No. 5. Oil Prospects in Jabal Mishraq. January, 1919

No. 6. Oil Prospects in Mosul-Quwair. February, 1919

No. 8. Oil Prospects. Quwair dome. February 1919

No. 9. Oil in Kirkuk anticline. February, 1919

No. 10. Taza-Khurmati-Tauq. March, 1919

No. 11. Oil Prospects in Naft Dagh, and Kifri coal. March, 1919

No. 12. » » Kani Qadir and Gil. March, 1919

No. 13. » » Jabal Gilabat. April, 1919

No. 14. » » Jabal Hamrin between Qara Tappa and Table Mountain. April, 1919

No. 15. Final Summary Report April, 1919

Geological Notes on Mesopotamia With Special reference to occurrence of Petroleum. by. Dr. E. H. Pascoe. Memoire of The Geological Survey of India, Xlviii. Calcutta, 1922

(٢) راجع ص ٢٠١

كميات النفط التي تستوعبها عن ثلاثة ملايين طن في السنة ؛ وتجيز لها ان تؤلف شركة خاصة لمد هذه الانابيب وصيانتها وتشغيلها . وتشترط ان تمتد خطوط الانابيب من أي نقطة كانت واقعة في المنطقة المحدودة الى أي نقطة كانت واقعــة على نهر الفرات بين الحديثة وهيت ينشأ منها « جذع مجموعة واحدة لخطوط أنابيب بطريق الرطبة أو بجوارها تمتد الى نقطة انتهاء واقعة في خليـج عكا . » وقد جعلت الشركة في هذه المادة « حرة في انشاء جذع مجموعة خطوط أنابيب اخرى من تلك النقطة الواقعة على نهر الفرات الى نقطة انتهاء اخرى واقعة على البحر المتوسط . » ، على ان ينقل « ما لا يقل عن خمسين في المائة من الكمية التي تستوعبها مجموعة خطوط الانابيب كلها الى نقطة انتهاء واقعة في خليج عكا الى ان يبلغ التفريغ كله في نقطة الانتهاء هذه أربعة ملايين طن في السنة على الاقل[1] » . واشترطت ان لا يتأخر اكمال انشاء الانابيب عن ٣١ كانون الاول سنة ١٩٣٥ .

واستعيض بالمادة الثامنة من مقاولة ١٩٢٥ التي اشترطت على الشركة تقديم التقارير والخرائط الخ ...[2] بمادة مختصرة اكتفت بالزام الشركة بان ترفع « على نفقتها الى الحكومة في خلال ستة أشهر بعد ختام كل سنة تقريراً يبحث في أعمالها على ان تعتبر الحكومة هذه التقارير سرية » وخولت « موظف حكومي مفوض على الاصول حق الاطلاع في جميع الاوقات المناسبة على التقارير والتصميمات والسجلات الجيولوجية التي تحتفظ

(١) راجع ص ١٩٧ — ١٩٨

(٢) راجع ص ٢٠٢ — ٢٠٣

بها الشركة في العراق » .

واستعيض عن المادة الرابعة عشر من مقاولة ١٩٢٥[1] بمادة جديدة تخلصت الشركة فيها من تعهدات المادة السابقة واستعاضت عنها في ان تتعهد « (أ) باتخاذ التدابير لكي يجهز ويباع بصورة عامة في العراق كله بنزين ونفط أبيض (أبو القلق) ونفط وقود من صنوف رائجة جيدة وبالكميات المقتضية » للاستهلاك المحلي في داخل العراق و « (ب) باتخاذ التدابير لادخار كميات احتياطية للحكومة » في الموضع أو المواضع التي تطلبها وعلى نفقتها ، على ان لا تقل عن ضعفي معدل استهلاكها الشهري من المنتوجات المصفاة ؛ واشترطت أيضاً ان لا تصدر الشركة النفط قبل سد احتياجات الحكومة . واجيز للشركة ان تؤلف شركة بيع للقيام بالتعهدات المذكورة على ان تتمتع بجميع الحقوق والامتيازات التي تتمتع بها الشركة الاصلية[2] .

---

(١) راجع ص ٢٠٤

(٢) وقد الفت شركة نفط الرافدين بمقتضى هذه المادة للقيام ببيع النفط داخل العراق ، ولما كانت الروابط وثيقة بين شركة النفط الانكليزية الفارسية وشركة النفط العراقية فان هذه الشركة الجديدة أخذت تبتاع النفط من شركة نفط خانقين ، التي هي فرع لشركة النفط الانكليزية الفارسية ، لتبيعه على حسابها من دون ان تدفع عنه ضريبة الدخل (راجع المادة الـ ٥ والمادة الـ ٢٧ وصورة كتاب رقم ١١٥٥ مؤرخ ٢٤ آذار ١٩٣١ من نوري باشا السعيد رئيس الوزراء الى المستر ج . سكايروس وكيل المدير العام لشركة النفط العراقية المحدودة الذي اعفيت الشركة بموجبه من الضرائب لقاء دفعها مبلغ ٩٠٠٠٠ ليرة انكليزية في ١ كانون الثاني ١٩٣٢ وفي كل ١ كانون الثاني يلي ذلك على ان تتم الدفعة الاخيرة في ١ كانون الثاني الذي يسبق تواً تاريخ البدء بالاصدار المنتظم . و ٦٠٠٠٠ ليرة انكليزية ذهباً عن الاربعة ملايين طن الاولى و ٢٠٠٠٠ ليرة انكليزية ذهباً عن كل مليون طن تال وبمراعاة هذه النسبة في ١ كانون الثاني الذي يلي تاريخ البدء بالاصدار المنتظم .)

واستعيض عن المادة الخامسة عشر في مقاولة ١٩٢٥ بمادة جديدة يستطيع القارئ ان يرى مدى الغبن الذي أصاب العراق بها بمقارنتها بالمادة الاصلية[١] ؛ فقد نصت هـذه المادة بانه « الى ١٤ آذار سنة ١٩٥٥ يكون سعر البيع بالجملة (ولا يدخل فيه أي ضرائب أو رسوم أو مكوس حكومية أو محلية مفروضة على منتوجات النفط) للكميات المفروضة برسم البيع لسد احتياجات العراق في مستودعات يجري الاتفاق عليها مع الحكومة معادلاً من حين لآخر بالعملة العراقية لما يلي على ان يراعى في ذلك التبدلات الآتي بيانها في هذه المقاولة :

١٠٫٦٨ بنس سعر كل غالون امبراطوري من البنزين .

٨٫٠٠ بنسات سعر كل غالون امبراطوري من النفط الابيض (أبو القلق) .

٢٫٢٥ بنس سعر كل غالون امبراطوري من نفط الوقود

(البنس يساوي ١/٢٤٠ من الليرة الانكليزية الذهب) » .

واشترط ان يتم تعيين الاسعار العراقية بعد ١٤ آذار سنة ١٩٥٥ « على وجه يتقرر باتفاق آخر يتم عقده بين الشركة وبين الحكومة » .

وعدلت المادة العشرون من مقاولة ١٩٢٥ بتبديل أكثر فقراتها ومن جملتها الفقرة (ج) التي استبدلت بما يلي[٢] : « للشركة ان تنشئ وتشغل سكة حديدية من أجل هذه المقاولة على كل التخطيط الممتد من المنطقة

---

(١) راجع ص ٢٠٥

(٢) راجع ص ٢٠٦ — ٢٠٧

المحدودة بطريق هيت الى خليج عكا أو على أي قسم كان منه بشرط ان ترفع تصميات أي قسم كان من هذا الخط في داخل العراق الى الحكومة للموافقة عليها على ان لا تمسك الحكومة عن موافقتها بلا سبب وجيه و بشرط ان لا يشرع في انشاء السكة الحديدية المذكورة في شرق الفرات وفي خارج المنطقة المحدودة قبل ٣١ كانون الاول ١٩٣٥ ما لم توافق الحكومة على الشروع في الانشاء قبل ذلك التاريخ وبشرط ان لا يشرع كذلك في الانشاء في غرب الفرات قبل ٣١ كانون الاول ١٩٤٠ » .

واضيف الى المادة الثانية والعشرون فقرة جديدة اشترطت على الحكومة ان تمنع « رسو السفن بالقرب من خطوط أنابيب الشركة الممتدة تحت الماء في معابر الانهر » فزادت بذلك واجبات الحكومة تجاه الشركة دون مقابل .

واضيف الى المادة السادسة والعشرون فقرة جديدة منحت الشركة فيها الحق في « ان تستعمل للأعمال التي تقوم بها وفقاً لهذه المقاولة جميع وسائط النقل البري أو المائي أو الجوي لحركة مستخدميها أو لنقل موادها الخ » .

واضيف الى المادة الثامنة والعشرون[1] فقرة جديدة اشترط فيها على الحكومة ان تسمح « بمرور المواد المقتضية لانشاء وصيانة وتشغيل خطوط الانابيب عبر حدود العراق وبتفتيش هذه المواد تفتيشاً كمركياً في نقاط تنتقيها الشركة على ان تمهل الحكومة مدة مناسبة فيما يتعلق بهذا الانتقاء . ولا يجوز ان تقطع المواد المذكورة الحدود الا بمرورها فى تلك النقاط أو فى الطرق التجارية المعروفة . وعلى الحكومة ان تبقي المواقع الكمركية مفتوحة

(١) راجع ص ٢٠٧

في كل نقطة من هذه النقاط ليلاً ونهاراً وفي أيام العطلات الرسمية ما دامت الشركة طالبة ذلك . وتتعهد الشركة ببناء وصيانة جميع المباني الخاصة المقتضية لذلك وان تدفع الى الحكومة بالاتفاق مع الحكومة رواتب موظفي الكمارك الاضافيين وغير ذلك من النفقات التي تتكبدها الحكومة من جراء قيامها بعهودها وفقاً لأحكام هذه المادة » .

واضيف الى المادة التاسعة والعشرون[1] فقرة جديدة جاء فيها : انه « في أثناء القيام باعمال انشاء أو ترميم بصورة خاصة اذ تدعو الحاجة الى انجاز مقادير كبيرة من العمل بصورة موقتة ، على الحكومة ان تمنح التسهيلات الخاصة لنقل مستخدمي الشركة وعجلاتها وموادها بلا قيد ولا شرط ليلاً ونهاراً في نقاط حدود يتفق عليها . وتمنح الحكومة دائماً هذه التسهيلات لنقل موظفي الشركة ومستخدميها وموادها في نقاط الحدود المتفق عليها كما انها تنظر بعين العطف الى الوسائل المتقابلة في هذا الباب مما قد تتفق عليه الشركة مع حكومات البلدان المجاورة وان أمكن تتخذ الحكومة هذه الوسائل » .

واضيف الى المادة الثلاثين الفقرة التالية : « للشركة في خلال مدد الانشاء ان تتخذ بالاتفاق والتعاون مع الحكومة وسائل الحماية الخاصة التي يتراءى لها ضرورة اتخاذها . وعلى الحكومة ان تمنع انشاء الابنية وضرب الخيام أو غير ذلك من البيوت لسكنى الناس في المناطق التي قد تعلن الشركة انها مناطق خطرة من جراء الاعمال التي تقوم بها وفقاً للمادة ١ من هذه المقاولة » .

---

(١) راجع ص ٢٠٧

ويرى القارئ ان كل هذه الفقرات التي اضيفت الى مقاولة ١٩٢٥ قد فرضت على الحكومة القيام بواجبات جديدة ومنحت الشركة حقوقاً جديدة من دون مقابل ، ويلاحظ أيضاً ان البعض منها لا يخلو من المساس بما للعراق من السيادة الاسمية .

ويظهر ان الطليان الذين حرموا من غنيمة النفط في العراق والالمان بعد ان استعادوا مكانتهم الدولية أخذوا يطالبون بحقوقهم في هذه المكاسب فادت مطالبتهم هذه الى تأليف « شركة استثمار النفط البريطانية المحدودة » التي منحوا أكثرية الاسهم فيها . وقد تم الاتفاق[1] في ٢٠ نيسان سنة ١٩٣٢ بين الحكومة العراقية وهذه الشركة على ان يكون لها عين الحقوق التي منحت لشركة النفط العراقية في المادة الاولى من مقاولة سنة ١٩٢٥[2] « في جميع الاراضي العراقية الواقعة في الجانب الغربي من نهر دجلة وفي الجانب الشمالي من عرض ٣٣ درجة شمالاً[3] » — وهي المنطقة التي تنازلت عنها شركة النفط العراقية بموجب مقاولة ١٤ آذار سنة ١٩٣١[4] — وذلك لمدة خمس وسبعين سنة ابتداءً من تاريخ الاتفاق[5] . والاتفاقية شبيهة باتفاقية شركة النفط العراقية في موادها العامة ، غير ان التساهل مع هذه الشركة لم يبلغ الدرجة التي بلغها مع شركة النفط العراقية بالنظر الى ان أكثرية

(١) شركة استثمار النفط البريطانية المحدودة . الاتفاقية المنعقدة مع الحكومة العراقية في ٢٠ نيسان سنة ١٩٣٢ . مطبعة الحكومة ، بغداد . (١٩٣٢)

(٢) المادة الاولى من مقاولة شركة استثمار النفط البريطانية لسنة ١٩٣٢

(٣) المادة الثالثة من مقاولة شركة استثمار النفط البريطانية لسنة ١٩٣٢

(٤) المادة الاولى والثالثة من هذه المقاولة . و ص ٢١١ من هذا الكتاب

(٥) المادة الثانية من هذه المقاولة

أسهمها غير بريطانية . وقد تعهدت هذه الشركة في المادة العاشرة من مقاولة ١٩٣٢ « ان تدفع الى الحكومة المبالغ التالية بمنزلة بدل ايجار مطلق الى حين الشروع في اصدار المواد المنصوص عليها في المادة الاولى اصداراً منتظماً : —

في أول كانون الثاني سنة ١٩٣٣	١٠٠٠٠٠ ليرة انكليزية (ذهباً)	
« « « « « ١٩٣٤	١٢٥٠٠٠ « « «	
« « « « « ١٩٣٥	١٥٠٠٠٠ « « «	
« « « « « ١٩٣٦	١٧٥٠٠٠ « « «	
« « « « « ١٩٣٧		
وفي كل سنة تالية	٢٠٠٠٠٠ « « «	

« وتدفع الدفعة الاخيرة من بدل الايجار المطلق في اليوم الاول من كانون الثاني الذي يسبق تواً تاريخ الشروع في الاصدار المنتظم و بعد تاريخ الشروع في الاصدار المنتظم تسترد الشركة بلا فائدة قسماً متناسباً من بدل الايجار المطلق المدفوع أو المستحق دفعه في أول كانون الثاني الذي يسبق تواً تاريخ الشروع في الاصدار المنتظم وهذا القسم المتناسب هو نسبة المدة بين تاريخ الشروع في الاصدار المنتظم وبين أول كانون الثاني التالي الى ٣٦٥ يوماً . على ان يتم هذا الاسترداد بتقاسيط تقطع من الريع بشرط ان يكون ذلك من الزيادة على ريع ٢٠٠٠٠٠ ليرة انكليزية (ذهباً) يستحق للحكومة في كل سنة تالية أو سنين تالية من مدة الاتفاق ولا يجوز استرداد ذلك المبلغ بغير هذه الطريقة » .

ونصت المادة الحادية والعشرون على نفس ما جاء في المادة العاشرة من

مقاولة شركة النفط العراقية الا فيما يتعلق بالفرق بين المبالغ المستحقة على الشركتين والكميات التي الزمت كل شركة باستخراجها سنوياً (١).

وقد تنازلت الحكومة في المادة السابعة من هذه المقاولة عن « آبار القيارة وجميع المعدات والابنية المبنية والمستعملة في هذا الصدد في تاريخ هذا الاتفاق التي هي ملك للحكومة » . ونصت المادة الثانية عشر على انه « (١) يحق للحكومة ان تأخذ مجاناً من فم البئر عشرين في المائة من كل النفط الذي تستخرجه الشركة وتحتفظ به على ان لا يدفع ريع عن كمية العشرين في المائة هذه . ويحق للحكومة دائماً بعد ان تبني وتقتني مصفاة ان تأخذ كل كمية العشرين فى المائة أو جزءاً منها عيناً على ان تراعي فى هذا أحكام الفقرة ٢ من هذه المادة . اما الجزء الذي لا يؤخذ عيناً فتبيعه الحكومة الى الشركة وتشتريه الشركة باسعار يتم تحقيقها على قاعدة يتفق عليها بين الشركة و بين الحكومة » . وانه « (٢) يجوز للحكومة دائماً ان تنذر الشركة بانها ستأخذ عيناً كل كمية العشرين فى المائة المذكورة أو جزءاً معيناً منها و بعد انقضاء اثني عشر شهراً من تاريخ الانذار على الشركة ان تسلم الى الحكومة الكمية المطلوبة فى فم البئر اذا كانت الحكومة قد اقتنت مصفاة أو أكملت انشاء مصفاة وان تستمر الشركة على تسليم ذلك الى ان تلغي الحكومة هذا التدبير أو تغيره وذلك بانذار مكتوب مدته اثنى عشر شهراً بشرط ان لا يجوز الغاء هذا التدبير أو تغييره قبل العمل به مدة ثلاث سنوات على الاقل » و « (٣) على الشركة ان تسلم الى الحكومة مجاناً فى فم البئر فى القيارة الكمية

---

(١) المادة الـ ٢١ من اتفاقية شركة استثمار النفط البريطانية لسنة ١٩٣٣ ص ٤

التي تطلبها الحكومة الى حين الشروع فى الاصدار المنتظم والمشار اليها فى المادة ٦ من هذا الاتفاق بشرط ان لا تزيد الكمية المأخوذة على هذا الوجه فى سنة من السنين على ثلاثة آلاف طن من النفط أو من مستخرجاته الصالحة لانشاء الطرق »[١] .

وأعفت المادة السابعة والعشرون من هذه الاتفاقية الشركة من جميع الضرائب على اختلاف أنواعها سواء أكانت أميرية أو بلدية من تاريخ الاتفاقية ، والمترتبة على « رأس مال الشركة وآبارها ومعداتها وآلاتها وأبنيتها (ما عدا البيوت والمكاتب فى داخل حدود البلديات) وأرباحها (ما عدا الارباح الناتجة عن نقل النفط غير المستنبط من المنطقة المحدودة) وعلى المواد المنصوص عليها فى المادة (١) من هذا الاتفاق قبل نقلها من الارض أو بعده وعلى العمليات الفنية المستعملة فيما يتعلق بالمواد الآنفة الذكر » على ان « تدفع (فضلاً عن المدة المعينة لدفع الريع وفى خلال هذه المدة) مبلغاً مبنياً على النفط الذي يستحق أخذ الريع عنه فى السنة السابقة محسوباً على الوجه التالي على ان تتم الدفعة الاولى عن سنة الشروع فى الاصدار المنتظم :

١٥،٠٠٠ ليرة انكليزية (ذهباً) عن كل مليون طن الى أربعة ملايين طن مع مراعاة هذه النسبة .

٢٠،٠٠٠ ليرة انكليزية (ذهباً) عن كل مليون طن تال مع مراعاة هذه النسبة » .

(١) وهذا أهم ما تختلف به اتفاقية شركة استثمار النفط البريطانية عن مقاولة شركة النفط العراقية

ومنحت الشركة بمقتضى المادة الثامنة والعشرون من الاتفاقية حق استيراد جميع المواد التي تحتاج اليها فى القيام باعمالها وانشاء المكاتب والبيوت فى داخل المنطقة أو بجوار خطوط الانابيب والمصافى من دون ان تدفع عنها الرسوم الكمركية .

واشترط فى المادة الثانية والثلاثين ان تكون « الشركة بريطانية وتظل بريطانية مسجلة فى بريطانية العظمى ومقر أشغالها فىداخل ممتلكات صاحب الجلالة البريطانية ورئيسها دائماً من الرعايا البريطانيين » ومع كل هذا فان الانكليز لم يتنازلوا عن هذه المنطقة هذا التنازل الاسمي الا بعد ان تأكدوا — على ما يظهر — ان النفط الموجود فيها ليس من النوع الجيد الذي يدر الارباح الطائلة اذ قد تبين الآن ان نفط هذه المنطقة كثيف يحتاج الى اعادة عملية التصفية عدة مرات ولا يجري فى الانابيب ولذلك فقد شرعت هذه الشركة تفاوض الحكومة بشأن مد سكة حديد ترتبط بالخطوط الحديدية التي تتصل بالبحر الابيض المتوسط لكي يتسنى لها نقل النفط فى القاطرات بدلاً من الانابيب . وهي تجد الآن مقاومة من الحكومة البريطانية وان كان من المتوقع نجاحها فى الحصول على هذه الموافقة بالنظر الى ان هذا الاتصال لم يعد خطراً من الوجهة الحربية لوجود المطارات البريطانية المستحكمة فى داخل العراق ؛ على ان الانكليز لابد وان يذهبوا فى الاحتياط الى أقصى حدوده ليبعدوا عن طرق المواصلات الامبراطورية كل خطر[1] .

---

(١) وقد نوهت أكثر الصحف العراقية بهذه المفاوضات في أعدادها التي صدرت في العشرة أيام الاخيرة من شهر حزيران سنة ١٩٣٥ . ولم تعد هذه الشركة تنتظر أرباحا كأرباح شركة النفط العراقية بعد ان ثبت الآن ان النفط فى منطقتها من النوع الرديء

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان المقاولات التي تعقد بين الشركات وبين الحكومة العراقية يلتفت فيها قبل كل شيء الى تأمين مصلحة الامبراطورية كما يظهر من المادة التي وضعت في مقاولة شركة النفط العراقية وفي اتفاقية شركة استثمار النفط البريطانية ونصت بان تكون الشركة انكليزية مسجلة في بريطانية ومركزها الرئيسي في داخل الامبراطورية وان يكون رئيسها انكليزي دائماً [١].

اما الشركة الثالثة التي تستثمر منابع النفط في العراق فهي شركة نفط خانقين ؛ وهي فرع لشركة النفط الانكليزية الفارسية ، آلت في العراق للاستثمار بموجب البروتوكول المؤرخ ٤ — ١٧ تشرين الثاني سنة ١٩١٣ الملحق باتفاقية تعيين الحدود التركية الفارسية [٢] وفيه اعترف الباب العالي بان يكون « (أ) الامتياز [٣] نافذ ومعمول به في الاراضي المحولة وان الحق الممنوح في المادة الاولى من الاتفاقية [٤] يكون انحصاراً مطلقاً للحقوق الممنوحة به في جميع انحاء الاراضي المحولة ولا يمنح أي شخص أو شركة أو مؤسسة كانت أي امتياز من هذا النوع مما يسبب ضرراً لامتياز شركة النفط الانكليزية

(١) راجع المادة الـ ٣٢ من مقاولة شركة النفط العراقية والمادة الـ ٣٢ من اتفاقية شركة استثمار النفط البريطانية المحدودة

(٢) Anglo-Persian Oil Co. Limited (Protocol. Annex (B) of The Turco-Persian Frontier Agreement of 4th –17th November, 1913, Signed by The Foreign Minister of The Imperial Ottoman Government and The Ambassadors of Great Britain, Russia and Persia, in Constantinople

(٣) امتياز دارسي

(٤) اتفاقية امتياز دارسي

الفارسية المحدودة أو إجحافاً بحقوقها » . وان (ب) « جميع الحقوق والميزات والاعفاءات وغيرها من الفوائد الممنوحة الى شركة النفط الانكليزية – الفارسية المحدودة من قبل حكومة ايران وفقاً للاتفاقية أو التي تتمتع بها فعلاً الآن يجب ان تكون محترمة ومعتبرة من قبل الباب العالي في الاراضي المحولة طبقاً لأحكام الاتفاقية . الخ » .

وقد الفت هذه الشركة بموجب مقاولة ٣٠ آب ١٩٢٥ التي نصت المادة الاولى منها بان « على الشركة [1] ان تؤلف بخلال ثلاثة أشهر من تاريخ هذه المقاولة شركة فرعية لأجل استحصال واستثمار المواد المذكورة في المادة الاولى من امتياز دارسي – بمقتضى أحكام امتياز دارسي والملحق المرفق به – وذلك في المنطقة المعروفة في الملحق بـ (الاراضي المحولة) . »
وقد عقدت مقاولة اخرى مع هذه الشركة بتاريخ ٢٤ أيار ١٩٢٦ نصت المادة الاولى منها بان على الشركة لقاء الحقوق الممتازة الممنوحة لها بموجب المقاولة ان تدفع للحكومة حصة عن كل طن من المواد المذكورة في المادة الاولى من امتياز دارسي – ما عدا الغاز الطبيعي – مما تستخرجه من الاراضي المحولة وتخزنه في الاحواض والصهاريج « الا انه فيما يخص الغرض المقصود من هذه المادة للشركة الحق بان تسقط من المجموع غير الصافي للكمية المستخرجة والمخزونة على نحو ما يأتي ذكره .

(أ) جميع المياه والمواد الغريبة .

(ب) جميع ما تستعمله الشركة ضمن العراق من المواد لأجل أعمالها .

---

(١) شركة النفط الانكليزية الفارسية

تعين حصة الحكومة على الطريقة الآتي بيانها :

(١) الى حين مرور ٢٠ سنة على انجاز مد خط أنابيب من الاراضي المحولة الى أحد الموانئ لأجل التصدير الى الخارج بحراً يكون مقدار الحصة أربع شلنات .

(٢) عن كل عشر سنوات تعقب المدة المذكورة أعلاه يزداد مقدار الحصة أو يخفض — حسبما تكون الحال — بمقدار الزيادة أو النقصان بالمائة في الارباح أو الخسائر في خلال مدة الخمس سنوات السابقة الخ . » على ان يكون الحد الاصغر للحصة شلنين اثنين (ذهباً) والحد الاعظم ستة شلنات (ذهباً) » .

واشترط على الشركة في المادة الخامسة (أ) بان تبيع « منتوجاتها في العراق بأثمان لا تزيد على الأثمان التي تبيع بها شركة النفط التركية المحدودة منتوجاتها في العراق على الاسس المتفق عليها بين الحكومة العراقية وشركة النفط التركية المحدودة وفقاً للقاعدة المنصوص عليها في اتفاقية شركة النفط التركية المؤرخة في ١٤ آذار سنة ١٩٢٥ » و (ب) بانه « الى ان تتعين هذه الاثمان من قبل شركة النفط التركية توافق الشركة على ان ترتب مع الحكومة العراقية أثماناً أساسية في مصفى الاراضي المحولة لا تزيد على الاثمان التي ستتعين بموجب تلك القاعدة » و (ج) « اذا طلبت الحكومة على الشركة ألا تصدر نفطاً (بترولیوم) من الاراضي المحولة الى ان تتأمن احتياجات العراق على شرط ان تكون الشركة في حل من قيد هذه المادة اذا ظهر فيما بعد شخص أو شركة اخرى في العراق قادرين على تأمين

احتياجات العراق أو طلبت منها الحكومة ذلك » و (د) « تتعهد الشركة بان تخزن وتحفظ لأجل استعمال الحكومة في المكان والاماكن التي تعينها الحكومة وعلى حساب الحكومة كمية معقولة من منتوجات النفط (بترو ليوم) بقدر ما تحتاج اليه الحكومة » .

ومددت مدة الامتياز الوارد ذكرها في امتياز دارسي والملحق والمقاولة المؤرخة ٣٠ آب ١٩٢٥ الى خمس وثلاثين سنة تنتهي في ٢٧ أيار سنة ١٩٩٦[١].

وقد بلغت مجموع حصة العراق من النفط حتى نهاية سنة ١٩٣٤ حوالي ثلاثة ملايين دينار[٢] ؛ على ان الرأسمالية المستعمرة عرفت كيف تستعيد حتى هذه الحصة الضئيلة ، وهي لا تعد شيئاً يذكر بالنسبة للثروة الطائلة التي

---

(١) المادة الـ ٦ . وهذا يؤيد ما ذهبنا اليه (حاشية ٥ ص٢٠٩) من ان الرأسمالية الانكليزية لابد وان تبتز في كل مقاولة جديدة شيئاً جديداً

(٢) وفيما يلي قائمة بما أصاب العراق من حصته من النفط بين سنتي ١٩٢٧ و ١٩٣٣ :

سنة	من شركة النفط العراقية وشركة استثمار النفط البريطانية	من شركة نفط خانقين
١٩٢٧	—	٨،٠٠٠ دينار
١٩٢٨	—	١٢،٠٠٠ »
١٩٢٩	—	١٤،٠٠٠ »
١٩٣٠	—	١٥،٠٠٠ »
١٩٣١	٨٦٣،٠٠٠ دينار	٣٠،٠٠٠ »
١٩٣٢	٦٥٥،٠٠٠ »	٤٢،٠٠٠ »
١٩٣٣	٥٣٦،٠٠٠ »	٤٨،٠٠٠ »

ينتظر ان تعود به منابع النفط في العراق على الشركات[1] ، فلم يصب العراق منها غير المفاسد والاضرار الاقتصادية . وقد قال السر هنري ديتردنك — نابليون النفط — في أحد تقاريره الى لجنة النفط الملكية بصدد استثمار هذه المادة :

« ان النفط من أعظم بضائع السوق العالمي غرابة »
« اذ لا يعوق بيعه غير انتاجه . فليس في العالم بضاعة »
« اخرى تستطيع ان تضمن استهلاكها ما دمت تنتجها . »
« وما عليك في تجارة النفط غير ان تنتج أولاً ومن ثم »
« يأتيك الاستهلاك . ولن تضطر في بيع النفط الى »
« التعاقد سلفاً لأنه يبيع نفسه بنفسه . »

وهكذا أصبح النفط من أعظم محرضات الاستعمار ومن أقوى عوامل

(١) فقد ثبت ان شركات النفط تربح أرباحاً تكاد لا تصدق ، فالحكومة البريطانية مثلا استطاعت ان تسترجع في خلال العشرة سنوات الاولى من تاريخ اشتراكها في رأس مال شركة النفط الانكليزية الفارسية كل المبلغ الذي وضعته وقدره (٢٠٠١٠٠٠٠) ليرة انكليزية من مجموع (٤٠٠٠٠٠٠٠) وأرباحاً قدرها (٢٠٠٠٠٠٠٠) (The World Crisis, by Winston Churchill) . وأرباح هذه الشركة في تزايد مستمر فقد كانت في سنتي ١٩٢٢ — ١٩٢٣ و ١٩٢٣ — ١٩٢٤ (١٢٠٥٠٠٠٠٠) دولار فبلغت في سنة ١٩٢٤ — ١٩٢٥ (١٧٠٥٠٠٠٠٠) دولار وفي سنة ١٩٢٥ — ١٩٢٦ (٢١٠٥٠٠٠٠٠) دولار وفي سنة ١٩٢٦ — ١٩٢٧ (٢٣٠٠٠٠٠٠٠) ، وأرباحها مستمرة بالتزايد على هذا النحو بالرغم من الضائقة المالية ؛ اما شركة شل الهولندية الملكية فقد بلغت أرباحها في سنتي ١٩٢٤ — ١٩٢٥ (٢٤٠٠٠٠٠٠٠) ليرة انكليزية وفي سنة ١٩٢٦ (٢٦٠٨٠٠٠٠٠) ليرة انكليزية ؛ وذلك بالرغم مما تتكبده هذه الشركات من المصاريف الطائلة التي تبذلها في المغامرات والمؤامرات السياسية الظاهرة والخفية وفي المنافسة التجارية في أسواق العالم (Denny ص ١٠٣ — ١٠٤)

النزاع الرأسمالي في السلم والحرب . ومع ان الموضوع لا زال مفتقراً الى كثير من مستلزمات البحث العلمي لما يحيط به من الاسرار وما يكتنفه من الغموض والابهام الا ان القارئ يستطيع ان يلمح مما مر به في هذا الفصل آثار الجرائم التي ارتكبها الاستعمار ومن ورائه الرأسمالية في سبيل الحصول على هذه المادة العجيبة . وبالرغم من ان المأساة لم تنته بعد فقد كان لها أثر عظيم في تقرير مصير الشعوب والبلدان ومن جملتها هذا البلد الذي أصبحت خيراته الطبيعية نقمة عليه يزداد المستعمر بها قوة ويزداد بها الشعب شقاءً .

الباب الرابع

الاستعمار البريطاني في حالة الدفاع

الفصل العاشر

بوادر اليقظة في الشرق الاوسط والادنى

كان النزاع الاستعماري الرأسمالي — قبل الحرب العامة — قائماً بين روسية وانكلترة في الشرق الاوسط ؛ وبين انكلترة وفرنسة ، وانكلترة وروسية ، وانكلترة وروسية وفرنسة من جهة والمانيـة من جهة اخرى في الشرق الادنى . على ان هذا النزاع المزدوج أخذ — منذ أوائل القرن العشرين وبعد اشتداد قوة الحملة الاستعمارية الجرمنية على الشرق الادنى — ينتظم في جبهتين مسلحتين اذ سوت انكلترة اختلافاتها مع فرنسة في سنة ١٩٠٤ ومع روسية في سنة ١٩٠٧ لتدرأ عن نفسها الخطر الذي داهمها بدخول المانية ميدان الاستعمار وشروعها بتعزيز القوة البحرية . ولكن هذا التطور لم يخفف من شدة المنافسة الرأسمالية وانما أزاد المشاكل الاوربية تعقداً وساق دول الجبهتين الى التسابق في ميدان التسلح استعداداً للمعركة الفاصلة التي أصبح وقوعها أمراً لا مناص منه ؛ فلم تلبث الرأسمالية الاوربية ان رأت نفسها تخوض بحاراً من الدماء وتتطاحن في مجزرة بشرية لم يشهد لها التاريخ مثيلاً . ومع ان هذه الحرب الضروس التي دامت ما ينوف على ثمان وثلاثين شهراً لم تكن الفاصلة في النزاع الرأسمالي الاستعماري في الشرق الادنى والاوسط الا انها بدلت مجرى هذا النزاع بخروج المانية مدحورة وبانهيار عرش القيصرية الروسية وتفكك عناصر الامبراطورية النمسوية وزوال دولة آل عثمان وقد تغير وجه هذا

النزاع بعد الحرب بظهور بوادر اليقظة بين شعوب الشرق وتوثبها للقيام على الاستعمار الذي سد بوجهها سبل الحياة ؛ وقيام الشيوعية فى روسية وأخذها جانب شعوب الشرق لمناهضة الرأسمالية الاوربية المستعمرة . وسنحاول ان نتتبع فى هذا الفصل سير هذه اليقظة فى تركية وايران والافغان ومصر والهند ؛ ونأتي فى الفصل التالي على بيان سياسة روسية الشيوعية فى الشرق ليتسنى لنا الوقوف على سياسة الاستعمار الانكليزي فى الوقت الحاضر وما يتعلق من هذه السياسة بالعراق بصورة خاصة .

* * *

النهضة التركية : تورطت حكومة الدولة العثمانية بنشوب الحرب بين الجبهة الجرمنية والحلفاء فى مأزق حرج وانقسم رأي رجال السياسة فيها ؛ فرأى بعضهم ، ومنهم جاويد بك ، ان تحتفظ الدولة بالحياد وتغتنم فرصة انشغال الدول الاوربية فى الحرب فتنظم شؤونها وتقوم أحوالها وتزيل عن سيادتها ما أصابها من الخروق من جراء الامتيازات الاجنبية والرقابة المالية ، ورأوا ان هذا الحياد يؤدي الى تحسن اقتصادياتها وتوسع نطاق تجارتها فلا تنتهي الحرب الا وتكون الدولة قد بلغت من القوة درجة لا يستطيع الاوربيون معها — وقد أنهكتهم المعارك — عرقلة سيرها والتدخل فى شؤونها ؛ وادعى العسكريون — مثل أنور وطلعت وجمال — ان الشرف الوطني يفرض على الدولة أخذ جانب حليفتها المانية ، وكانوا يعتقدون ان لا سبيل لخلاص الدولة الا بانخذال دول الحلفاء ففوز الحلفاء لابد وان يؤدي الى استحواذ روسية على القسطنطينية والمضايق واستيلاء فرنسة على سورية

وانكلترة على بلاد العراق ، ورأوا ان حكومة السلطان باخذها جانب المانية تستطيع ان تنزل بالحلفاء أعظم الاضرار بسدها المضايق و بمهاجمتها قناة السويس و باعلانها الجهاد فى شمال افريقية وفى البلاد العربية والهند فتجعل من هذه الحرب وسيلة للانتقام من أعدائها الالداء وسبيلاً الى الخلاص .
ولكن الالمان أرادوا أول الامر ان تبقى الدولة العثمانية على الحياد لأن ذلك يجعل باستطاعتهم ان يستوردوا منها المواد الخام والاغذية و يتموا انشاء مشروع سكة حديد بغداد من غير ان يقطع عليهم الاسطول البريطاني سبل الاتصال بهذه البلاد التي أصبحت بقبضتهم ؛ وكانوا يعتقدون ان دخول هذه الدولة الحرب الى جانبهم يفسح المجال للاستعمار البريطاني لينشب فيها أضفاره لاسيما وهي مفتقرة كل الافتقار الى جميع وسائل التعبئة السريعة . ولكن الجبهة الجرمنية بعد انخذالها في معركة المارن وفي غاليسية أصبحت بحاجة ماسة الى معونة الدولة العثمانية فاخذ الالمان يحرضون رجالها على اعلان الحرب على الحلفاء حتى تم لهم ذلك في أوائل تشرين الثاني سنة ١٩١٤ بعد ان استوثق أنور باشا وزير الدفاع وجمال باشا وزير الحربية من ان الاستعدادات للحرب قد تمت ، واضطر المعارضون — جاويد بك وأربعة من زملائه — ان ينسحبوا من الوزارة تبرئة لذمتهم من توريط الامة في حرب اعلنت لمصلحة الاستعمار .

وبدخول الدولة العثمانية الحرب نشط الاستعماريون الالمان من جهة والانكليز من جهة اخرى الى افتراس هذا الحمل الذي ألقى بنفسه بين الذئاب . وكان الانكليز يعدون العدة للاغارة على أملاك الدولة فكان

اللورد كرو وزير الهند منشغلاً بوضع الخطط لصيانة المصالح الامبراطورية في العراق والخليج الفارسي ؛ وأعد الجنرال السر ادموند بارو — سكرتير الشؤون العسكرية لحكومة الهند — تقريراً (١) حول ما تستطيع ان تسديه حكومة الهند من الخدمات في حالة نشوب الحرب مع الدولة العثمانية ، فاقترح احتلال البصرة حالاً واتخاذها مقراً لأعمال إثارة العرب وتحريضهم على شق عصا الطاعة على الدولة . وكان المستر ونستن تشرشل — رئيس ديوان البحرية البريطانية — يدعو الى التحالف مع اليونان لمهاجمة القسطنطينية والمضايق وقد كتب مذكرة بذلك مؤرخة في ١٩ آب ١٩١٤ الى السر ادورد كري وأكمل جميع التدابير في ٤ ايلول للقيام بهذا الهجوم ، وأبرق في ٢١ ايلول الى الاميرال كاردن في مالطة ان ينسف الدارعتين العثمانيتين حالما تظهران خارج المضايق ؛ وكان المستر تشرشل يعتقد ان انخذال المانية أو فوزها يقاس بمقدار ما يكون لها من النفوذ في الشرق الادنى وان القضاء على ما لها من السيطرة في ممتلكات الدولة العثمانية يستلزم سوق حملة على العراق واخرى على سورية وثالثة على المضايق ، وان احتلال القسطنطينية معناه الفوز بالحرب (٢) . وكانت حكومة الهند قد أصدرت أوامرها خلال شهر ايلول سنة ١٩١٤ الى الفرقة الرابعة — بقيادة الجنرال ديلامين — بالسير الى

---

(١) Report of The Commission Appointed by Act of Parliament to Enquire into The Operation of War in Mesopotamia, Parliamentary Papers, 1917, No. Cd. 8610

(٢) ص ٢٢٩ – ٢٣٥ من : W. S. Churchill, The World Crisis 1910–1915

الخليج فوصلت البحرين في ٢٣ تشرين الاول وفيها علم الجنرال ان الاوامر الصادرة اليه تقضي : باحتلال عبادان لصيانة مصالح شركة النفط الانكليزية الفارسية ، وتمهيد السبيل لانزال الجنود الى البر ، وتحريض العرب على القيام ضد الدولة واحتلال البصرة ان اقتضت الضرورة (١) . وكان السر ارثر هنري مكماهون الذي أصبح معتمداً سامياً في مصر بعد اعلان الحماية عليها قد اتفق مع شريف مكة في ٢٣ تشرين الاول سنة ١٩١٤ على ان يعلن الشريف الثورة على الدولة العثمانية فتعترف بريطانية باستقلال العرب وتمدهم بالمعونة . وهكذا نرى ان الانكليز كانوا يتوثبون للانقضاض على الدولة العثمانية من غير ان ينتظروا ما سينكشف عنه موقفها فكانت في نظرهم غنيمة يجب انتهابها على كل حال (٢) .

ولم تكد الدولة العثمانية تدخل الحرب في صفوف الجرمن حتى بدأت المفاوضات السرية بين الحلفاء لاقتسام أملاكها فقد تم الاتفاق بين بريطانية وفرنسة وروسية في آذار سنة ١٩١٥ على ان تكون القسطنطينية من نصيب القيصر ، ووافقت هذه الدول في معاهدة لندن — المنعقدة في ٢٦ نيسان من تلك السنة والتي انضمت ايطالية بموجبها الى جانب الحلفاء — على ان يحفظ التوازن السياسي في البحر الابيض المتوسط بمنح ايطالية عند اقتسام أملاك الدولة العثمانية حصة معادلة لحصة بريطانية وفرنسة وروسية . واعيد النظر في ٢٦ نيسان سنة ١٩١٦ في معاهدة لندن وعقدت على أساسها

---

(١) ص ٨ : Loyalties, Mesopotamia 1914–1917, Wilson وكان السر برسي كوكس يصحب هذه الفرقة للقيام بمهمة إثارة العرب

(٢) Parliamentary Papers, 1917, No. Cd. 8610

« معاهدة زازونوف — باليولوك السرية » بين فرنسة وروسية لتعيين حصتها من البلدان العثمانية ؛ وفيها منحت روسية ولايات طربزون وارضروم وبتليس ووان ومنحت فرنسة ما يعادل حصة روسية من البلدان المحاذية لها من جهة الجنوب على ان تعين الحدود بمفاوضة بريطانية والاتفاق معها ؛ وعلى ذلك جرت المفاوضات وتم الاتفاق بين الدولتين في معاهدة سايكس — بيكو في ٩ أيار سنة ١٩١٦ ، فعين لفرنسة سواحل سورية من طور الى الاسكندرونة وولاية سيليسية وارمينية الجنوبية من سيواس في الشمال الغربي الى ديار بكر في الجنوب الشرقي ومنطقة نفوذ واسعة تضم ولايات حلب ودمشق والدير والموصل ؛ وعين لبريطانية العراق من تكريت الى الخليج الفارسي ومن حدود الصحراء العربية الى حدود ايران ومنطقة نفوذ تحاذي منطقة النفوذ الفرنسي من جهة الجنوب وتمتد بين شبه جزيرة سينا والحدود الايرانية . وبقيت المفاوضات بين بريطانية وفرنسة وايطالية جارية لتعيين حصة ايطالية من هذه الغنيمة الى ان تم الاتفاق في نيسان سنة ١٩١٧[١] على ان يكون لايطالية النصف الجنوبي من بلاد الانضول بتمامه بما فيه ولايات ادالية وقونية وازمير ومنطقة نفوذ واسعة تمتد الى الشمال من ازمير[٢] .

---

(١) St. Jean de Maurienne Agreement وقد عدلت هـذه الاتفاقية فى آب سنة ١٩١٧ بالنظر الى إصرار ايطالية على ان تكون حصتها مساوية لحصة خليفاتها

(٢) بعد ان بلغ الشيوعيون — على أثر قبضهم على زمام الحكم فى روسية — دول الحلفاء رأيهم بلزوم عقد الصلح بلا تعويض أو ضم وعلى أساس تحرير الشعوب ورفض الحلفاء هذا الاقتراح ، وكانوا ينادون في كل فرصة انهم لم يعلنوا الحرب الا لانقاذ البشرية من خطر الاستعباد الجرمني ولتحقيق الحرية وضمان الحياة الموفورة لجميع الشعوب ، نشرت الحكومة السوفيتية جميع ما كان لديها من أوراق ومستندات وزارة الخارجية

فلما تم النصر للحلفاء واضطرت الدول المغلوبة الى قبول شروط الهدنة وبوشر بمفاوضات الصلح شرعت دول الحلفاء — عدا روسية القيصرية التي زالت من الوجود — تستولي على ما أصابها من ممتلكات الدولة العثمانية بمقتضى نصوص المعاهدات السرية فاحتلت الجيوش الايطالية في نيسان سنة ١٩١٩ ولاية ادالية وما يجاورها من بلاد الانضول الى قونية ، واستولت الجيوش الفرنسية في تشرين الثاني من هذه السنة على سورية وسيليسية ، وأخذت بريطانية توطد نفوذها في العراق وبلاد العرب .

القيصرية في جريدة الازفزتيا ، وكان في جملة هذه المستندات نصوص المعاهدات السرية التي عقدت في خلال الحرب ومن أهمها : الاتفاقية المتعلقة باستانبول وبلاد ايران ، ومعاهدة لندن المنعقدة في ٢٦ نيسان ١٩١٥ ، والاتفاقية الخاصة بتوزيع أملاك الدولة العثمانية في آسية ، والاتفاقية بين الحلفاء ورومانية والمعاهدة الروسية اليابانية واتفاقية أراضي الراين . وكل هذه المعاهدات تناقض ما كان يجاهر به الحلفاء يومئذ وتثبت ان الحرب لم تعلن الا للاغراض الرأسمالية الاستعمارية ولاستغلال الشعوب واستعبادها . وقد حاول الحلفاء عبثاً تكذيب ما نشره الروس مدعين ان الشيوعيين يريدون بنشر هذه الاكاذيب إثارة الخلاف في صفوف الحلفاء وبث بذور الشقاق . وقد أعادت نشر هذه المعاهدات والاتفاقيات يومئذ جريدة « المانشستركارديان » و « الديلي هيرولد » و « نيويورب » (أو أوربة الحديثة) ونصوصها مثبتة في أكثر الكتب التي تبحث في تاريخ مؤتمر الصلح مثل :

Temperly, A History of The Peace Conference of Paris
Baker, Woodraw Wilson and The Peace Settlement

وقد جمعت في : Secret Treaties and Understandings, by S. F. Cocks.
Full Text of The Secret Treaties as Revealed at Petrograd (Newyork, The Evening Post 1918)

اما نص اتفاقية سايكس — بيكو فقد نشر لأول مرة في جريدة « المانشستركارديان » في ٨ كانون الثاني سنة ١٩١٨ واعيد نشره في مجلة « الكرنت هستري » المجلد الـ ١١ (١٩٢٠) . ونشرت اتفاقية سنت جون دي مارين في كتاب (Baker, Woodraw Wilson and The Peace Settlement) ص ٦٨ — ٧٠

ولم يبق من الدولة العثمانية في سنتي ١٩١٩ و ١٩٢٠ غير آثار ماثلة للزوال ، فقد انتهبت أملاكها وانفصلت عنها البلاد العربية واحتل الحلفاء استانبول والمضايق وأزميد واستولى اليونان على أزمير (أيار ١٩١٩) والقسم الغربي من بلاد الانضول وأصبح السلطان في استانبول أشبه بامين العاصمة ، وأمست الوزارة العوبة بيد الجيش المحتل ، وفرضت على الدولة معاهدة سيفر فقضت على البقية الباقية منها[1] وهكذا زالت الدولة العثمانية من عالم الوجود لتقوم على الاثر تركية الحديثة الناهضة .

وكان الشعب التركي يومئذ — وقد هجره رجال الحكم مثل أنور وطلعت وجمال بعد ان أوصلوه الى هذا الدرك السحيق[2] — في أشد حالات اليأس والانحلال ، وكانت البقية الباقية من شبان الاتراك ورجالهم في حيرة من أمرهم وقد استسلم أغلبهم الى القنوط الا نفراً قليلاً فضل الموت على الحياة في ظل العبودية . وكان السلطان محمد الخامس قد توفي في آخر سني الحرب

---

(١) ص ٢٣ : Kemalist Turkey and The Middle East, by Dr. K. Kruger

(٢) غادر أنور وطلعت وجمال البلاد على أثر اضطرار الدولة العثمانية الى قبول شروط الهدنة في ٣٠ تشرين الاول سنة ١٩١٨ ، وكان الثلاثة مسؤولين عن كل ما أصاب البلاد من جراء انضمامها الى الجبهة الجرمنية وملازمتها المانية ؛ فذهب أنور باشا الى تركستان ، بلاد طوران سماء أحلامه وأمانيه — بعد ان حاول الالتجاء الى موسكو فخاب في مسعاه — وبقي يجاهد في صحاري تركستان في سبيل تحقيق أحلامه الذهبية حتى خر صريعاً في ساحة القتال ؛ والتجأ طلعت باشا الى برلين فبقي فيها حتى لقي منيته على يد أحد الارمن فدفن في مقبرة المسلمين في برلين سنة ١٩٢٩ بعد ان بقيت جثته المحنطة ملقاة في أحد الاقباء مدة ست سنوات ؛ ولقي جمال باشا حتفه في تفليس وهو في طريقه من موسكو قاصداً بلاد الافغان حيث كان يحلم في اقامة دولة حديثة فيها

فخلفه وحيد الدين الذي لقب بمحمد الخامس ، وقد تسلم مقاليد الامور صنائع الحلفاء فتولى الداماد فريد باشا رئاسة الوزارة في آذار سنة ١٩١٩ . وأراد الانكليز بعد ان تخلصوا من منافسة الاستعمار الروسي والجرمني ان يغتنموا هذه الفرصة لاقامة امبراطورية جديدة في الشرق الاوسط والادنى تمتد من مصر والقسطنطينية الى نهاية حدود ايران وتشتمل على مصر وفلسطين وسورية وبلاد العرب والعراق وايران ؛ وتخترقها شبكة من السكك الحديدية تربط القاهرة بشرق الاردن و بغداد والهند ؛ وتكون سوراً منيعاً يدفع خطر السوفيتية الروسية عن امبراطور يتهم الهندية (١) وكانت رغبتهم في تحقيق هذه الامنية من أقوى العوامل التي ساقتهم لتحريض اليونان على الاغارة على بلاد الانضول (٢) . حتى اذا كان اليوم التاسع من شهر أيار سنة ١٩١٩ أعلن بطريرق اليونان في استانبول ان اليونان المقيمين في البلاد العثمانية لن يعترفوا بعد اليوم باية صلة لهم بالدولة العثمانية ، وقطع على أثر بيانه هذا جميع

---

(١) ص ٢٤٦ — ٢٤٨ : A History of Nationalism in The East, by Hans Kohn وكان ثلاثة من أبرز رجال الوزارة البريطانية يؤدون هذه الفكرة ويسعون لتحقيقها وهم المستر ولستن تشرشل والمستر لويد جورج واللورد بركنهيد

(٢) وكانت الرأسمالية اليونانية تسوق حكومة اليونان وتمدها بالاموال الطائلة في هذا النزاع أملا في الاحتفاظ بالسيطرة على تجارة الانضول التي كانت العائلات الرأسمالية اليونانية (كعائلة Argentinis, Petrokokinos, Mavrogordatos, Rhodokanakis, Rallis) قد قبضت عليها منذ نيف ومائة وخمسين عاماً ؛ وكان لها — عدا ذلك — نصيب وافر من منابع نفط القفقاز ومعادن حوض الدونتز ، وعدد كبير من الحصص في شركة فيكرس الانكليزية لاستخراج المعادن وصنع العتاد . وكان السر بزل زاخاروف (زعيم شركات الاسلحة والعتاد والنفط) قد توسط أثناء وجوده في باريز بين هؤلاء الرأسماليين والمستر لويدجورج لضمان تعاون اليونان والانكليز ضد الاتراك . (ص ٢٤٧ — ٢٤٨ Hans Kohn, A History of Nationalism in The East)

صلاته بالباب العالي . وفي اليوم الـ ١٥ من أيار هذا نزلت الجيوش اليونانية في أزمير وراحت تكتسح البلاد المجاورة . فاهاج هذا العمل من جانب اليونان والانكليز مشاعر الشعب التركي الذي لم يعد يستطيع الصبر على هذا الذل المرير فالتف حول الحركة الوطنية التي انبعثت من أعماق الانضول لطرد المستعمرين .

وكانت الحكومة العثمانية قد عينت مصطفى كمال باشا في ربيع سنة ١٩١٩ مفتشاً عسكرياً في بلاد الانضول(١) بايعاز من الانكليز فاغتنم هذه الفرصة لاعلان الجهاد الوطني وجمع حوله رجال الاتراك الذين هرعوا الى معونته ، وعقد برئاسته في خلال سنة ١٩١٩ مؤتمران وطنيان في أرضروم وسيواس قرر فيهما رفض جميع المعاهدات التي تمس بسيادة تركية . وعقد مؤتمر ثالث بتاريخ ٩ ايلول أصدر بياناً الى الامة كشف فيه رجال الحركة عن عزمهم على رفض كل ما هو دون الاستقلال في الشؤون السياسية والاقتصادية وازالة كل ما يمس بسيادة تركية الحديثة وطالبوا باجراء انتخابات عامة ودعوة المجلس ليصادق على ماتتخذه حكومة استانبول من الاجراءات . وفي اكتوبر استقال الداماد فريد فخلفه علي رضا في رئاسة الوزارة على أساس اجراء الانتخابات الى المجلس . وكان فوز الوطنيين في هذه الانتخابات عظيماً ، وقد حضروا المجلس الذي التئم في ١١ كانون الثاني سنة ١٩٢٠

---

(١) وكان مصطفى كمال باشا — وهو من سلانيك ومن أصل ألباني — قد برز في خلال الحرب العامة في معارك الدردنيل واشتهر بمقاومته لأنور وطلعت وجمال ومعارضته النفوذ الجرمني في الدولة والقيادة الجرمنية في الجيش وقد اختلف مع القواد الالمان مثل فون ستدرس وفون فلكنهاين ، وانتهى به الامر الى الانسحاب من الجيش

ووقعوا في ٢٨ من هذا الشهر الميثاق الوطني ، وفيه شرحوا منهاج الحركة الوطنية التي اتخذت أنقرة مقراً لها . ولكن هذا المجلس كان قصير العمر ، فقد حالت دون بقائه سياسة الاستعمار البريطاني الذي أراد ان يقطع أنفاس الحركة وهي في المهد . وكان الانكليز قد أخذوا جانب اليونان دون قيد ، واحتلت جنودهم استانبول في مارت ١٩٢٠ ، وقبضوا على زعماء الاتراك وصحفيهم فنفوهم الى مالطة ، وأعادوا الداماد فريد الى رئاسة الوزارة وأوعزوا الى حكومته ان تعلن مصطفى كمال ورفاقه عصاة خارجين على الدولة وان تحل المجلس ؛ فعززوا بمظالمهم هذه قوة الحركة الوطنية وساقوا حتى المعتدلين الى الالتفاف حولها والهروع الى نجدتها . وكانت أكثرية أعضاء المجلس قد هجرت استانبول الى أنقرة حيث استأنف المجلس اجتماعاته في ٢٣ نيسان . وفي ١١ مايس — بعد ان تم الاتفاق بين الحلفاء على اقتسام أملاك الدولة — سلمت مسودة معاهدة سيفر الى حكومة استانبول لتصديقها ، فخابت بها آمال أضعف الاتراك احساساً بالشعور الوطني ورفضتها حكومة استانبول ؛ فاوعز الانكليز الى الجيوش اليونانية ان تحتل تريس وأدرنة وبروسة وهكذا أرغموا حكومة الداماد على التوقيع عليها في ١٠ آب ١٩٢٠ . غير ان الاتراك أنكروا على حكومة استانبول جميع صفات المشروعية وشرعوا بدعوة ممثلي الشعب الى الاجتماع في أنقرة فحضر المجلس الذي عقد بتاريخ ٢٣ نيسان سنة ١٩٢٠ برئاسة مصطفى كمال مئتان وسبعون نائباً من المنتخبين الجدد وثمانون من النواب المهاجرين وانتخب هذا المجلس مصطفى كمال للرئاسة وعين هيئة تنفيذية مؤلفة من أحد عشر عضواً ؛ وأعلن بطلان جميع اجراءات

حكومة استانبول منذ ان احتل الحلفاء استانبول في ١٦ آذار ١٩٢٠ ، وفي جملتها التصديق على معاهدة سيفر ؛ وقرر ان يبقى منعقداً حتى تتحقق جميع أماني الامة وفي مقدمتها انقاذ السلطنة والخلافة وصيانة سيادة الدولة وسلامة الشعب . وفي كانون الثاني سنة ١٩٢١ صادق هذا المجلس على الدستور الجديد الذي جعل السيادة للشعب وحده وأودع السلطتين التشريعية والتنفيذية الى المجلس الوطني الكبير الذي اعتبر الهيئة العليا في المملكة . وقد تعزز موقف المجلس الوطني الكبير بما أحرزه من الانتصار في خلال شهر تشرين الثاني سنة ١٩٢٠ في سيليسية وفي أرمينية فتحرج موقف الجيوش الفرنسية واضطرت الجيوش الانكليزية الى التراجع الى أزميد وانخذلت الجيوش الايطالية في أدلية ؛ واتجهت الى تركية المجاهدة أنظار الشعوب الشرقية المرهقة بسلاسل العبودية وأبدت الشعوب المسلمة عواطفها الاخوية نحوها وحمل اليها مسلمو الهند ما استطاعوا من المبالغ التي جمعتها جمعية الخلافة (١) .

وفي شباط سنة ١٩٢١ عقد الحلفاء مؤتمراً في لندن حضره ممثلوا حكومة استانبول وأنقرة واليونان . وكان بكر سامي بك يمثل أنقرة فعرض على الحلفاء مطاليب حكومته وأظهر استعدادها للتنازل عن أدرنة وتعيين حاكم مسيحي في أزمير وجعلها تحت الرقابة الدولية . ولكن الانكليز أوعزوا الى اليونان ان لا يقبلوا بهذه الشروط فاستمر القتال . وكان الانكليز يرقلون

---

(١) Hans Kohn, A History of Nationalism in The East ص ٢٤٧ — ٢٥٢ و Earle ص ٢٠٤ — ٢٠٥

على أنقرة كل محاولاتها لايقاف القتال ؛ فقد أوفدت حكومة أنقرة يوسف كمال باشا الى لندن في شباط سنة ١٩٢٢ ليتفاوض مع الانكليز فلم يعيروه اذناً صاغية ؛ وأوفدت في شهر آب فتحي بك فعرض على حكومة لندن موافقة أنقرة على اخلاء وحياد المناطق الاربعة المحاذية للمضايق مع تعهدها بان لا تسمح لقوة مسلحة في دخولها وان تكون تحت رقابة عصبة الامم ، ولكن وزراء بريطانية رفضوا مقابلة فتحي بك وكتموا عن الشعب الانكليزي معروضات أنقرة واستمروا يوعزون الى الصحف الاستعمارية ان تشنع على الشعب التركي وجهاده في سبيل الحرية (١) .

وكان الاتراك في هذه الاثناء قد توفقوا الى تسوية اختلافاتهم مع الفرنسيين والطليان واتفقوا مع روسية السوفيتية على التعاون ضد الاستعمار عدوهما المشترك فتفرغوا لمنازلة اليونان حتى استطاعوا ان يبددوا جيشهم في عشرة أيام ، فدخل مصطفى كمال باشا أزمير في ٨ ايلول سنة ١٩٢٢ . وأثار هذا الانتصار غيظ المستعمرين البريطانيين مثل لويد جورج وتشرشل الى أقصى الحدود ، فاذاع لويد جورج — رئيس الوزارة يومئذ — نداء في ١٦ ايلول الى الممتلكات البريطانية دعاهم فيه الى حمل السلاح ضد الاتراك وأوعزت الوزارة الى الجنرال هرنكتن قائد الجيوش المحتلة في المضايق بالقيام بما من شأنه ان يؤدي الى اعلان الحرب على الاتراك . ولكن هذه المجازفة أثارت استياء الشعب الانكليزي فضج الرأي العام من سياسة المستر لويد جورج والمستر تشرشل وانتهى الامر باستقالة الوزارة . وفي ٢٣ ايلول دعا

(١) Hans Kohn, A History of Nationalism in The East ص ٢٥٢ — ٢٥٥ .

الحلفاء « حكومة المجلس الوطني الكبير في أنقرة » الى الدخول في مفاوضات الصلح فوقعت هدنة « المدينة » مع اليونان في ١١ تشرين الاول ودخلت الجيوش التركية استانبول في ١٩ منه . وفي ١ تشرين الثاني (١٩٢٢) اعلنت الجمهورية التركية وتم الفوز للأتراك .

وقد كشف هذا النزاع عن نوايا السياسة البريطانية وأزال ما كان عالقاً في أذهان الاتراك من حسن الظن بها وأوغر قلوبهم ضد الاستعمار البريطاني البغيض بما لا يمكن ان يزول ؛ اذ تبين لهم خلال كفاحهم هذا ومن الحوادث التي أعقبته ان لا خطر عليهم – ولاسيما بعد زوال القيصرية الروسية من الوجود – كخطر الاستعمار البريطاني الذي يكمن لهم وراء الحدود الجنوبية والجنوبية الشرقية وفي اليونان التي سيبقي يتخذ منها اداة لتحقيق أغراضه لوقوعها تحت رحمة الاسطول البريطاني[1] .

---

(١) فقد تم لتركية الاتفاق مع روسية السوفيتية كما سترى في الفصل التالي ، واستطاعت ان تدفع عنها خطر الاستعمار الايطالي بسهولة ، وان تكتسب معونة الفرنسيين الذين دفعتهم المنافسة المزمنة بينهم وبين الانكليز في الشرق الادنى (وقد عادت هذه المنافسة بين الدولتين حالما زال خطر المانية وظهر الخلاف من جديد حول اقتسام غنائم الحرب) الى التساهل مع الاتراك . وبينما كان الاستعمار البريطاني يريد ان تبقى تركية ضعيفة لكي لا تكون خطراً على قناة السويس وطريق الهند ولا تستطيع ان تمد يد المساعدة الى الشعوب المسلمة المستعبدة في مصر وبلاد العرب والهند ، كان الاستعمار الفرنسي يريد ان تكون تركية قوية قادرة على تسديد ديونها لفرنسة وان يجعل منها ميداناً لاستثمار رؤوس الاموال الفرنسية كما فعلت المانية قبل الحرب ويتخذ منها عوناً في النزاع مع الانكليز والروس في الشرق الادنى والاوسط ؛ وكانت الجيوش الفرنسية عند قيام الحركة الوطنية في الاناضول عاجزة عن الوقوف بوجه الاتراك ومنشغلة بالقضاء على الحكومة العربية في سورية ؛ ولهذا أسرع الفرنسيون الى مفاوضة الاتراك وتسوية خلافهم معهم فعقد الطرفان في ٩ آذار سنة ١٩٢١ الاتفاقية الفرنسية التركية في لندن وبمقتضاها وافق الفرنسيون على اخلاء سيليسية ،

عهد جديد في ايران[1] : بدت بوادر العهد الجديد في ايران منذ منتصف القرن التاسع عشر ، وكانت تبريز في مقدمة الولايات الايرانية التي اتصلت بالغرب واستمدت من أوربا مبادئ الحرية والديمقراطية التي غمرت هذه القارة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ؛ فقد كان أميرها — عباس مرزا — أول من استعان بالاوربيين وأوفد البعثات الى أوربا وأسس المطابع وأخرج باللغة الايرانية كتباً تبحث في حياة نابليون و بطرس الكبير والاسكندر . وفي سنة ١٨٥٠ أنشأ المرزا تقي خان وزير ناصر الدين شاه صحيفة « ايران » وهي أول صحيفة صدرت في هذه المملكة . واتصل « الشيخ جمال الدين الافغاني » حامل لواء الوحدة الاسلامية بشبان ايران في أواخر

ثم عقدت الدولتان في ٢٠ تشرين الاول سنة ١٩٢١ اتفاقية اخرى اوقفت بموجبها الحركات العسكرية وعينت الحدود التركية السورية ومنحت الرأسمالية الفرنسية بعض المنافع الاقتصادية (Earle ص ١١٨ — ١٢٦) . وكان مما ساق فرنسة الى أخذ جانب الاتراك ضد الانكليز المنافسة بين الرأسمالية الاميركية والانكليز على النفط ، فقد استطاعت شركة ستاندرد بما كان لها من السيطرة على البنوك والصحف الفرنسية ولاسيما جريدة الماتان ان تشجع الحكومة الفرنسية على أخذ جانب تركية وتهيء جواً مساعداً لهذا الاتفاق ، وكانت تطمع بنفط الموصل وسحق شركة شل الانكليزية . (Hans Kohn ص٢٥٣)

وكانت ايطالية تنتظر بفارغ الصبر ان يتاح لها الخروج من هذه الورطة فقد لقي جيشها الخذلان أمام جيوش الاتراك في قونية وأدالية وكانت حكومتها عاجزة عن ارسال النجدات ولم يبق لها أمل في تحقيق ما كانت تصبو اليه في آسيا الصغرى بعد ان رأت انكلترة تساعد اليونان في التوسع فيها ولذلك اغتنمت فرصة اتفاق الفرنسيين مع الاتراك فعقدت معهم معاهدة ١٣ آذار سنة ١٩٢١ وتعهدت ان تؤيد مطاليبهم في مؤتمر الصلح ، لاسيما ما يتعلق منها بتريس وأزمير ؛ وانسحبت الجيوش الايطالية من الاراضي التركية على الاثر . (Earle ص ٢٢٤) (وكذلك Kruger الفصل الثامن)

(١) اعتمد في هذه الخلاصة عن نهضة ايران على كتاب (Hans Kohn A History of Nationalism in The East) الفصل العاشر ص٣١٩ — ٣٤٠

ألقرن التاسع عشر فبذر في نفوسهم بذور الافكار العصرية وفكرة اصلاح أحوال البلدان الاسلامية التي كرس لها حياته وطاف الممالك يبشر بها [١] .

وظهر في ايران مصلح آخر اسمه ملكولم خان كان معلماً في طهران ثم عين سفيراً لايران في لندن ؛ وفي أثناء وجوده في العاصمة الانكليزية اقترح على الشاه اجراء بعض الاصلاحات الداخلية في الادارة والقضاء فلما لم يلتفت الشاه الى مقترحاته استقال من منصبه وأصدر عام ١٨٩٠ جريدة « القانون » في لندن وكان يهربها الى ايران فاستطاع ان يذكي بواسطتها روح الاصلاح ؛ وأسس بتأثير دعايتها أول محفلين الماسونية في ايران .

وفي عام ١٨٩٦ تفتحت أول زهرة من زهور العهد الجديد باغتيال أحد الشبان الاحرار الشاه ناصر الدين [٢] . وكان الشاه الجديد — مظفرالدين —

---

(١) ولد جمال الدين في أفغانستان سنة ١٨٣٨ وطاف البلدان الاسلامية في الاربعين الاولى من حياته يذكي في نفوس شبابها روح الجهاد في سبيل اصلاح شؤون بلدانهم ، واستقر في مصر الى ان أرغم المستعمرون حكومتها على ابعاده عنها في ايلول سنة ١٨٧٩ فالتجأ الى الهند حتى اضطر الى النزوح عنها سنة ١٨٨٢ فقضى سبع سنوات يطوف عواصم أوربا مثل لندن وباريس وبترسبورك . واشترك مع الشيخ محمد عبده في تحرير جريدة عربية أصدراها في باريس . وفي سنة ١٨٨٩ دعاه الشاه ناصر الدين الى ايران فاقام فيها مدة عامين استطاع في خلالها ان يجمع حوله نخبة من شبانها ويبث فيهم فكرة اصلاح الممالك الاسلامية ولكنه اختلف مع الشاه فاضطر الى مغادرة ايران الى انكلترة حيث التقى بالمصلح الايراني مالكولم خان في لندن ، وأمضى الخمس سنوات الاخيرة من عمره في الاستانة ، وكان السلطان عبدالحميد قد خصص له راتباً شهرياً جزاء خدماته للوحدة الاسلامية ، ولكن السلطان المستبد كان في ريبة من أفكار جمال الدين الحرة حتى ان البعض يعتقد انه قضى عليه في جملة من ذهبوا ضحية سمومه . وقد قضى الشيخ نحبه عام ١٨٩٧

(٢) وقد اعترف هذا الشاب انه اندفع الى اغتيال الشاه بتأثير أفكار الشيخ جمال الدين الافغاني الذي اتصل به في استانبول

أكثر ضعفاً من سلفه فازدادت في عهده الفوضى وسوء الادارة والرشوة وكثرت المظالم وتوسع نفوذ الاجانب ؛ فنمت بهذه النسبة روح الاستياء والتمرد وازداد انتشار الافكار الحرة . وكانت روسية أول من استفاد من ضعف الشاه الجديد فابتزت منه امتيازات واسعة النطاق أهمها امتيازات انشاء السكك الحديدية ، وأرغمته على ان يستقرض المبالغ الجسيمة التي احتاجها لتلافي العجز المستمر في خزينة الدولة من البانق الروسي[1] بدلاً عن البانق الانكليزي[2] . واشتدت المنافسة في هذه الاثناء بين الاستعمار الروسي من جهة والاستعمار الانكليزي من جهة اخرى وكانت روسية تسند الشاه والرجعية فاخذت انكلترة جانب الاحرار وجعلت تغذي روح التمرد .

وكانت الروح الثورية في ايران تستمد الوحي من الروح الثورية في البلدان العثمانية وفي روسية مثلما استمدت الافكار الحرة من أوربا الغربية . ولهذا فقد انتعشت بانتعاش الحركة الدستورية في الدولة العثمانية فلم تكد تندلع نيران ثورة سنة ١٩٠٥ في روسية حتى اندلعت نيران الثورة في ايران . وكانت مطاليب الثوار الذين جعلوا من مدينة « قم » مركزاً لهم مقتصرة أول الامر على طلب عزل بعض رجال الحكم الذين كانوا يسيئون الى الشعب . واشتد ازر الثوار في سنة ١٩٠٦ — وكان الانكليز يؤيدونهم — فقدموا الى الشاه مطاليبهم وفي جملتها سن دستور للمملكة فاضطر الشاه ان يعدهم باجابة مطاليبهم . وفي ١٩ آب صدرت ارادة الشاه

---

(١) Banque d' Escompte de Perse

(٢) Imperial Bank of Persia

بانتخاب « المجلس الملي » لأول مرة فانعقد أول مجلس فى ٧ تشرين الاول (١٩٠٦) . وتقدمت الصحافة خلال هـذه السنة تقدماً محسوساً ، وقرر المجلس تأسيس البانق الوطني ولكن معارضة الرأسمالية الانكليزية والروسية حالت دون تنفيذ هذا القرار .

ولكن الشاه محمدعلي الذي جاء العرش فى أوائل سنة ١٩٠٧ كان منقاداً للروس الى أقصى حدود الانقياد فناصب حركة الاصلاح العداء فنشب الخلاف بينه وبين المجلس ، وعمت الاضطرابات فى أطراف المملكة بتحريض الرجعيين من رجال الدين وبتأثير دسائس الاستعمار الروسي . ونشرت المعاهدة الانكليزية الروسية لاقتسام ايران[1] فى ٣١ آب فاثارت استياءً عظيماً فى أوساط الاحرار وزادت فى نفرة الرأي العام من الشاه الذي اضطر ان يوافق على توسيع حقوق الشعب فى الدستور ويقسم يمين الاخلاص للدستور أمام المجلس ، ولكنه عاد فطلب الى المجلس ان يحل الجمعيات السياسية السرية فلما لم يجب المجلس طلبه حاول ان يحدث انقلاباً فاوقف رئيس الوزارة واستعان بالرجعيين من رجال الدين على إثارة بعض العوام فهاجموا المجلس ودمروه ؛ ولكن أنصار الحرية هبوا للدفاع عن الدستور فاضطر الشاه ان يتظاهر بالخضوع لمشيئة الشعب وأقسم يمين الاخلاص أمام المجلس مرة اخرى .

وكان الانكليز والروس بعد ان تم الاتفاق فيما بينهم فى معاهدة ١٩٠٧ قد وحدوا سياستهم وناصبوا الحركة الوطنية العداء وأخذوا يمدون الشاه

---

(١) راجع ص ٦٢

بالمعونة ضد الشعب حتى اذا تحرج موقفه اشترك سفيرا الدولتين في تهديد الحكومة الايرانية بالتدخل اذا لم تتخذ الاجراءات ضد الجمعيات السرية المعادية للشاه . وفي ٣ حزيران سنة ١٩٠٨ بعد ان حاول بعض أعضاء هذه الجمعيات اغتيال الشاه ففشلت محاولتهم خرج الشاه ومعه فرقة الحرس الخاص المؤلف من القوزاق والروس الى خارج العاصمة وأخذ يجمع جيشاً بمعونة روسية التي أقرضته الاموال خصيصاً لهذا الغرض ، فلما أتم التحضيرات أعلن الاحكام العرفية — وهجم القوزاق على المجلس فدمروا عمارته وقتلوا زعماء الاحرار — وأوقف الدستور وقضى على حرية الصحافة وأعلنت الصحف الاوربية وفي مقدمتها التايمس اللندنية (في ٢٥ حزيران) ان تجربة الديمقراطية في ايران قد فشلت . ولكن الشعب لم يستسلم للشاه وأنصاره من المستعمرين الروس والانكليز فنشبت المعارك بين الطرفين واغتنمت روسية الفرصة فاحتلت القسم الشمالي من ايران الذي بقي بقبضتها الى ان وقع الانقلاب الشيوعي سنة ١٩١٧ . وكان فوز الحركة الدستورية في البلاد العثمانية قد شجع الايرانيين فبقوا يناضلون في سبيل الحرية الى ان استعادوا طهران في تموز سنة ١٩٠٩ وأرغموا الشاه والزعماء الرجعيين على الالتجاء الى السفارة الروسية . وفي ١٦ تموز اجتمع المجلس فاعلن خلع الشاه وتنصيب ابنه أحمد الذي لم يكن يتجاوز الحادية عشر من العمر خلفاً له . ولكن الروس والانكليز استمروا على عرقلة سير الحكومة الوطنية ومساعدة الشاه المخلوع على الرجوع الى عرشه فجهزوه بما يحتاج من العتاد والاموال فاغار على شمال ايران في تموز سنة ١٩١١ ولكنه ارتد مندحراً للمرة الثانية . وكان الانكليز والروس

في كل مرة يرغمون الحكومة الايرانية على ان تدفع اليه من خزينة الدولة مخصصات شهرية طائلة لكي تعينه على التآمر ضد المملكة ولمصلحة الاستعمار .

وكانت الحكومة الايرانية قد استقدمت المستر موركان شستر — أحد الماليين الاميركيين — لتنظيم مالية المملكة فنجح في وضع ميزانية متوازنة ولكن ذلك لم يرق روسية فطلبت الى الحكومة الايرانية فصله والتعهد بان لا تستخدم أجنبياً في مثل هذه الشؤون الا بموافقة سفيري روسية وبريطانية ؛ ولكن المجلس الايراني رفض هذا الطلب وأثار هذا الرفض حماساً عظيماً في صفوف الشعب واشترك حتى النساء في تأييد المجلس فكان يوم ٢٩ تشرين الثاني سنة ١٩١١ يوماً مشهوداً في تاريخ ايران . فارسلت روسية جيشاً الى العاصمة الايرانية وفي ٢٤ كانون الاول حلت المجلس وأقالت الوزارة وجاءت بوزارة جديدة أجابت مطاليبها ؛ وأصبحت ايران بعد سنة ١٩١٢ تحت الحكم الانكليزي الروسي المزدوج وبقيت كذلك الى الحرب العامة التي أمست فى خلالها ميداناً للقتال بين الروس والانكليز من جهة والاتراك والجرمن من جهة اخرى .

ولما انسحبت الجيوش الروسية بعد وقوع الانقلاب الروسي سنة ١٩١٧ تقدم الجيش الانكليزي بقيادة الجنرال دنسترفيل لاحتلال القسم الشمالي من ايران ولصد الجيوش الجرمنية وجيوش الثورة الروسية . وكانت الروح الوطنية قد استعادت شيئاً من نشاطها في هذه الاثناء فاسس بعض الوطنيين جمعية « اتحاد الاسلام » التي جعلت شعارها « ايران للايرانيين » وأخذت

تحث الشعب على مقاومة الاستعمار الانكليزي فلاقى الجيش البريطاني في الجنوب والجيش الذي تقدم بقيادة السر ولفرد ماليسون لمساعدة الحركة الرجعية في روسية مقاومة مسلحة من قبل الاهلين .

وفي سنة ١٩١٩ عينت الحكومة الانكليزية السر برسي كوكس ممثلاً لها في طهران ففاوض الحكومة الايرانية — وكانت برئاسة وثوق الدولة — واتفق معها على عقد معاهدة جعلت ايران تحت الحماية الانكليزية وضمنت للانكليز السيطرة على ادارتها وجيشها . ولكن المجلس رفض المصادقة على هذه المعاهدة وأرغم الوزارة على تقديم استقالتها في حزيران سنة ١٩٢٠ . وعجزت الوزارات المتعاقبة عن الحصول على موافقته فبقيت المعاهدة معلقة حتى جاء شباط ١٩٢١ فدبر رضا خان رئيس فرقة الحرس القوزاق انقلاباً أصبح على أثره وزيراً للحربية في وزارة الفها ضياء الدين أحد الصحفيين المتطرفين الذي أراد ان يحدث انقلاباً اجتماعياً في ايران بتوزيع الاراضي على الفلاحين والقضاء على طبقة الاشراف ورجال الاقطاع ومصادرة أملاك الاغنياء ولكنه فشل في مسعاه واضطر الى مغادرة البلاد فقبض رضا خان على زمام الحكم .

وكان سفير ايران في استانبول قد فاوض حكومة موسكو في تشرين الاول سنة ١٩٢٠ فأتم في ٢٦ شباط سنة ١٩٢١ عقد المعاهدة الروسية الايرانية التي انسحب الجيش الروسي على أثر ابرامها من شمال ايران . وفي ٢٢ حزيران انعقد المجلس الايراني الرابع فقرر بطلان المعاهدة الانكليزية كما قرر فصل الضباط الانكليز من الجيش الايراني واخراج المستشارين الانكليز

من وزارة المالية وصادق على المعاهدة الروسية الايرانية التي ضمنت تعاون الدولتين فى سبيل مقاومة الاستعمار فكانت هذه فاتحة العهد الجديد فى ايران[1].

وقد دبر رجال البلاط مؤامرة ضد رضا خان لكنه اكتشف أمرها فكانت السبب المباشر لتوليه رئاسة الوزارة واجباره الشاه على مغادرة البلاد. وكان فى النية قلب ايران الى جمهورية كما جرى فى تركية ولكن الرجعية — يقودها رجال الدين — حالت دون تحقق ذلك فاضطر رضا خان ان يسترضي الرجعيين فزار رئيس المجتهدين فى « قم » وقصد كربلاء والنجف وعند عودته الى ايران فى شهر تشرين الثاني سنة ١٩٢٥ قرر المجلس خلع الشاه والغاء حقوق العائلة القاجارية فى العرش الايراني وعين رضا خان رئيساً للدولة ثم نودي به ملكاً فلقب بالشاه بهلوي الاول.

ومن أهم مظاهر هذا العهد الجديد فى ايران مقاومة النفوذ الاجنبي وتوحيد البلاد[2] والقضاء على نفوذ رجال الدين ومطاردة الرجعية ورجال الاقطاع وتوثيق الصلات بتركية وروسية السوفيتية[3] وتعزيز نفوذ الحكومة المركزية وتنظيم مالية الدولة. وقد صادف جهاد الايرانيين فى خلال الحرب العامة وقوبل العهد الجديد فى ايران بمثل ما وجدت النهضة التركية الحديثة من المقاومة من قبل الاستعمار الانكليزي وصنائعه فكان لذلك أثر عميق فى

---

(١) راجع الفصل الحادي عشر

(٢) وكان من أهم ما قام به رضا خان من الاعمال قبيل تسنمه العرش القضاء على شيخ المحمرة حليف الانكليز وآلة الاستعمار

(٣) راجع الفصل الحادي عشر

نفوس الشعب الايراني لن يفسح معه المجال بعد لدسائس الاستعمار واستغلال الرأسمالية الغربية . وايران الحديثة حريصة جداً على صيانة سيادتها وهي مجدة في الوقت الحاضر لتطهير البلاد ولاسيما سواحل الخليج الفارسي من النفوذ الاجنبي حتى انها أرغمت بريطانية في السنوات الاخيرة على تخلية الاماكن التي احتلتها منذ زمن بعيد في هنجام وجزيرة قشم (١) .

* * *

مغامرات امان الله ضد الاستعمار (٢) : بدت بوادر اليقضة في الافغان متأخرة وكانت الحركة الوطنية فيها منذ أول عهدها وثيقة الصلة بروسية لاسيما تركستان الروسية المتاخمة لها . وكان الانكليز في سعيهم لحماية امبراطوريتهم الهندية ودرء الاخطار عنها قد أعلنوا الحماية على بلاد الافغان وسيطروا على سياستها الخارجية واتفقوا مع روسية القيصرية على ان يجعلوا منها دولة محايدة تحول دون وقوع الصدام بينهما ؛ وكانت جميع صلات هذه المملكة بالبلدان الاجنبية تجري بواسطة حكومة الهند وكان محضوراً على أميرها ان يرسل السفراء الى الحكومات الاجنبية أو ان يقبل ممثليها في مملكته . وكانت المملكة بالرغم من شدة تمسك أهلها بمعتقداتهم وحرصهم على استقلال بلادهم عرضة للاضطرابات التي كان يثيرها بين حين وآخر النزاع على العرش والخلاف بين القبائل . ولم يكن للحكومة المركزية فيها

---

(١) راجع ص ٦٤ — ٦٥

(٢) Hans Kohn, A History of Nationalism in The East الفصل العاشر ٣٤١ — ٣٤٨

شأن يذكر حتى تسلم زمام الحكم فيها الامير عبدالرحمن عام ١٨٨٠ فعمل على توحيد المملكة وتعزيز نفوذ الحكومة وتقوية الجيش فسن الشرائع وأدخل الاصلاحات الادارية الحديثة . ثم خلفه ابنه حبيب الله سنة ١٩٠١ فاراد ان يتم العمل الذي بدأ به سلفه ويحقق استقلال الافغان فجعل من نفسه سنة ١٩٠٥ ملكاً على البلاد بموافقة الانكليز وأدخل قبيل الحرب العامة بعض وسائل المخابرات والمواصلات الحديثة على أثر عودته من زيارة الهند كالتلغراف والتلفون ، وعبد الطرق وأسس المدارس والمصانع واستقدم ضباطاً من الاتراك لتنظيم الجيش . وكانت فكرة الوحدة الاسلامية في الافغان قد شاعت شيوعاً عظيماً فاستحوذت على نفوس الاهلين حتى كان الرأي العام الافغاني ميالاً كل الميل الى دخول الحرب العامة الى جانب العثمانيين ولكن الامير حافظ على حياد البلاد طيلة مدة الحرب فكان ذلك — على ما يدعي البعض — من جملة أسباب اغتياله في شباط سنة ١٩١٩ وقد أعقبه أمان الله خان فكان عهده فاتحـــة الجهاد في سبيل انقاذ المملكة من التدخل الاجنبي والقيام بالإصلاحات الداخلية التي استمد وحيها من النهضة التركية والانقلاب الروسي والتطور الذي حدث بنتيجة هـــذا الانقلاب في البلدان السوفيتية المجاورة التي يقطنها المسلمون[1] .

وفي نيسان سنة ١٩١٩ أعلن أمان الله خان استقلال الافغان وأوفد بعثة الى موسكو[2] برئاسة ولي محمد خان لمفاوضة حكومتها وتأسيس العلاقات

---

(١) راجع الفصل الحادي عشر

(٢) ولم يتجاسر أمير من امراء الافغان قبل هذا ان يخالف القاعدة التي فرضها

الدبلوماسية معها . وقد أثارت أعمال حكومة الهند في البنجاب مشاعر الشعب الافغاني ضد الانكليز وكانت العلاقات قد توترت بين الطرفين من جراء اصلاحات أمان الله خان حتى نشبت بينهما حرب انتهت بصلح « راوال بندى » في ٨ آب سنة ١٩١٩ الذي به أقرت بريطانية استقلال الافغان وجرت بين الحكومتين مفاوضات انتهت بعقد المعاهدة الانكليزية الافغانية في ٢٢ تشرين الثاني سنة ١٩٢١[١] وأسرعت الافغان الخطى على أثر عقد هذه الاتفاقية فنشطت فيها حركة الاصلاح التي استمدت الوحي من روسية[٢] وأخذت حكومتها تؤسس العلاقات الدولية فعقدت المعاهدة الروسية الافغانية في ٢٨ شباط سنة ١٩٢١[٣] وأوفدت في سنة ١٩٢٠ بعثة الى بلاد ايران قوبلت بحفاوة عظيمة وعقدت في شهر تشرين الاول سنة ١٩٢٠ معاهدة مع الصين واخرى مع فرنسة وثالثة مع ايطالية وأنشأت العلاقات الدبلوماسية بينها وبين هذه الدول

الاستعمار البريطاني على الافغان بإرغام الامير علي ان يجري جميع المخابرات والمفاوضات مع الدول الاجنبية بواسطة حكومة الهند

(١) وكان السر هنرى دوبس يمثل الجانب البريطاني في هذه المفاوضات . اما الفريق الافغاني فكان برئاسة محمود ترزي زعيم الحركة الاصلاحية ، وكان قد أمضى مدة في تركية ثم أصدر صحيفة في بلاد الافغان طالب فيها باعلان الاستقلال التام ومقاومة النفوذ البريطاني واجراء الاصلاحات الادارية ونشر التعليم . وكان ذلك على عهد حبيب الله الذي كان يرتاب من الاحرار ويخشى ان يؤدي نشاطهم الى المطالبة بالاصلاحات الدستورية . فلما جاء أمان الله العرش قرب محمود ترزي وجعله من مستشاريه في اجراء الاصلاحات التي يستلزمها تقدم المملكة وتحسين أحوالها

(٢) راجع الفصل الحادي عشر

(٣) راجع الفصل الحادي عشر

فاسست في كابل سفارة لفرنسة واخرى لايطالية والصين وأوفدت حكومتها الممثلين السياسيين الى العواصم الاوربية والشرقية واستقدمت الضباط والمهندسين والمعلمين من روسية وتركية وفرنسة وايطالية وشجعت الصحافة حتى صدر في كابل وحدها سنة ١٩٢٣ تسع صحف طلب الى جميع كبار الموظفين ان يشتركوا في اثنتين منها على الاقل تشجيعاً لها . وسن في سنة ١٩٢٢ دستور نص بتشكيل مجلس للدولة ومجلس تشريع وتعيين وزراء مسؤولين لجميع الدوائر الرئيسية ؛ وأسست المدارس الابتدائية والثانوية فى جميع أطراف المملكة ، وفتحت جامعتان احداهما جرى التدريس فيها بالفرنسية والاخرى بالالمانية وأرسلت البعثات الى فرنسة . واجريت اصلاحات هامة في الادارة وفي اصول فرض الضرائب ووضعت في سنة ١٩٢٢ أول ميزانية للدولة وأعلنت الحرية الدينية . وازداد نشاط هذه الحركة على أثر زيارة أمان الله أوربا وتوثق العلاقات بينه من جهة وبين روسية وتركية من جهة اخرى . ولكن الاستعمار الانكليزي لم يكن غافلاً عن هذه التطورات الخطيرة التي تهدد سلامة الامبراطورية الهندية في الصميم ولم يكن ليقر هذا الخذلان المريع الذي لقيه في الافغان بعد تركية وايران فكان لذلك يدس الدسائس للايقاع بامان الله وجماعته حتى تم له ذلك في سنة ١٩٢٩ بنشوب الثورة في الافغان واضطرار أمان الله على مغادرة البلاد[١] . ومع ان نادرشاه الذي خلف أمان الله على عرش الافغان قد صرح في المجلس الوطني الذي انعقد في ٩ تموز سنة ١٩٣١ انه لم يتول العرش بمعونة الانكليز

---

(١) Ralp Fox ص ١٩٠٧

الذين حاولوا على العكس من ذلك ان يضعوا العراقيل في سبيله[١] الا ان مجرى الامور يدل على ان للانكليز اصبعاً في هذا الحادث الذي أوقف سير الاصلاح وشجع الرجعية وانتكست على أثره حركة التقدم . ولا تزال الاحوال في الافغان غير مستقرة اذ النزاع قائم بين أنصار أمان الله ورجال العهد الجديد . وقد ذهب نادر شاه ضحية هذا النزاع اذ اغتيل في ٨ تشرين الثاني سنة ١٩٣٤ من قبل شابين يقال انهما من أنصار أمان الله[٢] ؛ وقد خلف نادر شاه ابنه ظاهر شاه فانتقم من القتلة شر انتقام[٣] . ومع ان في هـذا الانتكاس فوز لسياسة الاستعمار فلابد ان يكون هذا الفوز قصير الامد وسيترك في نفوس الشعب أسوأ الاثر .

* * *

بوادر اليقظة في الهند : تختلف قضية الهند السياسية عن الحركات الوطنية التي فرغنا الآن من استعراضها من عدة أوجه ؛ فالهند ليست مستعمرة فحسب وانما هي حصن الاســتعمار البريطاني في الشرق ومكمن الرأسمالية الانكليزية وقوام حياتها ؛ وهي بلد شاسع الارجاء يقارب في المساحة مساحة القارة الاوربية ويربو عدد سكانه على الثلاثمائة وخمسين مليون ، قد توفر للمستعمر فيه كل ما يحتاج لتعزيز نفوذه وتثبيت قدمه ، ففيه مختلف العناصر

---

(١) Current History, December 1931

(٢) Current History, February 1934

(٣) Current History, April 1934 فقد اعدم القاتل وجميع أقربائه الذكور (حتى الابعدين منهم) وعدد غير قليل من رفاقه والمتصلين به

وغرائب الاديان والمعتقدات ومئات الطوائف والالسن ، وفيه من الدجالين باسم الدين ومن رجال الاقطاع والراجات والامراء جيش جرار ، وهي كلها أسلحة تستخدمها الرأسمالية لإذلال الشعب وتمزيق وحدته واثارة الشقاق في صفوفه واشغاله عن توحيد جبهة الجهاد ضد الاستعمار والهند معرض لأفضع مساوئ القرون الغابرة فيها يشهد المرء أفضع الفروق الاقتصادية والاجتماعية ، فهي موطن الفاقة والجهل ومرتع الامراض ومهبط العسف والمظالم من جهة ، وهي مطمر الكنوز وأكبر مخزن الذخائر واللؤلؤ وفيها أعظم أغنياء العالم وأكثرهم بذخاً واسرافاً من جهة اخرى ؛ وهذا مما يزيد في تعقيد قضيتها وفي تمكين الاجنبي المستعمر من السيطرة عليها وتضييق الخناق على الشعب الهندي ويسهل عليه أمر تفريق شملها وتأخير يقضتها[١] . ولهذا فان الهند في الوقت الحاضر مشهد أعظم صراع شهدته البشرية بين الشعب ومستغليه ، وفيها يلاقي الشعب في جهاده ضد الاستعمار والرأسمالية أقوى مقاومة لاقتها الشعوب المجاهدة وأشد أنواع العسف والارهاق والارهاب ؛ ومع ان تلك القوة وهذه الشدة لا ينتظر ان تؤخر الفوز كثيراً عن الهند فانها قد صقلت حركتها ودفعتها في طريق غير الطريق الذي سلكته شعوب الشرق الادنى للوصول الى الحرية .

وقد ظهرت أول بوادر النزاع بين الرأسمالية الانكليزية وطبقات الشعب الهندي بدخول الرأسمالية دورها الثالث دور استثمار موارد البلاد واستغلال الشعب في ميادين العمل[٢] . وكان فاتحة هذا النزاع ظهور حركة التمرد في

---

(١) Moon ص ٣٠٨ — ٣١٢ (٢) راجع ص ٣٦ — ٣٧

صفوف الجيش الهندي واندلاع نيران الثورة في مختلف جهات البلاد ؛ فقد تظافرت جميع طبقات الهند ضد المستعمر ، فوقف الراجات ورجال الاقطاع الذين اغتصبت شركة الهند الشرقية أراضيهم بجانب الامراء الذين خسروا امتيازاتهم ومواردهم بسبب قيام الشركة مقامهم في استنزاف الضرائب من الشعب ؛ وكذا الفلاحون الذين أثقلت كاهلهم الضرائب التي كان يفرضها عليهم الاجانب ، وأصحاب الحرف والصنائع الذين سحقتهم منافسة الرأسماليين فاحرموا أسباب العيش ، والعمال في مزارع السكر والنيل الذين كانت قد ألهبت ظهورهم أسواط المستغلين . وقد كان عقاب الرأسمالية للمتمردين عقاباً لم يسجل التاريخ له مثيلاً في القسوة والفضاعة . على ان الاستعماريين ما كانوا ليفوزوا بالنصر لولا نشرهم بذور التفرقة والشقاق في صفوف الهنود فقد أسرعوا حالاً باسترضاء الامراء وملاكي الارض بوعدهم باعادة أملاكهم ومساعدتهم ضد الفلاحين وأظهروا لهم ان العاقبة ستكون وخيمة عليهم اذا انتصر الفلاحون ؛ وقد فرقوا صفوف الفلاحين بوعدهم كبارهم ببعض الامتيازات ، وأخمدوا أنفاس عامة الفلاحين بجيوش من الهنود أنجدهم بها الامراء ثم سنوا القوانين التي أجازت لهم سلب الفلاحين أراضيهم وهكذا أسفرت المعركة عن انقسام الشعب الى شطرين واتخاذ الملاكين والامراء والراجات جانب الاستعمار ، فتطهرت حركة الشعب بذلك من رجس كريه .

لقد بعثت الفضائع التي ارتكبها الانكليز في اخماد الحركة الوطنية في الهند رجة عنيفة في جميع أطراف العالم وتركت في نفوس الهنود أثراً لا يمحى وكانت

أول ما أثار المشاعر وأهاج النفوس الحرة وأذكى فيها روح الجهاد[1] .

مرت حركة الهند عقب حوادث التمرد هذه في دور شبيه بالذي مرت به الحركات الوطنية في أوربا وفي بلدان الشرق الادنى ، كانت القيادة فيه للوطنيين الروحيين ، وانتشرت الجمعيات السرية والافكار التي غمرت القارة الاوربية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في صفوف الشبان وطلاب المدارس[2] .

---

(١) Beauchamp ص ٣٢ — ٣٧ ، Moon ص ٢٩٣ — ٢٩٤ ، Hans Kohn, A Hislory of Nationalism in The East ص ٣٥٩ — ٣٦٠

(٢) وقد ترجمت في أثناء هذا الدور كثير من الكتب التي تبحث في حياة رجال الوطنية كغاريبالدى ومازينى ووضعت الروايات الحماسية مثل (The History of India gained in a Dream) وكثير من الاغاني الوطنية وظهرت بعض الصحف الحرة . ومن أشهر رجال هذا الدور « سارندرا ناث بانيرجى » و « كوخيل » . وكان الاول من أعظم خطباء عصره أسس « الجمعية الهندية » سنة ١٨٧٦ وأنشأ جريدة « البنغال » سنة ١٨٧٩ وكان قائماً أول الامر بالمطالبة بدستور يعين للهند مكانتها في الامبراطورية البريطانية ولكنه انقلب بعد ذلك الى المطالبة بالاستقلال التام ، وكان يعتقد ان استقلال الهند لا يتحقق الا بنشر التعليم فيها فاسس جامعة ريبون الاهلية على حسابه الخاص وأوقفها لخدمة الشعب بعد وفاته . اما « كوخيل » فكان استاذاً في جامعة بونا وقد قصر جهوده على بث التعليم وتثقيف الشعب معتقداً ان هذا هو السبيل الوحيد لتحقيق الاستقلال الصحيح ، وأسس سنة ١٩٠٥ « جمعية خدام الهند » ، غايتها تدريب الشبان ودعوتهم الى تكريس حياتهم لخدمة البلاد ؟ ولم يسمح لغير المثقفين ثقافة عالية بالانضمام الى هذه الجمعية ؟ وكانت الجمعية تدعو الى توحيد الصفوف ولا تفرق بين الطوائف ؟ وكان أعضاؤها يمضون خمس سنوات في التدريب قبل ان يسمح لهم في الاشتراك بالجهاد الفعلي . وكان يشترط على كل عضو أن يتفرغ لأعمال الجمعية فلا ينشغل بكسب المال وان يكتفي بما تخصصه له الجمعية منه . ولكن الشبان عرجوا في طريق جديد منذ أواخر القرن التاسع عشر تحت تأثير فلسفة « شوبنهاور » و « نيتشه » و « واكنر » فغمرت نفوسهم موجة من الصوفية والتقشف والنفرة من المادية الاوربية ومدنيتها السطحية فنادوا بالعودة الى حضيرة الحياة الشرقية واعتناق مبادئها الفلسفية وراحوا يمعنون في دراسة حياة

ان الاغراض الاقتصادية كانت ظاهرة جلية في حركة الهند منذ أول نشأتها فقد تولى قيادتها عقب حركة التمرد أبناء الطبقة الوسطى الذين تضامنوا مع الاحرار من الانكليز لمقاومة الاقطاع وشركة الهند الشرقية وتمهيد السبيل الى سيطرة الطبقة الصناعية . وكانت زعامة هذه الحركة المؤتمر الوطني الهندي الذي كان أحرار الانكليز أول من فكر في تأسيسه لضمان تعاونهم مع أحرار الهنود[1] . وقد انعقد المؤتمر لأول مرة في بومبي في ٢٨ كانون الاول سنة ١٨٨٥ فصرح بانه لا يستهدف معارضة الانكليز وانما يريد ان يؤلف بين القلوب ويقوي الصلات ببريطانية ويضمن للشبان الهنود نصيبهم من وظائف حكومة الهند .

ولكن الوفاق بين هذا الصنف من الهنود وبين أحرار الانكليز لم يدم

مجاهدي القرن التاسع عشر في ايطالية وايرلندة مثل « بارنيل » و « غاريبالدي » و « كوسوث » ويؤلفون الجمعيات السرية على غرار جمعيات روسية وايطالية وايرلندة ، ولم يعد يقنعهم الكلام والحماس فارادوا العمل الجدي والتضحية الفعلية ، وكانت هذه الروح من أقوى العوامل في ظهور حركة الارهاب في الهند ، وكان طلاب المدارس مدار هذه الحركة التي استحوذت على نفوس الشبان يقودها « بال كنكادار تيلاك » ، فتأسست كثير من الجمعيات السرية في الهند وفي خارج الهند ، وتولت الجمعيات في الخارج أمر تهريب المطبوعات الممنوعة والاسلحة وظهرت عدة روايات كان من أهمها رواية (Ananda Math) و (Bhagavadgita) التي أعطت الشبان انموذجاً للجمعيات السرية ، ودعى شبان الهند لنبذ اللذات والتجرد من الماديات وتكريس حياتهم لخدمة البلاد . (Hans Kohn, A History of Nationalism in The East ص ٢٦٧ ـ ٢٨٠)

(١) Hans Kohn, A History of Nationalism in The East ص ٢٦٤ ـ ٢٦٦ . كان أول من فكر بتأسيس المؤتمر الوطني الهندي انكليزي يدعى « ألان اوكتافيان هيوم » وكان موظفاً في حكومة الهند وكان غرضه من المؤتمر ان يوطد الروابط بين الهند وبريطانية (Hans Kohn) ص ٢٩٣

طويلاً فان الطابقة الرأسمالية التي نشأت في الهند توسعت مصالحها في أوائل القرن العشرين حتى اصطدمت بمصالح الرأسمالية الانكليزية فثـار بينهما النزاع . وكانت الرأسمالية الانكليزية قد حملت الحكومة البريطانية على اثقال كاهل الصناعة الهندية بالضرائب ومنع الرأسمالية الهندية من استثمار الاموال في المشاريع الوطنية [1] ، فثار بينهما النزاع فاعلن المؤتمر الهندي في سنة ١٩٠٥ مقاطعة البضائع الانكليزية وقد استمرت هذه المقاطعة حتى اضطرت الحكومة سـنة ١٩٠٩ على استرضاء المؤتمر بفسح المجال للهنود للاشتراك بالادارة . ولكن نطاق معارضة المستعمرين أخذ يتوسع بسرعة وقويت روح العداء لهم في صفوف الفلاحين الذين اشتد فتك الجوع والفاقة فيهم باشتداد قوة الرأسمالية ، وكان عدد المتعلمين قد زاد عن الحاجة وكثر العاطلون منهم فنما عدد الثوريين والارهابيين حتى اذا كانت سنة ١٩١٢ بدت في الجو دلائل الثورة بمحاولة اغتيال نائب الملك وتمرد احدى فرق الجيش الهندي في سنغابور واضطراب الاحوال في البنجاب وقبض المتطرفون على قيادة الحركة الوطنية . فارهب ذلك الحكومة الانكليزية وحملها على تهدئة الخواطر فوعدت الهنود بالحكم الذاتي وفرض الرسوم

---

(١) وكانت هذه الطبقة من جملة نتائج الرأسمالية الانكليزية ، فان حاجة الانكليز الى الكتبة والمستخدمين في الشركات التي أسسوها في الهند ساقتهم الى تأسيس المدارس لاخراج شبان من الهنود يقومون لهم بهذه الخدمات فادى ذلك الى ظهور طبقـة من الحقوقيين والاطباء والمهندسين تجمعت لديها الاموال فاستثمرتها أول الامر في المشاريع الزراعية والتجارة ثم أخذت تستثمرها في المشاريع الصناعية كمعامل النسيج وغيرها ، وأسست البنوك الوطنية حتى بلغ عددها الستة عشر في سنة ١٩١٠

الـكمركية على المنسوجات القطنية (لاسترضاء الرأسماليين الهنود) على شرط ان تساعد الهند بريطانية فى الحرب . واضطرت الحكومة البريطانية فى خلال الحرب العامة — لانصراف مصانع الرأسمالية فيها الى اخراج ما تستلزمه الحرب من عتاد ولوازم — ان تترك سياسة المقاومة التي سلكتها تجاه المصانع الهندية فتحقق الرأسماليين الهنود ما كانوا يصبون اليه فأوقفوا الجهاد وقادوا الشعب المسكين الى ساحات القتال للدفاع عن مصالح أعدائه الالداء وأعانوا المستعمرين فى القضاء على المتطرفين من الوطنيين(١) .

فلما انتهت الحرب العامة كانت الرأسمالية الهندية قد بلغت من القوة درجة اضطرت الحكومة البريطانية معها الى الالتزام — ولو بصورة ظاهرية — بالوعود التي ضربتها للوطنيين الهنود فى سنة ١٩١١ وعادت فأكدتها في سنة ١٩١٤ ، فاجرت في سنة ١٩١٩ بعض الاصلاحات الشكلية التي نالت الرأسمالية الهندية بها بعض ما كانت تسعى للحصول عليه من الامتيازات كتوسيع نطاق التصويت وزيادة عدد أعضاء مجلس نائب الملك والمجالس التشريعية وعدد الموظفين الهنود واحالة أعمال البلديات الى الوطنيين وأدخلت نظاماً جديداً لادارة البلاد فقسمت أعمال الحكومة الى صنفين : « الاعمال المحفوظة » وهي التي احتفظت بها بريطانية كالمالية وواردات الاراضي والادارة والرى والقضاء والشرطة والسجون ورقابة المطبوعات والمعامل والنظر في مشاكل العمال والضمانات الصناعية ، و « الاعمال المحولة »

(١) Beauchamp ص ١٦٧ — ١٦٨

التي عهدت بها الى الادارة المحلية كشؤون الصحة العامة والتعليم (١) . ولـكن هذه الاصلاحات لم ترض رجال المؤتمر الوطني فاستأنفوا الجهاد ووجهوا جهودهم للأخذ بقياد السواد الاعظم لاستخدامه في سبيل تحقيق مصالح الطبقة الرأسمالية من جهة ولابعاده عن الميول الثورية التي أخذت تستحوذ عليه ، وتوجيه أنظاره الى ما يناله على يد الاجنبي المستعمر من ارهاق لينصرف عن محاسبتهم وعما يناله من الاضرار من جراء استغلالهم اياه (٢) .

---

(١) Montagu-Chelmsford Reforms

(٢) لم يكن ما ينال الشعب من استغلال الرأسمالية الهندية واستعباد الملاكين الهنود باقل مما يصيبه على يد المستعمرين ، فان أحوال العمال والفلاحين فى المشاريع التي امتلـكها الرأسماليون الوطنيون كانت أشد سوءاً مما هي عليه في المشاريع الاجنبية ، وأحوال الامارات التي يحكمها الامراء الهنود أشد فساداً من التي يحكمها الانكليز فالراجات يرتكبون أفضع الجرائم ضد الشعب ويحتمون بالمستعمر الذي تحالف معهم لسحق السواد الاعظم . ويرى القارئ في مصروفات بعض الامراء صورة صادقة لحالة الشعب ففي ميزانيـة امارة (بيكانير) وعدد سكانها (٦٦٠،٠٠٠) نسمة تبلغ كافة اعتمادات الاعمال العامة وفي ضمنها التعليم والصحة ٣،٦ في المائة من مجموع الميزانيـة بينما تبلغ مخصصات الامير ٢٢،٦ في المائة ، ويصرف هذه الامير على شخصه مبلغ (١٧٠،٠٠٠) ليرة انكليزية فى الوقت الذي لا تزيد مخصصات التعـليم على (١٥،٠٠٠) ليرة انكليزية . ولـكن مخصصات هذا الامير تبدو زهيدة أمام مخصصات مهراجا « جناكار » الذي صرف على شخصه في سنة ١٩٢٦ (٥٠) فى المائة من مجموع واردات امارته (Beauhamp ص ١٦٣ — ١٦٦ و Ralf Fox ص ٦١ — ٦٢) . ومهراجا الوار الذي ينفق ٦٦،٠٠٠ ليرة انكليزية فى السنة على سياراته بينما لا تزيد نفقات تعليم مجموع الشعب الذي ينوف عدده على ٧٠٠،٠٠٠ نسمة على ٧٥،٠٠٠ ليرةانكليزية (Beauchamp من ١٧٧ و Litrary Digest, December 3rd. 1927) . وفيما يلي مفردات ميزانية امارة بيكانير بالروبيات لاحدى السنين : ماهيةالامير (١٢٢،٥٥،٠٠٠) مصاريف زواج الامير (٨٢٥،٠٠٠) الابنيـة والشوارع (لمنفعة الامير وحاشيته عادة) (٦١٨،٣٨٤) توسيع قصر الامير (٤٢٦،٦١٤) نفقات عائلة الامير (٢٢٤،٨٦٥)

وكان المهاتما غاندي[1] قد نزل الى ميدان الجهاد في الهند فتولى قيادة الحركة الهندية وأصبح — من حيث لايعلم — أكبر اداة استغلتها الرأسمالية الهندية واستفاد منها المؤتمر الوطني للسيطرة على الحركة الوطنية في البـــلاد واستخدام الجمهور — الذي انقاد لغانديـــ — لتحقيق أغراض الطبقة

مخصصات المعارف (٢٢٢،٩٧٩) مخصصات الصحـــة العامة (١٨٨،١٣٨) مخصصات الاعمال العامة (٣٠،٧٦١) مخصصات مؤسسات حفظ الصحة (٥،٧٢٩) [Ralph Fox ص ٤٢] وقد وجد الامراء من السلطات المستعمرة أكبر معين لهم في ارهاق الشعب وابقائه فريسة للجهل والفاقة ولم يجد الشعب سبيلا للخلاص من الامراء حلفاء الاستعمار بعد ان حماهم المستعمرون ، فأمير اندرو المخلوع مثلا يستوفي (٥٠،٠٠٠) ليرة انكليزية في السنة من خزينة الامارة بينما جمهور الشعب يتضور من الجوع (Beachamp ص ١٢٨)

(١) ولد غاندي فى ٢ تشرين الاول سنة ١٨٦٩ فى احدى الولايات الهندية القريبة من بومبي من أبوين من الطائفة البراهمية ؛ وكان أسلافه يشغلون مناصب الوزارة فى هذه الولاية . وبعد ان أتم دراسته الثانوية فى الهند سافر الى انكلترة فدرس المحاماة ونال جواز ممارستها ، واستخدم عند عودته الى وطنه فى احدى الشركات الهندية فأوفدته الى جنوب أفريقية للدفاع عنها أمام المحاكم . وكان فى جنوب أفريقية — ولاسيما فى الناتال — عدد كبير من المهاجرين الهنود جاء بهم الرأسماليون الانكليز لاستخدامهم فى المعامل والمناجم لزهادة اجورهم وكانوا يعانون فى مهجرهم هذا أشد أنواع البؤس والارهاق وقد حرمهم البيض من الحقوق وجعلوهم من صنف العبيد . فأثار ذلك مشاعر غاندي الشاب فقرر المكوث فى جنوب أفريقية للدفاع عن قضيتهم ورفع الحيف عنهم . وقد بقي يجاهد فى سبيلهم زهاء عشرين عاماً . وكان قد تأثر بالروح الدينية الهندوكية وبتعاليم المسيح وتولستوى ورسكن وثوراو فاسس بالقرب من دربان مزرعة شبه اشتراكية ومحفلا على نحو مايفعل المتصوفة الهندوكيون ؛ وساعد الانكليز فى حرب البوير وقتال قبائل الزولو واتخذ طريقة العصيان المدني فى المطالبة بحقوق الهنود . وانصرف عند عودته الى الهند عام ١٩١٤ الى دراسة أحوالها ، وخرج من عهد دراسته هذا يدعو الى نبذ المنسوجات الاوربية وتشجيع الصناعة الوطنية واتخذ المغزل شعاراً له . وقد رأى أصحاب مصانع النسيج الهنود في غاندي أكبر اداة يستطيعون الانتفاع بها ضد الرأسمالية الانكليزية فساعدوه وأمدوه بالاموال الطائلة . (Hans Kohn A History of Nationalism in The East ص ٢٩٨–٤٠٦)

الوسطى . فقد اعتمد غاندي على الاحساسات الروحية التي استحوذت على الشعب للأخذ بقياده وتسييره في الطريق السلمي ، وهو ما كان ينشده الرأسماليون الهنود . واتبع في جهاده ثلاث قواعد : « اللاعنف » و « اللاتعاون » ، ومقاطعة البضائع الانكليزية والعصيان المدني الذي اشتمل فيما بعد على الامتناع عن دفع بدلات الايجار ومكوس الملح .

واشتدت الحركة الوطنية بين سنتي ١٩١٩ و ١٩٢١ فاشترك الملايين من الهنود بالمظاهرات والاضرابات ومختلف صنوف المقاومة . واتخذت الحكومة تجاههم أشد الاجراءات وقابلتهم بالارهاب ففاجأت الجماهير من الرجال والنساء والاطفال بنيران الرشاشات ففتكت بالالوف وعم الارهاب جميع أطراف الهند[1] . ولكن الفضائع التي ارتكبتها السلطة لم تزد النار الا لهيباً . فقد اشتد ساعد المؤتمر فاجتمع في صندوقه ما ينوف عن مليون ليرة انكليزية وبلغ عدد أعضائه العشرة ملايين . غير ان ارهاق المستعمرين شجع روح التطرف فخشى الرأسماليون الهنود العاقبة واضطروا الى التساهل مع الانكليز لحماية مصالحهم فحملوا المهاتما غاندي على مفاوضة الانكليز فكان هذا التخاذل

---

(١) وكانت قاطرات السكك الحديدية تمر بالقرى فتفتح على الاهلين فيها نيران الرشاشات من غير انذار لمجرد الارهاب فتفتك بالمئات من الابرياء ، وأطلقت الطيارات قنابلها من دون تعيين فالقت احدى الطيارات القنابل على مدرسة خالصا العالية ، وقتلت الرشاشات في حديقة جلالينوالا في مدينة ارمتسار خمسة آلاف شخص في عشر دقائق ، وأصدر الجنرال داير حاكم هذه الولاية أمراً الى الهنود ان يمشوا على الاربع في بعض الطرق اسوة بالدواب . (Beauchamp ص ١٧٢ — ١٧٥) وفتكت السلطات بالمساجين فذبحت أربعة آلاف سجين وقتلت جمعاً كبيراً منهم في القطار خنقاً وهم مسوقون الى أحد السجون (Ralph Fox ص ٧٣)

سبباً في تشديد السلطات الخناق على الشعب فشددت الاجراءات وقبضت على زعماء المؤتمر ؛ الا غاندي الذي خشيت ان يثير توقيفه ما لا قبل لها به . وقابل المؤتمر هذا التعنت بمثله فقرر اعلان العصيان المدني الشديد ومنح غاندي سلطة مطلقة لادارة سير المقاومة . وتجاوز الفلاحون وعامة الشعب النطاق الذي ضرب به المؤتمر للحركة فامتنعوا عن دفع الضرائب ونشبت المعارك الدموية بينهم وبين السلطة ، فخشي رجال المؤتمر ان يخرج الشعب من قبضتهم و ينقاد للمتطرفين فحملوا غاندي مرة اخرى على توقيف حركة العصيان فخذلت الحركة خذلاناً عظيماً وتبلبلت الافكار واغتنمت السلطة هذه الفرصة مرة اخرى فالقت بـ ٢٥٠٠٠٠ من الوطنيين في غياهب السجن وحكمت على غاندي بالسجن لست سنوات (صيف سنة ١٩٢٢) .

وانقسمت جبهة الوطنيين على أثر ذلك الى معتدلين وهم الذين اكتفوا بالمطالبة بنظام الممتلكات البريطانية ، ومتطرفين وهم الذين قرروا العمل على تحقيق الاستقلال التام ؛ وقويت الميول الشيوعية والمتطرفة بين جماهير العمال والفلاحين فتألف حزب العمال والفلاحين في البنغال وفي بومبي والبنجاب ؛ وتغلب المتطرفون على المعتدلين في المؤتمر فحملوهم على تقرير المطالبة بالاستقلال التام والتعاون مع عصبة مقاومة الاستعمار وتأييد كفاح الصين ضد المستعمرين[1] .

على ان الشقة بين المعتدلين والمتطرفين أخذت تتوسع شيئاً فشيئاً . فلما أوفدت وزارة المحافظين بعثتها لدرس حالة الهند وتقديم تقرير عنها ؛ برئاسة السر جون سيمون ، وكان الرأي العام يميل لمقاطعتها ؛ تردد أعضاء المؤتمر بادي

---

(١) Beauchamp ص ١٧١ — ١٨٤

الامر ثم عادوا فخذلوا الشعب مرة اخرى بتقرير سياسة التعاون ؛ وخالفهم المتطرفون — لاسيما أعضاء حزب العمال والفلاحين — فحملوا الشعب وقادوه في مقاطعتها ونظموا المظاهرات وقابلوا البعثة باشد مظاهر الاستياء وأعلنوا الاضراب في بومبي وكلكتة ومدراس وكثير من مدن الهند . ولما اجتمع المؤتمر ورفع الى الحكومة بيانه في المقترحات التي وضعها رداً على مقترحات بعثة سيمون على أساس نظام الممتلكات[1] لم يرتح الرأي العام له وأسس المتطرفون عصبة استقلال الهند في البنغال لتحقيق الاستقلال والقضاء على الفروق الاقتصادية واقامة دولة اشتراكية ، وكان جواهرلال نهرو و بعض رفاقه يميلون الى مساندة هذه العصبة . ولكن غاندي الذي عاد الى السياسة بعد سنة ١٩٢٨ راح يسعى لتسوية الخلاف بين المتطرفين والمعتدلين حتى حمل المؤتمر على قبول مبدأ الاستقلال التام اذا لم تمنح الحكومة نظام الممتلكات في ظرف اثني عشر شهراً . غير ان حزب العمال والفلاحين عقد في الوقت عينه مؤتمراً في كلكتة وقرر الاصرار على المطالبة بالاستقلال التام والغاء جميع الامارات ومصادرة جميع الاراضي وكافة وسائل الانتاج والتوزيع . وأخذ نفوذ المؤتمر الوطني منذ ذلك الحين يتضاءل شيئاً فشيئاً و يحل محله نفوذ حزب الفلاحين والعمال وجمعيات الشبان الاشتراكيين[2] .

واضطر الانكليز والمؤتمر ان يعودوا مرة اخرى الى المفاوضات للتعاون

---

(١) نشر هذا البيان (الذي دعي ببيان نهرو) في آب سنة ١٩٢٩ وكان موقعاً من البانديت موتيلال نهرو رئيس حزب المؤتمر والسر تاج باهادور سابرو زعيم الاحرار وجواهرلال نهرو الذي خلف أبوه بعد ذلك في رئاسة المؤتمر وخمسة من الزعماء المعروفين

(٢) Beachamp ص ١٨٣ — ١٨٩ ، Ralph Fox ص ٦٣ — ٦٨

على ايقاف تيار التطرف[١] فاقترحت حكومة العمال[٢] سنة ١٩٢٩ عقد مؤتمر الطاولة المستديرة واجتمع زعماء المؤتمر في دلهي فاصدروا بياناً بموافقتهم على عقد مثل هذا المؤتمر على أساس منح الهند نظام الممتلكات (الدمنيون) واطلاق سراح المسجونين السياسيين . ولكن ضغط الرأي العام على زعماء المؤتمر اضطرهم الى مقاطعة مؤتمر الطاولة المستديرة الاول فاجتمع بدونهم . وعلى أثر انتهاء اجتماعه شرعت حكومة العمال بمفاوضة غاندي في سجنه فتم الاتفاق بين الطرفين على ايقاف حركة العصيان المدني التي بدأها غاندي قبل عام بعد ان أبدت الحكومة الانكليزية تسامحاً ظاهراً تجاه المسجونين السياسيين وتساهلت بعض التساهل فيما يتعلق بضريبة الملح . فزاد ذلك في نفرة المتطرفين من غاندي الذي استمر يبدي التسامح مع الانكليز غير ملتفت الى ما كان يصيب المجاهدين من السواد الاعظم في غياهب السجون وما نزل بفقراء الفلاحين من الحيف بمصادرة السلطات أراضيهم . واشتدت

---

(١) وكان المؤتمر قد قرر سنة ١٩٢٨ ان يعلن العصيان المدني ويطالب بالاستقلال التام اذا لم تمنح الهند نظام الممتلكات في خلال سنة واضطر تحت ضغط الرأي العام ان ينفذ هذا القرار في اجتماعه الذي عقد بلاهور في كانون الاول سنة ١٩٢٨ وأعلن غاندي الحرب ضد ضريبة الملح والبضائع الانكليزية فهب السواد الاعظم لنصرته في جميع أطراف الهند وامتدت الحركة الى حدود الهند الشمالية فاحتلت القبائل مدينة بشاور وشولابور وتمردت بعض فرق الجيش الهندي فخشي غاندي ان تخرج الحركة من يده فتراجع وخذل الشعب من جديد . وقبضت السلطة عليه فاخذ يفاوض الحكومة الانكليزية وهو في السجن حتى تم الاتفاق على عقد مؤتمر الطاولة المستديرة

(٢) ومع ان حكومة العمال تدعي الاشتراكية فقد سارت على عين الخطة الارهابية التي اتبعها المحافظون ولم يكن في موقفها تجاه الهند أي انحراف عن سياسة بريطانية الاستعمارية

حركة العنف على الاثر فاضطرت الحكومة ان تعود الى سياسة الارهاب والارهاق فاعادت غاندي الى السجن وعادت تدبر معه خدعة جديدة للتخفيف من غليان حركة العصيان والعنف التي عمت البلاد فتم الاتفاق بينهما على عقد مؤتمر الطاولة المستديرة الثاني الذي التأم بلندن بين تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ وكانون الثاني سنة ١٩٣١ وحضره غاندي — وكان أطلق سراحه على الاثر — ولم يتوصل هذا المؤتمر الى شيء يستحق الذكر فقد كان الاستعمار البريطاني — يؤيده الامراء والرجعيون من الهنود علناً و يسنده الوطنيون باستحياء — مصراً على ان يبقى محتفظاً بسلطته المطلقة لاستغلال الشعب الهندي[١] .

ولما عاد غاندي الى الهند في كانون الاول سنة ١٩٣١ وجد الشعب من فلاحين وعمال قد أداروا عنه وجوههم شطر اليسار وكانت أحوالهم في خلال الازمة الاقتصادية قد بلغت أحط الدركات وسحقتهم الديون والضرائب وزاد في و يلاتهم تدهور العملة وانخفاض اسعار المحاصيل الزراعية انخفاضاً لم يسبق له مثيل ؛ وانتشرت بينهم روح التمرد فرفعوا علم الثورة في كثير من جهات الهند فاحرقوا المزارع وفتكوا بالملاكين ودمروا من الاموال ما ينوف عن ٤٠٠٠٠ ليرة انكليزية في ولاية بيرار وحدها ، وأمسكوا عن دفع بدلات الايجار وضريبة الارض في كثير من الولايات . وتغلغلت الروح الثورية في نفوس العمال فهبوا معلنين الاضراب منادين بسقوط غاندي — « غاندي الخائن » . واضطر غاندي ورجال المؤتمر الى الاستسلام لهذا التيار الجارف

---

(١) Ralph Fox ص ٦٤ — ٧٠

فاعلنوا العصيان المدني وفتحت لهم أبواب السجون فآووا اليها يسترون بها هزيمتهم المريعة . واقتصر غاندي عمله بعد هذا الخذلان على الدفاع عن المنبوذين وبذلك أحسن التخلص من هذه الورطة وأفل نجمه في ميدان الجهاد السياسي . وانصرفت السلطة الى اخماد نيران هذا البركان المندلع الى وسائل الارهاب والى الافراط في بث بذور التفرقة والشقاق وألقت بمئات الالوف في ظلمات السجون وهب الرأسماليون الهنود الى معونتها لدفع هذا الويل الوبيل الذي أخذ يتهدد مصالحهم(١) .

وكانت الحركة الثورية قد انبعثت في الهند عقب الانقلاب الروسي الذي شمل بلاد تركستان المحاذية للأفغان فالهند ، وكانت ضيقة النطاق أول الامر غير ان الارهاب والعسف اللذين استعملها المستعمرون في اخماد الحركة الوطنية والضعف والتبلبل الذي أبداه زعماء هذه الحركة وتدهور أحوال السواد الاعظم الذي أخذ يشعر يوماً بعد يوم ان الحركة الوطنية تسعى الى غير ما ينشده من الرفاه المادي ، ساعد على انتشارها واستحواذها على الجماهير ، سيما العمال الذين نما عددهم بتوسع الصناعة المحلية وانتشار السكك الحديدية وتكاثر المعامل والمناجم ؛ وكانوا أول من أحس ان لا فرق بين الرأسماليين الوطنيين واخوانهم الاجانب في ارهاق العامل واستغلاله فنضموا صفوفهم وأسسوا النقابات وقاوموا الرأسماليين الوطنيين والاجانب على حد سواء . واستحوذت هذه الروح على الفلاحين الذين كانوا يقاسون من الامراء والملاكين والزراع أفضع أنواع الجور لما شاهدوا الوطنيين من رجال هـذه

---

(١) Beauchamp ص ٢٠٨ — ٢٢٢

الاصناف يتعاونون مع الاجنبي المستعمر على ارهاقهم ، فانضموا الى اخوانهم العمال وألفوا معهم جبهة تزعمتها أحزاب العمال والفلاحين وجمعياتهم لمحاربة المستعمرين والامراء والراجات والرأسماليين من غير تفريق والعمل على تحطيم أغلال العبودية وازالة معالم الاستغلال الذي أوصلهم الى حافة الهلاك . وبذلك تقدمت حركة الهند الحركات الوطنية في الشرق الاوسط والادنى وأمست تهدد الاستعمار البريطاني في الصميم . ومما يزيد في خطرها على الاستعمار العطف الذي تجده من العمال البريطانيين واحتمال تعاون الطرفين ضد الرأسمالية عدوهما المشترك .

***

الحركة الوطنية في مصر : تهيأت أسباب اليقظة لمصر قبل سواها من بلدان الشرق ، فقد حمل نابليون اليها رسالة الثورة الفرنسية ، وأقامت جيوشه فيها زهاء خمسة أعوام زرعت في خلالها بذور الاصلاح ، واهتم العلماء الذين جاء بهم اليها باكتشاف معالم مدنيتها وبدأوا بالتنقيب الذي أدى الى اكتشاف آثار الفراعنة التي أدهشت الاوربيين ورفعت من شأن مصر وبعثت في نفوس المصريين روح الاعتزاز بماضيهم وحملتهم على العمل لتبوؤ المكان اللائق بهم بين الامم (١) .

وكان لما قام به محمدعلي الكبير من تحسين أحوال الزراعة والعناية بشؤون الفلاح ونشر التعليم وايفاد البعثات الى أوربا وتأسيس المدارس

(١) Hans Kohn, A History of Nationalism in The East
ص ١٧٤ — ١٧٦

العالية وسوق الجيوش المصرية لحرب الوهابيين واحتلال السودان وسورية والفوز الذي أحرزه على الجيوش العثمانية تأثير عظيم في تمزيز الشعور الوطني في مصر وتنبيه الاذهان في الشرق الادنى .

ولكن الرأسمالية الاوربية التي اتخذت من تبذير الخديو اسماعيل باشا ذريعة للتدخل في شؤون مصر ، واكتشفت في وادي النيل أرضاً صالحة لزراعة القطن ، ووجدت في قناة السويس مدخلاً جديداً الى الشرق ؛ أفسدت على مصر نهضتها وسدت في وجهها سبل التقدم .

وكان من أعظم ما ساعد الرأسمالية الاوربية في فوزها هذا وفي تبسط الاستعمار في مصر سوء أحوال مصر الاقتصادية والاجتماعية ؛ فقد نشأت فيها بعد شيوع زراعة القطن طبقة ارستوقراطية من عناصر أجنبية تمكنت من الاستحواذ على موارد الثروة والقبض على مناصب الدولة فاستعبدت الفلاح وحالت دون تحسن أحوال الشعب . ومع ان زراعة القطن تعود على مصر بمبالغ طائلة كل سنة الا انها كانت وبالاً على الشعب في النظام الحاضر ، لأن القسم الاعظم مما تعود به يتسرب الى جيوب الملاكين من الارستوقراطيين ولا يحصل الفلاح منه على غير ما يسد الرمق وبذلك أصبحت الثروة التي تكسبها مصر من القطن سلاحاً بيد أعداء الشعب وسند الاستعمار . وقد احتكرت زراعة القطن كذلك أراضي وادي النيل وجعلت من سواد الشعب المصري الذي ينوف عدده على الـ ١٤ مليون نسمة كتلة واحدة من الفلاحين الذين سحقتهم الفاقة وأطبق عليهم الجهل وتوقفت

حياتهم على سوق لنكشير(١) ، وحرمت مصر من الحياة الصناعية التي كانت أكبر سائق للشعوب الى النهوض والتقدم (لم ينشأ في مصر سوى صناعات قليلة تحت سيطرة الجاليات الاجنبية في القاهرة والاسكندرية) فالحركة الصناعية تستلزم انتشار العلم وهي تدفع الفرد للتطور بخلاف الحياة الزراعية التي يمكن ان تدوم على الجهل وتساعد على تمكن الرجعية في النفوس .

ان هذا النظام الاقتصادي الفاسد كان ولا يزال أكبر عامل في افساد المجتمع المصري اذ انه أوجد طبقة ارستوقراطية طائلة الثروة مفرطة في البذخ والاسراف تستغل الشعب وتحتقره وتعتمد على الاجنبي وتساند الاستعمار وتدس في المجتمع السموم ؛ وشعباً أكلته الفاقة واستحوذ عليه الجهل واكتنفته الرجعية وأرهقه الرأسماليون وعبثت بشؤونه مكايد الاستعمار وأحابيل المضللين . وانه لمن المؤلم حقاً ان تعجز مصر — التي جعلت شعوب الشرق الادنى منها قدوة وأتخذتها اماماً — عن التخلص من هذا الوضع الذي سد بوجهها أبواب النهضة والتقدم .

ولكن مصر بالرغم من هذا الركود الذي تغلغلَ في جميع مناحي الحياة العامة فيها مقبلة — على ما يظهر — على عهد جديد بعد ان قاربت الوطنية التقليدية فيها ان تزول . وقد كانت هـذه الوطنية التقليدية من جملة ما عرقل على مصر سير نهضتها لاشغالها الشعب بما لا طائل تحته عن شؤونه الحيوية وما يؤدي به الى الرفاه والاطمئنان والتقدم ؛ ولأنها كانت في مختلف أدوارها اداة بيد الطبقة الوسطى التي قام النزاع بينها وبين الطبقة الارستوقراطية

(١) Ralph Fox ص ٨٤ — ٨٥

على الحكم وأسباب الاستثمار . وقد تزعمها في دورها الاول ، عرابي باشا والضباط المصريون الذين ساءهم احتكار الشركس والاتراك المناصب في الجيش والادارة ؛ وكان الفلاح قد ضاق ذرعاً باولئك للموظفين الطغاة من الاجانب فأيد عرابي باشا ورفاقه في معارضته لهم[1] .

ودخلت الحركة الوطنية دورها الثاني في أواخر القرن التاسع عشر اذ تزعمها مصطفى كامل ورفاقه الشبان الذين درسوا في أوربا وتغلغلت في

---

(١) كان عرابي باشا أول مصري رقي الى رتبة « أمير ألاي » في الجيش المصري اذ كانت الرتب العالية محتكرة لضباط الشركس والاتراك . وكان عرابي باشا — بخلاف زملائه الضباط المصريين — خطيباً درس في الازهر بضع سنوات فاتقن اللغة العربية ، وكان فضلا عن ذلك أول من تغلغلت فيه الروح الوطنية فافتخر بعصريته وجمع حوله زملاءه المصريين ورفع راية العصيان احتجاجاً على ما أصابهم من حيف . واتصل بالاوساط التي تشبعت بروح جمال الدين الافغاني وتزعم الفلاحين الذين نقموا على الموظفين الاجانب فاصبح زعيم أول حركة وطنية ظهرت في مصر . وكان ازدياد تدخل المستعمرين من انكليز وفرنسيين قد أثار استياء رجال الطبقة العليا الذين خشوا عواقب هذا التدخل على مصالحهم فانضموا الى الجبهة الوطنية فاضطر الخديو توفيق باشا أمام هذه الجبهة المتراصة ان يوافق على تأليف وزارة من الوطنيين اسند منصب وزارة الحربية فيها الى عرابي باشا . ولكن انكلترة وفرنسة تدخلتا في الامر وأرغمتا هذه الوزارة على تقديم استقالتها وطلبتا ابعاد عرابي باشا عن مصر ، فثار المصريون واضطر الخديو ان يلتجئ الى الانكليز . وأخذ الاهلون يحصنون الاسكندرية بالرغم من انذار قائد الاسطول البريطاني فاطلقت الدارعات الانكليزية النار عليهم فاشتد حماسهم وأصدر رئيس الازهر فتوة بخلع الخديو وتألفت لجنة للدفاع عينت عرابي باشا قائداً عاماً . ولكن الانكليز فازوا بتفريق هذه الجبهة اذ استرضوا الكثيرين من رجال الطبقة العليا بالرشوة وبالوعود ونجحوا بحمل السلطان على اعتبار عرابي باشا خارجاً على الدولة العثمانية (وكانت لها سيادة اسمية في مصر) فاضطربت صفوف الوطنيين وتبلبلت آراؤهم فسهل على الانكليز الانتصار على عرابي باشا في واقعة تل الكبير في ١٣ ايلول سنة ١٨٨٢ ؛ ونفي الى سيلان وعاد في اخريات أيامه الى مصر فتوفي فيها عام ١٩١١

نفوسهم روح الوطنية الاوربية الحديثة . وكانت الحركة في هذا الدور تمثل يقضة الطبقة الوسطى في المدن بخلاف حركة عرابي باشا التي استمدت قوتها من الفلاحين وسكان الارياف . وكان مصطفى كامل – الذي أنعم عليه السلطان عبدالحميد بلقب الباشوية سنة ١٩٠٤ تقديراً لخدماته للوحـــدة الاسلامية – ينتظر المعونة من فرنسة التي كانت تظهر العطف على المصريين لتشجعهم على مقاومة الاستعمار البريطاني ، فلما تم تسوية الخلاف بين انكلترة وفرنسة في سنة ١٩٠٤ لم يبق له أمل بهذه المعونة . وكان قوام هذه الحركة الخطب الحماسية واذكاء الروح الوطنية ؛ وقد ألقى مصطفى كامل باشا أول خطاباته على ألفين من السامعين في القاهرة في تموز سنة ١٨٩٧ فكانت فاتحة جهاده . وأصدر سنة ١٩٠٠ جريدة « اللواء » ودعى الى نشر التعليم وعمل على تأسيس المدارس والقاء المحاضرات وفتح الصفوف المسائية وجمع التبرعات لمساعدة فقراء الطلاب ؛ وألف الحزب الوطني الذي اندمج بحزب الامة برئاسته في سنة ١٩٠٧ وقد توفى في شباط سنة ١٩٠٨ . وبقيت هذه الحركة الوطنية تقاوم الاستعمار البريطاني الذي استحوذ على مصر بعـد سنة ١٩٠٤ وحرم أبناء الطبقة الوسطى الوظائف والمناصب التي استولى عليها الانكليز . وكان اللورد كرومر في هذه الاثناء يحكم مصر مطلق اليد ؛ وخلفه السر ايلدن غورست واللورد كشنر من بعده فحذوا حذوه في تعزيز سلطان الاستعمار .

ان الحرب العامة أدخلت الحركة الوطنية في دورها الاخير فقد كشفت بريطانية في مستهلها عن حقيقة صلتها بمصر بجعلها تحت الحماية البريطانية والحكم المباشر

وباعلان الاحكام العرفية فيها وتعطيل الجمعية التشريعية واتخاذ قناة السويس مقراً لجيوشها ؛ وشهد الشعب المصري أهوال الاستعمار المكشوف في خلال تلك الزوبعة العالمية فيما قاساه على يد الجيوش الاسترالية والهندية وما فرض عليه من العمل الاجباري والضرائب والاعانات وغير ذلك مما يجري عادة في ظل الحكم العسكري ، فقويت في نفسه النقمة على الاستعمار وتمهد بذلك السبيل لاندفاع مختلف الطبقات الى معمعة الجهاد الوطني عقب انتهاء الحرب العامة ؛ فاشترك الفلاح مع رجال الطبقة الوسطى في المدن وفي الارياف في مكافحة الاستعمار والمطالبة بالاستقلال بزعامة سعد باشا زغلول رئيس الوفد[١] .

كان سعد كعرابي من أبناء مصر الذين تدرجوا من طبقة الفلاحين الى صفوف الطبقة الوسطى ، وكان من أعضاء حزب الامة قبل ان يندمج بالحزب الوطني ، وقد اشترك بوزارة محمد سعيد باشا وبقي يشغل كرسي وزارة العدلية فيها حتى سنة ١٩١٢ . فلما كانت سنة ١٩١٣ — التي عدل فيها القانون الاساسي فالغيت الجمعية التشريعية بمقتضى هذا التعديل وجرت الانتخابات في سعة من الحرية — انتخب سعد رئيساً للجمعية وبقي كذلك الى اعلان الحرب العامة . فلما انتهت الحرب ظهر على رأس الحركة الوطنية وترأس الوفد الذي خوله الشعب المصري في أواخر سنة ١٩١٨ حق مفاوضة بريطانية والمطالبة باستقلال مصر . ولكن المعتمد السامي البريطاني رفض السماح

---

(١) Hans Kohn, A History of Nationalism in The East ص ٢٠١ — ٢٠٢

للوفد بالسفر الى لندن فادى الخلاف بين الطرفين الى نفي سعد وثلاثة من زملائه (حمد باشا الباسل ومحمد محمود باشا واسماعيل صدقي باشا) الى مالطة ، فقامت على أثر ذلك المظاهرات في المدن وأضرب الطلاب والمحامون ودمر الفلاحون السكك الحديدية وأعمدة البرق وانقطعت القاهرة عن بقية أنحاء القطر .

وكانت انكلترة مصممة على ابقاء الحكم المباشر فقمعت الحركة بعنف ووصل اللورد اللنبي في ٢٥ آذار . وكان الموظفون البريطانيون في مصر وزعماء الاستعمار مثل اللورد كرزن في لندن والصحف البريطانية الاستعمارية يظهرون الحركة الوطنية المصرية الى الشعب الانكليزي على غير حقيقتها ليبقى الاستعمار يعبث بمقدرات الشعوب مطاق اليـــد . فلما ضاقت على المصريين سبل العمل الايجابي ركنوا الى العصيان المدني فاضرب الموظفون اسوة بالطلبة والمحامين ووقف الاقباط الى جانب المسلمين (وذلك من أهم مميزات هذا الدور) واشتركت النساء في المظاهرات حتى اذا اشتدت المقاومة تظاهر الانكليز بشيء من اللين فاطلقوا سراح سعد فسافر مع رفاقه الى باريس ، وألفوا وزارة من الوطنيين المعتدلين برئاسة رشدي باشا .

ولم تر حكومة لندن مفراً من الاعتراف بالواقع فاوفدت بعثة اللورد ملنر لاستطلاع الحالة وتقديم تقرير عنها — وذلك اسلوب اعتاد البريطانيون ممارسته في أوقات الشدائد لاشغال الناس وتمضية الوقت ريثما يتمكنون من قمع الحركات و بذر الشقاق وتفريق الصفوف . ولـكن الشعب قاطع هذه البعثة التي مثلت الطرف الانكليزي وحده . وكانت الحـكومة البريطانية قـــد

كشفت في هذه الاثناء عن عزمها على اقامة مشاريع الري وزراعة القطن في السودان فبعثت الرعب في قلوب للملاكين وأصحاب المزارع من المصريين الذين خشوا ان تستنفذ هذه المشاريع حياة النيل وتنافس القطن المصري فاشتد حنقهم على الاستعمار .

وفي شباط سنة ١٩٢١ أتمت اللجنة تقريرها وقد اقترحت فيه ان تقوم الصلات الانكليزية المصرية على أساس عقد معاهدة تضمن مصالح الطرفين . وعاد زغلول باشا الى مصر في شهر نيسان فاستقبله الشعب استقبالاً فخماً . ولـكن الانكليز كانوا قد أتموا تدابيرهم في هـذه الاثناء فاوجدوا ثغرة في الجبهة الوطنية ينفذون منها لتحقيق مآربهم فخلقوا لهم من الارستوقراطيين الذين خافوا توسـع نفوذ الوفد ، أعواناً ولوهم الحكم ؛ واستمروا يضيقون الخناق على الحركة الوطنية — وكانت حكومة لندن يومئذ بقبضة الاستعماريين مثل تشرشل وكرزن — فنفوا سعداً وثلاثة من رفاقه الى سيشل فجددوا بذلك عهد الاضطرابات الذي مر على مصر بعد سنة ١٩١٨ . وكانت المفاوضات بين النبي وأعوانه الارستوقراطيين جارية للوصول الى مايخدر الشعب ولو الى حين ، حتى توصلوا الى « تصريح ٢٨ فبراير » الذي لم يكن فيه شيء يستحق الذكر سوى منح السلطان لقب « ملك » . وتولى ثروة باشا صاحب هذه المفاوضات رئاسة الوزارة وعاد زغلول الى مصر في خريف سنة ١٩٢٣ . وفي أوائل سنة ١٩٢٤ اجريت انتخابات البرلمان المصري ففاز الوفد بالاكثرية وألف زغلول الوزارة . وكان العمال قد توصلوا الى الحـكم في انكلترة فجرت بين زغلول ومكدونالد مفاوضات لم تقصد الحـكومة البريطانية منها سوى

تمضية الوقت للفت في عضد الحركة الوطنية المصرية[١] وقد كشفت هذه المفاوضات عن حقيقة رجال حزب العمال (الذين كانوا يدعون الاشتراكية) وأثبتت انهم لا يمتازون بشيء في سياستهم الخارجية عن تشرشل وكرزن وغيرهما من الاستعمار بين الاقحاح[٢] .

ولما جاء المحافظون الحكم على أثر فشل المفاوضات بين سعد ومكدونالد أخذوا يتحينون الفرص للايقاع بالوفديين والتخلص من وزارتهم . وكانت القاهرة يومئذ تغلي من شدة الحماس الذي غمر الحركة الوطنية المصرية . وكان مكدونالد قد أعلم المعتمد السامي ان بريطانية مصممة على الاحتفاظ بسيادتها في السودان فازاد ذلك في هياج المصريين وكان من جملة أسباب اغتيال السردار السر لي ستاك — حاكم السودان — في ١٩ تشرين الثاني سنة ١٩٢٤ . فوجدت حكومة المحافظين في ذلك الوسيلة التي تخلصت بها من وزارة سعد .

وكان الاتفاق قد تم بين الجهات المصرية العليا والانكليز على مقاومة الوفد فدخلت مصر دور الحكم الدكتاتوري . وانتدب المحافظون اللورد لويد للقيام بمهمة الحكم المباشر في عهده الجديد . ولا زال هذا الوضع قائماً في مصر وان تخللته بعض فترات اضطر الانكليز فيها الى قبول تولي الوفديين ريثما يتمكنون من التخلص منهم بتدبير المكايد مع أعوانهم الارستوقراطيين .

---

(١) Nationalism and Imperialism in The Hither East, by Hans Kohn, Chap. x

(٢) Ralph Fox ص ٨٥ — ٨٦

وهكذا قضت مصر زهاء عشرين عاماً تتخبط في مكايد المستعمرين ودسائس الارستوقراطيين وتخاذل الوطنيين . ولعل القسط الاعظم من مسؤولية تخاذل الحركة الوطنية فيها يرجع الى جمود الوفد وتمسكه باساليب فات أوانها ولم يعد يرتجي من ورائها أي نفع ؛ فهو لا زال بعد كل هـذه التجارب القاسية يأمل الوصول الى الاتفاق مع الانكليز بطريق المفاوضات شأن جميع أحزاب الطبقات الوسطى التي تتخذ السياسة وسـيلة للغنم ولصيانة حقوق طبقتهـا . والوفد هو المسؤول كذلك عن فهم الشعب المصري الاستقلال بمعناه الضيق المقصور على التخلص من حكم الاجنبي المستعمر . للوقوع بقبضة المستغلين والمستثمرين من الرأسماليين المواطنين . ولم يعلن الوفد حتى الآن منهاجاً سياسياً يستهدف اصلاح المجتمع المصري وانقاذ الفلاح مما يقاسي من بؤس وتخليصه من مخالب الجهل والرجعية والامراض التي فتكت فيه . ولن يستطيع الوفد الالتفات الى مثل هـذه الشؤون الشعبية ما دام قوامه العمد والملاكون وأغنياء الطبقة الوسطى .

وقد بدت في مصر طلائع حركة العمال منذ عام ١٩١٩ يوم أضرب عمال الترامواي في القاهرة والاسكندرية وطالبوا بتزييد الاجور وتحديد ساعات العمل وضمان العامل في حالتي المرض والعطل ؛ وقد استمر اضرابهم بضعة أسابيع حتى اضطرت الشركات في النهاية الى تنفيذ مطاليبهم . وانتشرت جمعيات العمال في أنحاء القطر المصري فبلغ عددها سنة ١٩٢٢ ثمانياً وثلاثين جمعية في القاهرة ، وثلاثاً وثلاثين في الاسكندرية ، وثماني عشرة في منطقة القناة وستاً في الضواحي . وتألف حزب اشتراكي معتدل

فظهرت فيه زمرة من المتطرفين بزعامة محمود حسني العرابي الذي زار موسكو في سنة ١٩٢٢ وأوثق الصلة بالدولية الثالثة وعاد الى مصر فقاد الجناح الايسر داخل الحزب حتى فاز بالاغلبية فيه . وأخذ هذا الحزب يطالب بحقوق العمال ويقاوم الاستعمار والتشريع الرجعي والاقطاع . فلما كانت سنة ١٩٢٤ اشتد النزاع بين العمال والرأسماليين فاضرب العمال في الاسكندرية واحتلوا المعامل بضعة أيام ؛ فاتخذ سعد من ذلك ذريعة للقضاء على هذه الحركة المناوئة لحركة الطبقة الوسطى التي يمثلها فقضى عليها وهي في المهد[1] . وقد أصبحت حركة العمال في الوقت الحاضر العوبة بيد الارستوقراطيين والوفديين ، غير ان مثل هذا الوضع لا يمكن ان يدوم .

ان الركود المخيم على الحركة الوطنية في مصر بعد الحماس الملتهب الذي تجلت به بين عامي ١٩١٨ و ١٩٢٤ ، وعجز الوفد عن اتخاذ الوسائل الفعلية لحل مشاكل البلاد ، وتدني حالة الفلاح والعامل تدنياً لم يسبق له مثيل ، والبون الفاحش بين حالتي السواد الاعظم والطبقات الخاصة ؛ كلها تشير الى ان عهد الوطنية التقليدية قد أشرف على الزوال وان مصر تتهيأ الآن لعهد جديد .

ومصر — كسائر بلدان الشرق الادنى — تفتقر الآن الى مثل تلك الروح التي انبعثت في الهند فحملت الشعب على نبذ الوطنية التقليدية بعد ان وجد انها خذلت قضية البلاد بميلها الى مساومة المستعمرين واستهدافها

(١) Hans Kohn, A History of Nationalism in The East ص ٢١٤ — ٢١٥

تحقيق مصالح الطبقة الخاصة ، ورأى ان رجالها كانوا عوناً للاستعمار على تمزيق وحدة البلاد وتفريق الصفوف بمنازعاتهم الشخصية وسعيهم وراء النفع الذاتي .
وسيكون الصراع بين الاستعمار وشعوب الشرق صراعاً عنيفاً لا مهاودة فيه .
وسيكون الفوز فيه للشعوب حتماً ؛ فالاستعمار الذي استطاع ان يحتفظ بسيطرته على بلدان الشرق ببذر بذور التفرقة والشقاق واثارة الفتن وسوق الشعوب وراء الاوهام وتدبير المكايد مع صنائعه من أبناء البلاد لن يتسع له المجال لاستخدام مثل هذه الاساليب بعد ان تتغلغل الروح الجديدة فى صفوف السواد الاعظم وتحمله على توحيد الكلمة لمطاردة الرأسماليين والمستغلين وأعوان الاستعمار من غير تفريق .

الفصل الحادي عشر

صلات روسية السوفيتية بالشرق الاوسط والادنى

كانت روسية القيصرية من أشد الدول الرأسمالية اندفاعاً لاستعمار بلدان الشرق ، وكان استعمارها — وهو وليد النظام الفاسد الذي كانت تتبعه — صريحاً في عسفه فضيعاً في أساليبه ، حتى كان ذكر روسية في بلدان الشرق مثاراً لأشد درجات النفرة والنقمة ، وكان الفوز الذي أحرزته اليابان في حرب روسية سنة ١٩٠٤ مبعث الغبطة والسرور في كافة بلدان الشرق التي اعتبرت هذا الانتصار بشيراً باضمحلال شأن القيصرية .

غير ان النضال بين الشعب الروسي والقيصرية البغيضة كان من جهة اخرى موضوع اهتمام الشرق منذ ان بدت بوادره في أواخر القرن التاسع عشر . وقد كان لثورة سنة ١٩٠٥ — التي حاول الشعب الروسي ان يقتلع بواسطتها النظام القيصري من جذوره — من الوقع في جميع أنحاء الشرق ما لا يقل عما أحدثته الثورة الفرنسية في بلدان القارة الاوربية . فقد انتعشت بتأثيرها روح الحرية في الشرق فنشطت الجمعيات الثورية التي كانت تعمل على خلع السلطان عبدالحميد ؛ وتشجع الاحرار في ايران والصين وفي غيرها من بلاد الشرق في كفاحهم ضد الاستبداد والاستعمار(١) .

على ان انقلاب سنة ١٩١٧ الذي أوجد النظام السوفيتي في روسية

---

(١) The Problem of National and Colonial Policy and The Third International, by M. Pavlovich

وضع الصلات بينها وبين بلدان الشرق وشعوبه على أساس جديد . فان النظام السوفيتي الذي اقتلع القيصرية وأزال آثار الرأسمالية الفردية في روسية ترك كذلك السياسة الاستعمارية التي استلزمها العهد البائد وحمل الحكومة السوفيتية على الوقوف بجانب الشعوب الشرقية المرهقة لمقاومة الرأسمالية والاستعمار . وهذا التعاون بين حكومة السوفيت والشعوب الشرقية قائم على اعتقاد الشيوعيين ان تحقيق النظام الشيوعي ودوامه يستلزم شمول هذا النظام كافة أنحاء المعمورة . ولما كانت الشيوعية تستهدف القضاء على الرأسمالية ، والرأسمالية والاستعمار شيء واحد(١) ؛ ولما كانت الرأسمالية في الجبهة الشرقية أضعف منها في الجبهة الغربية لامكان التعاون ضدها مع الشعوب المرهقة في المستعمرات ؛ قرر الشيوعيون ان يبدأوا بمنازلة الرأسمالية في الشرق دون الغرب . ومما حملهم على اتخاذ هذه الخطة أيضاً ما تبين لهم في تجربة الانقلاب الروسي ، من ان تحقيق الشيوعية في المستعمرات والبلدان التي تكون فيها الاسس الرأسمالية غير راسخة أسهل من تحقيقها في الممالك الصناعية التي بلغت فيها الرأسمالية أوج قوتها(٢) ؛ واعتقادهم ان الاستعمار الذي يفسح المجال لارهاق مئات الملايين من سكان المستعمرات وابتزاز أعظم مقدار ممكن من الربح لرؤوس الاموال قد ساق الرأسماليين — لتسهيل الحصول على هذا الربح — الى مد السكك الحديدية وانشاء المعامل وتأسيس

---

(١) فالاستعمار هو الدور الاخير من أدوار الرأسمالية

(٢) وهو خلاف ما جاء به ماركس وما كان متوقعاً قبل الثورة الروسية من ان النظام الرأسمالي سيتقوض في الممالك التي تكامل فيها النظام الصناعي قبل البلدان الزراعية المتأخرة.

المراكز التجارية والصناعية وتهيئة ماهو ضروري من التعليم لأبناء الشعوب المستعبدة لاعدادهم للاستخدام ، فتكوّنت في المستعمرات بنتيجة هذه التدابير طبقة من العمال والمفكرين وانبعث الاحساس العام في الجماهير وتغلغلت النزعة الى الحرية في النفوس فتوفرت بذلك جميع وسائل التعاون بين حكومة السوفيت وسكان المستعمرات للقضاء على الرأسمالية والاستعمار . على هذا الاساس جوز الشيوعيون الروس التعاون مع الوطنيين فى الشرق اذ اعتبروا نضال ملك أفغانستان فى سبيل استقلال بلاده نضالاً ثورياً — وان كان القائمون به ملكيين — ما دام يستهدف ازالة الاستعمار ، والكفاح القائم بين التجار والمفكرين من أبناء الطبقة الوسطى وبين الاستعمار فى مصر كفاحاً ثورياً بالرغم من أنهم يقاومون الاشتراكية ويناصبونها العداء . وقد وضعت حكومة السوفيت صلاتها بشعوب الشرق وممالكه على هذا الاساس فاحدثت بذلك انقلاباً فى السياسة الدولية لا يقل خطورة عن الانقلاب الروسي[1] .

على ان الدولية الثالثة فى روسية لم تهمل أمر بث الدعاية الشيوعية فى ممالك الشرق ؛ وكانت الاحوال فيه تشجعها على ذلك . فان وسائل المواصلات — وقد ربطت أجزاء الشرق ببعضه وبالغرب — كشفت للشرقيين عن مظاهر المدنية الغربية والتقدم المادي الذي حققه العلم وأخرجت سكان القرى من عزلتهم الموحشة . ثم جاءت الحرب العامة فعجلت خطى هذا التطور بفسحها المجال للرأسمالية الشرقية ان تنمو وتحظى بالارباح الطائلة ؛ وكانت الاعمال الحربية قد استلزمت ان تصرف بعض نفقات الحرب فى

(١) Stalin, The Theory and Practice of Lininism

الشرق فتوسع من جرائها نطاق الكسب للطبقات الفقيرة فتذوقت لذة الرفاه المحدود لأول مرة واتصلت بالغربيين فعرفت ما لم تكن تحلم به من أسباب العيش ووسائل التمتع فلم تعد تحتمل الفقر فنزعت عنها ثوب القناعة التي فرضت عليها الجمود عدة قرون . غير ان سعة العيش التي أوجدتها الحرب لم تدم طويلاً فقد أعقبتها الازمات الاقتصادية وعاد الرأسماليون فاستنزفوا ما تركته الحرب من الاموال وأنزلوا الشعوب الى أحط دركات الجوع والفاقة . ولم تكن لدى السواد الاعظم — الذي تذوق طعم الرفاه فترة من الزمن — قابلية احتمال الجوع والفاقة فغمرته روح النقمة والتبرم من أوضاعه الاجتماعية فوجد الشيوعيون في ذلك الارض الصالحة لبذر المبادئ الثورية في صفوفه .

وكانت الطبقات الحاكمة في الشرق قد استبشرت أول الامر بالدعاية الثورية اذ اعتبرتها عوناً لها في كفاحها ضد الاستعمار ولكنها لم تلبث ان أحست بالخطر الذي يتهدد مصالحها من جراء هذه الدعاية فعادت الادبار وانحازت الى جانب المستعمرين تعمل معهم على مقاومتها فكان ذلك برهاناً ساطعاً على ان « الاحساسات الطبقية » أشد فعلاً في النفوس من الاحساسات الوطنية (١) . وأخذت الدولية الثالثة (٢) تعمل لاثارة احساس الطبقات في

---

(١) يرى الفاري شواهد هذا التعاون بين المستعمرين ووطنيي الطبقة الوسطى بجلاء في بحث الهند ومصر (الفصل الحادي عشر) . وقد تكررت مثل هذه الشواهد في الممالك الاخرى أيضاً ، فالمهاجرون الفرنسيون مثلا ظاهروا المانية على فرنسة أثناء الثورة الفرنسية ، والطبقة الوسطى الروسية تعاونت مع المانية — عدوة روسية — ومع الحلفاء أيضاً ضد روسية أثناء الثورة

(٢) الدولية الثالثة هي المؤسسة العالمية التي ألفها الشيوعيون لمعارضة الدولية الثانية وقد ألفها الاشتراكيون الاوربيون في خلال الحرب العامة لجوزت الاشتراك في الحرب

الشرق فعقدت في ايلول سنة ١٩٢٠ مؤتمراً من ممثلي الشعوب الشرقية (١) .

دفاعا عن مصالح الوطن . والدولية الثالثة في موسكو هي الهيئة العليا المناط بها أمر البت في كل ما له علاقة بأسس الشيوعية وقواعدها ، وتقرير الخطط التي تلزم باتباعها كافة الاحزاب الشيوعية والمؤسسات المرتبطة بها في مختلف أنحاء العالم ، وتعيين الوسائل والسبل التي يستخدمها الشيوعيون في محاربة الرأسمالية ، وبث الدعاية للشيوعية في العالم ، وتدريب الدعاة ، وتنظيم الجبهة الشيوعية وتوحيد كلمة الاحزاب والكتل الشيوعية في مختلف البلدان والحيلولة دون وقوع الانشقاق والاختلاف فيما بينها ، ومد المؤسسات الشيوعية في العالم بالمال عند الحاجة . وتتألف الدولية الثالثة من مؤتمر ينعقد مرة في السنة على الاقل ، وديوان رئاسة دائم ولجنة تنفيذية وهيئة ادارية غير سياسية (The Intern- ational Commission of Control)

(١) وقد تجلت النزعة الطبقية في الدعوة لعقد هذا المؤتمر كما يتبين من مضمون الفقرة التالية : يا فلاحي ايران وعمالها ؛ ان حكومة طهران القاجارية ومستخدميها — حكام الولايات — قد اختلسوا أموالكم واستغلوكم قروناً عديدة . ان الارض التي جعلتها الشريعة ملكا مشاعاً بينكم قد انتقلت شيئاً فشيئاً الى حوزة خدم حكومة طهران الذين يفعلون ما يحلو لهم فيثقلون كاهلكم بالضرائب كما يشاؤون . وقد باعوا البلاد الى الرأسمالية الانكليزية قبل عام بعد أن أصبحت الارض بحال لم تعد تصلح معه للاستثمار .... وأنتم يا فلاحي الانضول ، لقد انضويتم تحت لواء كمال باشا لمكافحة الدخلاء المختلسين ، ولكن قد بلغنا انكم ساعون في الوقت عينه الى تأليف حزب خاص بكم — حزب خالص للفلاحين — وانكم عازمون على المضي في كفاحكم حتى بعد ان يتوصل الباشوات الى الاتفاق مع لصوص الحلفاء . ويا أيها العمال والفلاحين — في الشرق الادنى — انكم لو وحدتم الصفوف وأقمتم لكم حكومة عمال وفلاحين خاصة بكم وجهزتم أنفسكم بالسلاح وتحالفتم مع الجيش الاحمر المؤلف من العمال والفلاحين الروس لاستطعتم ان تقفوا بوجه الرأسماليين الاجانب وان تصفوا الحساب مع المستغلين من مواطنيكم وان تقرروا ما هو في صالحكم على أساس التحالف المطلق مع جمهوريات العمال في كافة أنحاء المعمورة وان تستثمروا بلادكم لمنفعتكم ولمنفعة عمال العالم أجمع الذين سيتبادلون منتوجات عملهم بشرف ويتعاونون باخلاص . اننا نريد ان نبحث معكم في هذا الامر في باكو فلا تألوا جهداً عن القدوم اليها باكبر عدد ممكن . لقد بقيتم دهوراً تقطعون الصحراء للحج الى الاماكن المقدسة لتبتهلوا الى الله والى ماضيكم ، فاقطعوا الصحاري واجتازوا الجبال والانهار الآن وتعالوا نبحث عن طريق الخلاص من العبودية ونرتبط بروابط الاخوة لكيما نعيش أحراراً متساوين

وقال زينوفيف[1] في هذا المؤتمر :

« علينا ان ننزل بالرأسمالية البريطانية أشد ضرباتنا ، غير »
« اننا نريد ان نذكي في الوقت عينه نار البغضاء في نفوس »
« الطبقات العاملة نحو الطبقات المثرية في الشرق ونحملها »
« على مكافحة المستغلين من دون تفريق . وليس غرض »
« الثورة التي بدت بوادرها في الشرق ان تتضرع الى »
« الاستعمار الانكليزي طالبة اليه ان يزيح رجله من المائدة »
« ليتسع المجال للأغنياء الاتراك ان يبسطوا أرجلهم »
« عليها من غير عناء . »

وكتب في مقال له في جريدة « الازفستيا » في ١٨ تشرين الاول سنة ١٩٢٥ يقول :

« اننا لا نستطيع ان نتخذ موقف الحياد تجاه الحركات »
« الوطنية التي انضوى تحت لوائها مئات الملايين من »
« الشرقيين لأن ذلك معناه انحياز الاتحاد السوفيتي الى »
« معسكر الاستعمار الغربي وتمكينه الدول الغربية ولاسيما »
« انكلترة من الاستحواذ على الصين وبقية البلدان »
« الشرقية ثم التوجه على روسية . ان الاتحاد السوفيتي »
« هو محط آمال الشرق المتيقظ ، وان الثورة الكبرى »
« التي قلبت روسية من مقبرة للشعوب الى عائلة يعيش »

(١) وكان رئيس مؤتمر الدولية الثالثة

« أفرادها في ظل المساواة قد أمست مناراً للجماهير »
« المرهقة في الشرق . وروسية السوفيتية تعتمد في سياستها »
« الخارجية على هذه الشعوب المرهقة ومنها تستمد قوتها . »
« وهذا هو الذي حمل الاستعمار الغربي ولاسيما الاستعمار »
« الانكليزي على العزم على مهاجمة الاتحاد السوفيتي . »

ومن هذا يظهر للقارئ ان روسية السوفيتية كانت تعلق آمالاً عظيمة على الشعوب المرهقة في المستعمرات وانها في الوقت الذي كانت تؤيد فيه الحركات الوطنية في تركية وايران والافغان وغيرها كانت تسعى من جهة اخرى لتنظيم صفوف العمال والفلاحين فى الشرق وتوحيد كلمتهم وحملهم على رفع لواء الثورة ضد الطبقات المثرية والزمر الحاكمة والاستعمار الغربي فى وقت واحد ، وبذلك تضرب الرأسمالية الغربية وتحقق ثورة اجتماعية فى الشرق تكون أول خطوة فى سبيل الثورة العالمية التي تريد تحقيقها . ولكن روسية السوفيتية لم توفق الى ما كانت تتوق اليه لأسباب لا يتسع المجال للبحث فيها الآن ، بالرغم من الجهود العظيمة التي بذلتها الدولية الثالثة فى هذا السبيل . وبالرغم من ان المؤتمر الثالث لممثلي الشعوب الشرقية الذي انعقد فى موسكو فى صيف سنة ١٩٢١ ضم ممثلي الاحزاب الشيوعية فى ايران وتركية والهند وكورية واليابان وممثلي الشيوعيين فى منغولية والصين الا ان هذه الاحزاب لم تكن فى الحقيقة غير زمر صغيرة من هواة التطرف مفتقرة الى كثير من التنظيم ودوافع الجهاد الصادق . وقد

قال ممثل ايران فى هذا الصدد :

« قد تعجبون لوجود الاحزاب الشيوعية فى كثير من »
« ممالك الشرق ؛ فثلاثة فى تركية واثنان فى كل من »
« ايران وكورية وهكذا . والسبب فى ذلك هو ان كل »
« باشا يريد ان يستغل المبادئ الشيوعية لأغراضه الخاصة »
« فيعمل على تأليف حزب شيوعي خاص به . »

وصرح « رئيس لجنة المسلمين الثوريين » بان الروح الاسلامية تسيطر على كثير من المؤسسات الشيوعية فى الشرق . ولما انعقد المؤتمر الرابع عام ١٩٢٢ حضره ممثلوا الاحزاب الشيوعية فى الصين والهند وايران وتركية وجاوا ومنغولية وكورية ومصر ؛ ولكن تبين ان عدد أعضاء هذه الاحزاب لا زال ضئيلاً جداً فاعضاء حزب الصين لم يتجاوز عددهم الثلثمائة وأغلبهم لم يقم بالواجبات المترتبة عليه ، وعدد أعضاء الحزب اليابانى لم يتعد الالف والثلثمائة عضو مع ان هذا الحزب كان أكبر الاحزاب الشيوعية فى الشرق . وأظهر التقرير الذي قدم عن هذه الاحزاب فى المدة بين المؤتمر الرابع والخامس ان نطاقها بقى محصوراً وان الهيئات الحاكمة قد أدركت خطر الدعايات التي تقوم بها هذه الزمر فازمعت مطاردتها ، فارقفت وزارة زغلول باشا سنة ١٩٢٤ زعماء العمال وألغت جمعياتهم ، وألغت الحكومة التركية فى خريف سنة ١٩٢٣ نقابة للعمال لتقاوم بها الميول الشيوعية ، وضاق نطاق عمل الاحزاب الشيوعية فى الهند واليابان وكورية لشدة مطاردة الحكومات لها واضطر الحزب الشيوعي فى جنوب الصين الى التعاون مع الحزب الوطني

الثوري (حزب سن يت سن)[١] .

وقد اضطرت الحكومة السوفيتية بعد تقرير السياسة الاقتصادية الجديدة (NEP) فى سنة ١٩٢٤ ان تحصر جهودها فى تدبير شؤونها الداخلية فاهملت موضوع الدعاية الشيوعية فى الشرق وتدهورت مالية الدولية الثالثة فلم يبق باستطاعتها ان تمد الاحزاب والزمر الشيوعية المربوطة بها بالمساعدات المالية ؛ حتى اذا كانت سنة ١٩٢٧ وهي السنة التي شرع فيها بتنفيذ مشروع السنوات الخمس الاول ، انصرفت الحكومة السوفيتية عن العناية بقضية الدعاية فى الخارج الى شؤونها الاقتصادية واكمال الانقلاب الصناعي وانهاء قضية الارض والفلاحين وصارت تنظر الى الفوز الذي توقعت احرازه فى حل مشاكلها الاقتصادية كأقوى دعاية لها . ولكن البذور التي بذرتها فى بلدان الشرق فى تلك المدة القصيرة ، وفشل الحركة الوطنية فى مقاومة الاستعمار فى الهند ومصر ، واشتداد الضيق والفاقة بعد الازمة الاقتصادية التي اكتسحت العالم منذ سنة ١٩٢٧ كلها أيقظت شعوب الشرق وحملتها على الاعتماد على نفسها فى مكافحة الاستعمار ومؤيديه من مستغلي الوطنية التقليدية ورجال الاقطاع والرجعيين الذين كانوا عوناً للاستعمار على الشعوب ، ففتحت بذلك عهداً جديداً فى تاريخ الجهاد الشعبي الذي ينتظر ان يغمر جميع ممالك الشرق عما قريب .

***

ان روسية السوفيتية ولو انها لم تحرز الفوز الذي كانت تتوقعه في حل

---

(١) Hans Kohn, A History of Nationalism in The East
ص ١٤٥ — ١٥٢

الشعوب الشرقية على رفع علم الثورة ضد المستعمرين والمستغلين من غير تفريق والانضواء تحت الراية الحمراء ضد الجبهة الرأسمالية غير انها توفقت الى نصر مبين على السياسة الاستعمارية في الشرق بمناصرة الحركات الوطنية في تركية وايران وبلاد الافغان والصين ، ومطاردة الاستعمار في الشرق الاوسط والادنى ، والمحافظة على صلات الود وتبادل التعاون الاقتصادي والسياسي مع الحكومات الوطنية الجديدة التي نشأت فيه عقب الحرب العامة .

ان روسية بسياستها الجديدة التي نزعت فيها الى السير على نقيض السياسة القيصرية فمنحت جميع الشعوب التي كانت خاضعة للحكم القيصري حق تقرير المصير واختيار الانفصال أو الانضمام الى الاتحاد السوفيتي مع المساواة التامة ببقية أعضاء هذا الاتحاد والاحتفاظ بصورة دائمية بحق تقرير المصير والاحتفاظ بالميزات العنصرية من لغة وتقاليد وغيرها[1] ، بينما كانت الدول الرأسمالية الاخرى تتخاصم فيما بينها على اقتسام أسلاب الحرب بمقتضى المعاهدات السرية التي كانت قد عقدتها وهي تجاهر بانها انما أعلنت الحرب على المانية لصيانة الديمقراطية وضمان حقوق الشعوب

(١) انعقد مؤتمر الاتحاد السوفيتي الاول بموسكو في ٣٠ كانون الاول سنة ١٩٢٢ فوضع اسس الاتحاد وانتخب اللجنة التنفيذية فوضعت فى ٦ تموز سنة ١٩٢٣ لائحة دستور الاتحاد .. وقد ذكر البيان الذي ارفق بهذا الدستور : انه ان ثبت ان الرأسمالية غير قادرة على اقامة نظام يضمن تعاون الشعوب مع بعضها على أساس المساواة والحرية فان الاشتراكية وحدها تستطيع ان توجد جواً تسوده الثقة المتبادلة وتضع قواعد التعاون الاخوي بين الشعوب . ومما جاء فيه أيضاً ان الاتحاد عبارة عن عصبة امم حرة تتمتع بالمساواة فى الحقوق ، وان لكل جمهورية حق الانسحاب من الاتحاد متى شاءت ، وان الانضمام الى الاتحاد ممكن لجميع الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية الموجودة الآن أو التي ستنشأ فى المستقبل

في تقرير مصيرها ، قد زعزعت جذور الاستعمار الرأسمالي الاوربي في الشرق باظهار البون الشاسع بين السياسة الرأسمالية القائمة على المكر والخداع والاغتصاب والسياسة الاشتراكية القائمة على الصراحة وتبادل المنافع والمساواة ، وبفضح المعاهدات السرية التي عقدها الحلفاء أثناء الحرب العامة لاستعباد الشعوب . وقد برهنت بمنحها الشعوب الشرقية المتأخرة — في تركستان ومنغولية — الاستقلال التام على أن ادعاء الحكومات الغربية بان الشعوب الشرقية لا تصلح لأن تحكم نفسها بنفسها من دون معونة الغربيين وتدريبهم لها على اصول الحكم الذاتي ادعاء باطل[١] . فان الشعوب التي منحت حق التمتع بالاستقلال الداخلي التام في ظل الاتحاد السوفيتي بالرغم من انها كانت أحط من شعوب الشرق الادنى وغيرها من الشعوب التي حرمها الاستعمار الاوربي حق الحرية بدعوى انها لا تصلح للتمتع بهذا الحق قد قطعت فضلاً عن النجاح الذي تحقق لها في ادارة شؤونها الذاتية في هذه المدة الوجيزة أشواطاً شاسعة في ميدان التقدم بتعميم العلم وتحرير المرأة ومنحها حق الانتخاب ومساواتها بالرجل واقتباس القواعد والنظم الاجتماعية الحديثة والغاء كافة القوانين والتقاليد الرجعية . ولما كانت هذه الشعوب تقيم في البلاد المتاخمة لمستعمرات الرأسمالية الغربية في آسيا — ولاسيا المستعمرات

---

(١) في الاتحاد السوفيتي في الوقت الحاضر جمهوريات لأقوام كان بعضها لا يزال في دور الهمجية حتى آخر لحظة من لحظات العهد القيصري البائد كالبشكير والتتر والقرييز والياقوتيين والمغول وهي الآن تتمتع بالاستقلال الداخلي التام ، وفيها كذلك زمر من الشعوب الصغيرة تتمتع بالاستقلال الذاتي في ولايات خاصة بها (كالشوفانيين والكلموكيين والكرشيافيين) وتحتفظ بلغاتها وتقاليدها وخصائصها . وأغلب هذه الشعوب يعتنق الاسلام والبوذية وبعضها يدين بعقائد القرون الاولى

الانكليزية — فقد أصبح التقدم الذي أحرزته والحقوق الذاتية التي تتمتع بها أكبر حافز لشعوب للمستعمرات على القيام ضد الرأسمالية الغربية .

وقد أحرجت حكومة السوفيت موقف الاستعمار الغربي في الشرق أيضاً : بالغاء الامتيازات الاجنبية التي كانت من أكبر العوائق في سبيل تقدم الشعوب ومن أهم أسباب الفوضى والتبلبل الذي حل بممالك الشرق لفسحها المجال للغربيين ان يتدخلوا في شؤون القضاء ويخلوا بقاعدة المساواة أمام العدالة ويعفوا أنفسهم من كثير من الضرائب ليتسع أمامهم مجال الاستغلال ؛ وبالتنازل عن جميع المشاريع والمنافع الاقتصادية التي اغتصبت في عهد القيصرية في تركية وايران وبلاد الافغان والصين وغيرها من بلدان الشرق بسخاء لم تشهد الشعوب الشرقية له مثيلاً من قبل[1] .

وأثبتت روسية السوفيتية انها كانت صادقة فيما جاهرت به من المبادئ بخلاف الدول الرأسمالية الاستعمارية التي كانت تبطن نقيض ما كانت تجاهر به ، فاعترفت — في أول فرصة سنحت لها — بالدول الشرقية الحديثة

---

(١) فقد أعادت حكومة السوفيت الى ايران جميع الجزر والاراضي التي اغتصبتها القيصرية بعد سنة ١٨٩٣ وألغت جميع الديون التي كانت لحكومة القيصر على حكومة ايران وسلمت اليها البانق الروسي (Banque d' Escompte) المؤسس في ايران وجميع فروعه وتنازلت لها من دون عوض عن جميع الطرق وأسلاك ومراكز البرق والمرافئ التي أنشأتها الحكومة القيصرية في الاراضي الايرانية وألغت جميع ما كان للروس من الامتيازات وقدمت اليها جميع المعاهد والابنية والاموال الراجعة الى الارساليات الروسية الارثذوكسية في ايران (على شرط ان يستفاد من المعاهد والابنية للمقاصد التعليمية) وألغت جميع الامتيازات والحقوق القنصلية . وفعلت مثل ذلك مع حكومة الافغان وأعادت اليها جميع أراضيها التي ضمت الى أملاك القيصرية وبخارى في خلال القرن التاسع عشر (Hans Kohn, A History of Nationalism in The East ص ٣٣٨)

وعقدت معها المعاهدات على أساس تبادل المنافع والتعاون فكانت أول دولة غربية رضيت ان تقف الى جانب دول الشرق — تركية وايران والافغان — على قدم المساواة وتتعامل معها بصراحة وحسن نية .

وقد أبدلت الحكومة السوفيتية سياسة روسية تجاه تركية منذ أول عهد الثورة البلشفية وقبل ان تنشأ حكومة تركية الحديثة فرحبت بالوفد العثماني الذي توجه الى موسكو برئاسة طلعة باشا وتنازلت للدولة العثمانية عن باطوم واروهان وقارص البالغة مساحتها جميعاً نحواً من ٦٠٠٠ ميل مربع . واتصلت بالحركة الكمالية منذ أول نشأتها ؛ وكان ستالين — الذي أشغل يومئــذ منصب وكالة الشعب للقوميات — أكبر سائق لها في سياستها هذه وكانت الحكومة السوفيتية تعتبر الاتصال بتركية الكمالية من القواعد الاساسية التي ترتكز عليها سياستها الخارجية اذ ان الحلفاء كانوا قد اتخذوا استانبول قاعدة لمناوراتهم وتدبيرهم الخطط مع الحركة الرجعية ضد الثورة ، فكانوا يمدون الجنرال دينيكن زعيم الروس البيض بالمساعدات المالية منها ويجهزونه بالمعدات والمؤن الحربية . وكان احتلال جيوش الحلفاء ولايات القفقاز وشمال ايران وتركستان[1] حائلاً دون اتصال البلشفيك بالاتراك فلما انسحبت هذه الجيوش شرعت الحكومتان حالاً بالمفاوضات فأوفدت حكومة مصطفى كمال باشا بكر سامي بك ، وزير الخارجية ، الى موسكو لمفاوضة

---

(١) فقد أوفدت الحكومة البريطانية فى أوائل سنة ١٩١٨ بعثة عسكرية برئاسة الجنرال دنسترفيل الى تفليس ليساعد جمهوريات القفقاز ضد الاتراك والروس فاحتل باكو . وأوفدت بعثة اخرى برئاسة الجنرال السر ويلفرد ماليسن الى تركستان الروسية فاحتلت اشقباد . وأنشأت اسطولا في بحر الخزر انضم الى الجنرال دينيكن ودمر الاسطول الروسي .

روسية ، وأوفدت الحكومة السوفيتية بعثة الى أنقرة استقبلتها تركية استقبالاً حافلاً وبذلك بدأ عهد التقارب بين الشعبين التركي والروسي بعد ذاك الجفاء . وقد أسدت روسية بهذا الولاء الذي أيدت به تركية الكمالية في أشد أوقات محنتها من المعونة والمساعدة ما سيحتفظ الاتراك بذكره كأعظم خدمة اسديت لهم . فقد أمدتهم بالاموال والمؤن والعتاد[1] ورحبت صحفها بالنهضة التركية أعظم ترحيب وبثت لها دعاية عظيمة ضد اليونان والاستعمار الانكليزي في الوقت الذي كانت فيه الصحف الاوربية تشنع بها وتتهمها بافضع التهم ، وأرسل الروس أيضاً وفداً برئاسة شيشرين ، وكيل الشعب للشؤون الخارجية ، الى مؤتمر لوزان فأيد موقف تركية ضد الحلفاء في قضية المضايق واستانبول ، ولكن أعظم فضل لروسية السوفيتية على تركية الحديثة هو ضمان سلامة حدودها الشمالية وتوفير الطمأنينة لفلاحي الانضول الذين كان القلق من جانب الروس يملأ قلوبهم فتسنى لهم ان يتفرغوا لحرب اليونان وينصرفوا للدفاع عن حدودهم الغربية حتى فازوا ذلك الفوز المبين[2] .

وفي ١٦ آذار سنة ١٩٢١ عقدت روسية السوفيتية وتركية الكمالية معاهدة جاء في مقدمتها : « ان الطرفين المتعاقدين يقرّان وحدة المنافع التي تربط شعوب الشرق — في جهادها للحصول على الحرية الوطنية — بالجماهير العاملة في روسية في كفاحها لاقامة النظام الاجتماعي الجديد ، ويقران حق شعوب الشرق في التمتع بالحرية والاستقلال واقامة حكوماتهم حسب

(١) وان كان البعض يعتقد ان ما يشاع عن هذه المساعدات المادية مبالغ به .
(٢) Kruger ، الفصل السابع ، ص ١٠٣ — ١٠٩ .

ما يرغبون . » وقد اعترفت حكومة السوفيت في هذه المعاهدة بالحدود التركية التي أقرها الميثاق الوطني التركي[1] .

وكان موقف حكومة السوفيت تجاه ايران الناهضة لا يختلف عن موقفها تجاه الاتراك فقد ساعدتها في التخلص من الجيوش الانكليزية التي كانت قد احتلت القسم الشمالي منها ورحبت بالسفير الايراني في استانبول الذي وصل موسكو في تشرين الاول سنة ١٩٢٠ لمفاوضة حكومتها وانتهت المفاوضات بعقد معاهدة ٢٦ شباط سنة ١٩٢١ ، التي جاء فيها :

« ان روسية السوفيتية تصرح ، وفقاً لبياناتها في سنتي »
« ١٩١٨ و ١٩١٩ ، ببطلان سياسة الارهاق التي جرت »
« عليها حكومة روسية القيصرية تجاه ايران . وانها »
« اظهاراً لرغبتها الصادقة في ان ترى ايران تتمتع بالاستقلال »
« والرفاه والحرية في استثمار مرافق بلادها ، تعلن الغاء »
« جميع المعاهدات والاتفاقيات و (المفاهمات) التي تمت »
« على أساس الاستخفاف بحقوق الشعب الايراني بين »
« الحكومة القيصرية وحكومة ايران . وحكومة روسية »
« السوفيتية تستفضع سياسة الحكومة القيصرية التي »
« أدت الى ان تعقد روسية مع الدول الاوربية معاهدات »
« تتعلق بممالك الشرق خلافاً لرغبة الشعوب الشرقية » :

---

(١) Hans Kohn, A History of Nationalism in The East
ص ١٥٤ و ٢٠٤

« المختصة بحجة ضمان استقلالها ، تلك المعاهدات التي »
« أدت الى الاستيلاء على المملكة التي اختصت بها . »
« ان حكومة روسية السوفيتية قد ضربت صفحاً بصورة »
« نهائية عن سياسة الاغتصاب التي هددت سلامة الممالك »
« الشرقية وجعلت من شعوب الشرق فريسة لجشع »
« الدول الاوربية الذي لا يشبع ؛ وعلى هذا فانها تمتنع »
« رسمياً عن الاشتراك في أي مشروع سياسي يراد به »
« اضعاف ايران أو التجاوز على حقوق سيادتها الوطنية ، »
« وتعلن بطلان جميع المعاهدات المضرة بايران المعقودة »
« بين حكومة العهد القيصري وأية حكومة اخرى . »

أما أفغانستان فقد كانت – كما رأينا – من البلدان التي أقرت الحكومة القيصرية سيطرة بريطانية على سياستها الخارجية وتجنبت التدخل في شؤونها وتأسيس الصلات الدبلوماسية معها لكيما تبقى انكلترة مطمئنة من سلامة حدود الهند الشمالية[1] . ولكن روسية السوفيتية ضربت بهذه السياسة الاستعمارية عرض الحائط فاعترفت باستقلال أفغانستان وعينت سفيراً يمثلها في كابل ووافقت على ان تؤسس حكومة الافغان قنصلية لها في طاشقند . وفي ٢٨ شباط سنة ١٩٢١ وقع على المعاهدة الروسية الافغانية في موسكو فاعترفت كل من الدولتين باستقلال الاخرى ووافقتا على تأسيس الصلات الدبلوماسية بينهما ؛ وأذنت الافغان لحكومة روسية بمقتضى هذه

(١) راجع ص ٢٥٣

المعاهدة ان تؤسس خمس قنصليات في بلادها وأذنت روسية لحكومة الافغان ان تؤسس لها سبع قنصليات فيها . واتفق الطرفان على ان يلتزما عدم الاشتراك مع أية دولة اخرى في معاهدة من شأنها ان تهدد سلامة احداها . وجاء في المادة السابعة من المعاهدة المذكورة : ان الطرفين الساميين المتعاهدين متفقان بشأن تحرير الشعوب في الشرق على ان يكون مبدأ استقلال كل امة منوطاً برغبتها . وتعهدت الحكومة السوفيتية في هذه المعاهدة ان تسعف الحكومة الافغانية بجميع ما تحتاج اليه من المعونة الاقتصادية والفنية (١) .

ولكن مساعي روسية السوفيتية لم تقتصر على عقد المعاهدات مع هذه الدول الشرقية واسعافها فحسب بل تجاوزتها الى ما هو أبعد من ذلك فعملت على حملها على الارتباط فيما بينها بروابط التعاون المتبادل ضد الاستعمار . فارتبطت تركية وأفغانستان في ١ آذار سنة ١٩٢١ — أثناء وجود الوفد الافغاني في موسكو — بمعاهدة تعهد الطرفان فيها ان يساعد أحدها الآخر في رد تجاوز المستعمرين على مملكتيهما ، واتفقا على ان يؤسسا الصلات الدبلوماسية فيما بينهما فيعين كل منهما في عاصمة الآخر سفيراً يمثله ، وان ينشئا بينهما وسائل البريد السريع ، وان تجهز تركية حكومة الافغان بالمعلمين والضباط . وقد جاء في الفقرة الثانية من هذه المعاهدة : ان الطرفين المتعاهدين يقران مبدأ تحرير الشعوب الشرقية ويؤيدان حق تمتعها بالاستقلال المطلق وحكم نفسها بنفسها بالشكل الذي تختاره هذه الشعوب نفسها . وفي

---

(١) Hans Kohn, A History of Nationalism in The East ص ٣٤٥

٢٦ حزيران سنة ١٩٢٢ عقدت تركية معاهدة من هذا القبيل مع الحكومة الايرانية [1] .

وكانت الحكومة السوفيتية تستهدف بمساعيها هذه تأسيس عصبة امم معارضة لعصبة الامم الرأسمالية ، وكانت الروابط التي ارتبطت بها مع تركية — والتي تعهد الطرفان بموجبها ان لا يعقدا أي اتفاق مع دولة اخرى من غير موافقة الطرف الآخر — ومع ايران وأفغانستان أول خطوة في سبيل تكوين هذه الجبهة [2] . وبقيت سياسة روسية والدول الشرقية المجاورة لها سائرة في هذا الاتجاه حتى أواخر الحقبة الثانية من هذا القرن ، اذ جددت روسية

---

(١) Hans Kohn, A History of Nationalism in The East ص ٣٤٥ و ٢٥٣—٢٥٤

(٢) Kruger ص ١٠٩ — ١١٠ ، وكان السوفيت قد اهتموا في قضية توحيد الجبهة الشرقية ضد الاستعمار الاوربي منذ أول عهدهم بالحكم فأسسوا في تشرين الاول سنة ١٩١٧ « عصبة تحرير شعوب الشرق » ؛ ومما ورد في منهاجها انها « ترمي الى جمع شتات المساعي المبذولة في سبيل الحياة الجديدة في الشرق المتيقظ لكيما تؤلف جبهة معارضة للاستعمار في مكمن الاستعمار بآسيا » . وجاء فيها : « ان الذين يتعهدون القيام بواجب السعي لتحقيق حق تقرير الشعوب مصيرها واقامة النظم الدستورية — وهو الامر الذي تجابهه ممالك الشرق الشاسعة — لا يمكن ان يكونوا من طبقة كبار الملاكين والامراء الذين لا نفع ينالهم في غالب الاحوال من القضاء على الاستعمار الغربي في الشرق ، ولا من صنف المفكرين المتوسطين الذين لا ينتسبون الى طبقة ؛ وانما طبقة العمال وحدها تستطيع ان تتعهد القيام بهذا الواجب . ان تداخل العناصر في الشرق يخبئ خطر التهاب نيران المنازعات العنصرية من جديد بعد ان تطاير منها الشرر ؛ وقد يؤول الامر الى ظهور احساسات عنصرية شبيهة بالتي تغمر ممالك الدول الاوربية ، وقد بدت في تربة الشرق من قبل . فلأجل تجنب هذا الخطر يقتضي ان يقوم الاتحاد في الشرق على أساس المساواة التامة في الحقوق بين جميع شعوب آسيا وان يكون بشكل ائتلاف يبدأ بصورة تدريجية في الهند مثلا ومنها يتسع حتى يتحقق اتحاد الولايات الاسيوية . »

المعاهدات المنعقدة بينها وبين تركية (١٩٢٥) وايران وأفغانستان (١٩٢٥—١٩٢٨) — وجددت تركية في الوقت عينه المعاهدات المنعقدة بينها وبين ايران (١٩٢٦) وأفغانستان — لغرض تقوية الروابط فيما بينها وضمان التعاون الاقتصادي والسياسي والاجتماعي ضد الجبهة الاوربية التى تمثلها عصبة الامم[١].

ولكن عوامل كثيرة حملت روسية على الخروج من عزلتها الشرقية والانغمار في ميدان السياسة العالمية ؛ ومن أهم تلك العوامل : ابداء الولايات المتحدة رغبتها في الاعتراف بها ، وتزايد خطر اليابان في الشرق الاقصى ، واشتداد خطر الرجعية والنازية في المانية . على انها احتفظت في سياستها الجديدة بالروابط التى تربطها بالدول الشرقية ولاسيا تركية ، فقد توحدت بمقتضى هذه الروابط سياسة الدولتين تجاه دول أوربا الغربية ودول البلقان . وكان من أهم ظواهر تعاون روسية السوفيتية مع تركية في سياستهما الخارجية زيارة عصمت باشا وتوفيق رشدي بك موسكو في أيار سنة ١٩٣٢ حيث استقبلا استقبالاً لم يسبق له مثيل في تاريخ السوفيت ؛ وكان بصحبتهما عدد كبير من رجال تركية الحديثة اوفدوا لدراسة الاساليب التربيوية والصناعية في روسية . وقد أشادت الصحف التركية في هذه المناسبة بفضل روسية السوفيتية على تركية في جهادها ضد الاستعمار والفوز الذي أحرزته في عهدها الجديد ، واشتركت كافة الدوائر السوفيتية والجرائد الروسية الرسمية

---

(١) Ten Years of Republic in Turkey, by Dr. A. Adnan, Political Science Quarterly, Vol. VI. No. 2. April-June, 1935

وصحف الحزب الشيوعي في اظهار الود نحو الاتراك . والحكومة السوفيتية تقدر خطورة الدور الذي تستطيع تركية ان تقوم به في سياستها الخارجية الموحدة تجاه الدول الاوربية لما لموقعها الجغرافي من الاهمية الحربية والاقتصادية وللنفرة التي تغلغلت في نفوس الاتراك من دول أوربا الاستعمارية . وكان توفيق رشدي بك قد نوه في مؤتمر نزع السلاح قبل زيارته موسكو ببضعة أسابيع باستعداد تركية الى الانضمام الى عصبة الامم اذا وجهت اليها دعوة في ذلك ، فكانت هذه أول بوادر السياسة الروسية التركية الجديدة . وفي ١٨ تموز سنة ١٩٣٢ انضمت الحكومة التركية الى عصبة الامم وكانت قد صرحت قبيل ذلك بعزمها على ان تجعل من دخولها في حظيرة عصبة الامم وسيلة لخدمة مصالحها المشتركة مع روسية وان تسعى في توسيع مجال السياسة السوفيتية في العصبة ، فكان هذا التصريح بمثابة اعلان للخطة السياسية المشتركة التي أقرتها الدولتان والتي أدت الى انضمام روسية الى العصبة فيما بعد(١).

وكان من جملة ما يقلق هاتين الدولتين تكتل دول البلقان وأوربا الوسطى ضدهما بزعامة ايطالية وفرنسة . غير انهما استطاعتا بسياستهما الخارجية الجديدة ان تتعاونا على تبديد هذا الخطر بدخول تركية في المفاوضة مع دول البلقان وايطالية . وقد تم الفوز لتركية في البلقان فعقد مؤتمر البلقان جلسته السنوية الثانية في استانبول في ٢٠ تشرين الاول سنة ١٩٣١ في قصر رئيس الجمهورية وحضره ممثلا عن ست دول من دول البلقان . وكان عصمت

(١) Current History, June, and September, 1932

باشا وتوفيق رشدي بك قد مهدا السبيل لهذا الاجتماع أثناء جولتهما فيأوربا قبيل ذلك . وزار المسيو لتفينوف — وكيل الشعب للشؤون الخارجية السوفيتية — أنقرة واستانبول في هذه الاثناء أيضاً . واعترفت تركية بحكومة ألبانية في ٢٦ منه ؛ وكان من أهم نتائج هذا المؤتمر تأليف غرفة تجارة عامة لممالك البلقان جعل مقرها في استانبول ومكتب لتجارة التنباك جعل مقره في سلانيك ؛ وهكذا عادت تركية مرة اخرى الى تسنم منصب الرئاسة بين شعوب البلقان(١) .

وشرعت تركية تحكم سلسلة المعاهدات التيارتبطت بوجبها بدولأوربا الشرقية حتى تحقق لها الفوز بعقد الميثاق البلقاني في أثينة في ٩ شباط سنة ١٩٣٤ ؛ وقد تعهدت فيه كل من تركية واليونان ويوغوسلافية ورومانية ان تتعاون على صيانة حدودها وان تتبادل الشورى في جميع القضايا التي لها مساس بمصالحها المشتركة (٢) .

وحملت روسية السوفيتية تركية على التقرب من ايطالية والتفاهم معها ثم شرعت هي بعقد المعاهدات مع الدولالاوربية المتاخمة لها فامضيتالمعاهدة بينها وبين رومانية في ٣ تموز سنة ١٩٣٣ في لندن ، ووقع المسيو لتفينوف في عين هذا التاريخ على ميثاق تحديد التجاوز مع ايران وأفغانستان وتركية وبولندة ورومانية ولتفية واستونية ، وقد وقعت عليه لتوانية في ٥ تموز وأعقبتها فنلندة . وبدأ التقارب بين روسية وفرنسة بعد ان مهدت تركية

---

(١) Current History, December, 1931

(٢) Ten Years of Republic Turkey, Political Science Quarterly April–June, 1935, and Current History, April, 1934

الطريق لذلك ؛ فزار لتفينوف باريس في ٦ تموز فجرت المحادثات بينه وبين ديلاديه ، رئيس الوزارة ، وبول بونكور ، وزير الخارجية ؛ وأعلن في ١١ تموز على أثر المحادثات التي جرت بين موسوليني وبوتمكن سفير روسية في روما ان الدولتين قد شرعتا في وضع لائحة معاهدة شبيهة بالمعاهدات التي عقدتها روسية مع دول البلقان[١] ؛ وفي نيسان سنة ١٩٣٤ نجحت روسية في حمل استونية ولتوانية ولاتفية على الارتباط معها بمعاهدات عدم التعدي اسوة بالدول الاخرى في أوربا الشرقية[٢] .

وكان لقيام النازي في المانية ، وما عقب ذلك من التبدل في سياسة المانية الخارجية تجاه الدول المجاورة لها ولاسيما تجاه روسية السوفيتية وفرنسة ، أكبر أثر في زيادة نشاط دول أوربا في التسلح وفي التفاهم لتأليف جبهات الدفاع . وقد فسح هذا التبدل المجال لروسية ان تدخل حضيرة عصبة الامم وان تقوم — وتركية تساندها — بدور خطير في السياسة العالمية فتمهد السبيل لتكوين جبهة من فرنسة وايطالية ودول أوربا الوسطى والبلقان وتركية وروسية ضد الجبهة الانكليزية — الالمانية التي هي في دور التكوين الآن . والذي يهمنا من استعراض جريان السياسة الاوربية في هذا الصدد هو بيان المكانة التي أحرزتها تركية بفضل تعاونها مع روسية السوفيتية في السياسة الدولية لما لذلك من علاقة وثيقة بمجرى السياسة الاستعمارية في الشرق الادنى لاسيما ما يتعلق بالاستعمار البريطاني ؛ وما له من تأثير على ايران وأفغانستان ؛

(١) Current History, September 1933

(٢) Current History, June, 1934

فان توثق العلاقات بين تركية وروسية سيؤدي حتماً الى توثق العلاقات بين السوفيت وحكومتي ايران وأفغانستان . وقد بدت نتائج تعزز موقف تركية الدولي في الشرق الاوسط بزيارة رضا شاه بهلوي لها والتقارب الذي حدث بين الدولتين على أثر هذه الزيارة .

على ان تأثير روسية السوفيتية على دول الشرق الادنى والاوسط لم يقتصر على الناحية السياسية وحدها بل قد تجاوزها الى الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية . فظهرت نتائج هذا التأثير بأجلى مظاهرها باقرار حزب الشعب مبدأ سيطرة الدولة على وسائل الانتاج والتوزيع والمشاريع العامة ، وسير تركية التدريجي نحو الاشتراكية [1] . وكانت الحكومة التركية من أول عهدها بالحكم قد اتبعت سياسة الاحتكار فاحتكرت التنباك والكحول والملح والسكر وعيدان الكبريت والمفرقعات وغيرها من المواد المهمة وكذلك احتكرت السكك الحديدية والمناجم وسيطرت على وسائل المواصلات البحرية بان امتلكت ما يزيد على خمسين في المائة من أسهم الشركات القائمة بها [2] .

والثورة الروسية لم تقتصر في تأثيرها على تركية في حملها على انتهاج هذا المنهاج . وانما أمدتها بالمعونة في تطبيقه . وقد كان لزيارة عصمت باشا وتوفيق رشدي بك موسكو في مايس سنة ١٩٣٢ علاقة كبرى بهذه السياسة الاقتصادية ؛ فقد كان من جملة ما توصل اليه الطرفان في مفاوضاتها

---

(١) وقد أقر حزب الشعب مبدأ سيطرة الدولة على الشؤون الاقتصادية في مايس سنة ١٩٣١ (Ten Years of Republic in Turkey, The Political Quarterly, April June, 1935)

(٢) Current History, February, 1934

ان تعهدت روسية بأن تبيع تركية الآلات التي تحتاج اليها في منهاجها الصناعي على ان تسدد قيمتها بأقساط تدفع بالمواد الخام بدلاً من النقود في خلال عشرين سنة . وشرعت الحكومة التركية عقيب عودة عصمت باشا من روسية تستعد أيضاً للسيطرة على التجارة الخارجية لتتمكن من تسديد قيمة الآلات وموازنة صادرات المملكة ووارداتها ومبادلة المنتوجات الاجنبية المصدرة الى بلادها فاحتكرت استيراد السكر والقهوة وعهدت الى البانق التركي بكل ما يتعلق بمبادلة البضائع والمنتوجات مع الممالك الاخرى(١) .

وقد صرح عصمت باشا بأن الحكومة التركية عازمة — في سياستها الاقتصادية — على ان تطبق قاعدة « رأسمالية الدولة » ؛ وقال ان الحكومة التركية تسعى الآن للاستيلاء على جميع الصناعات والقضاء على المشاريع الفردية . والمفهوم ان سيطرة الدولة ستتناول الصناعات ووسائط المواصلات والمناجم والمصارف والاعمال التجارية الكبرى ؛ ولم يتبين حتى الآن ما يشير الى أنها تريد ان تمد يدها الى أعمال صغار الفلاحين الذين يزرعون أرضهم بأنفسهم وصغار التجار وأرباب الحرف . وعلى أثر هذا التصريح وتأييده من قبل الغازي مصطفى كمال باشا في خطابه الذي ألقاه في أنقرة في ٢٩ تشرين الاول سنة ١٩٣٣ أعلنت الحكومة التركية مشروع السنوات الخمس في ٩ كانون الاول سنة ١٩٣٤ . وقد خصص لهذا المشروع ٢٥١٠٠٠٠٠٠ ليرة تركية تصرف في خلال خمس سنوات ؛ ووضعت

(١) Current History, July 1932

الحكومة السوفيتية اعتماداً بمبلغ ١٢٠٠٠٠٠٠٠ دولار لتمكن الحكومة التركية ان تشتري منها ما تحتاج اليه من الآلات لانشاء خمسة عشر معملاً لصنع النسيج والزجاج والورق و « السليولوز » والمواد الكيماوية وغيرها [١].

وقد ظهر أثر الثورة السوفيتية في سياسة الحكومة التركية تجاه الفلاح (فقد رفعت الحكومة التركية عن الفلاح بعض الضرائب التي أثقلت كاهله واستعاضت عنها بزيادة الضرائب على المثرين من سكان المدن) وفي الغائها امتيازات الطبقة العليا وسعيها لتقليل الفروق الاقتصادية والاجتماعية بين الطبقات وتأسيسها « بيوت الشعب » في كافة المدن والقرى والارياف لتثقيف السواد الاعظم ، وفي منع المضاربات المالية وقبول مبدأ دكتاتورية الحزب الواحد والتفسير الاشتراكي لمعنى « الحرية »[٢]. والخلاصة فان تركية في سياستها الاقتصادية والاجتماعية تقتفي أثر الحكومة السوفيتية وتحذو حذوها [٣].

وظهر أثر روسية السوفيتية أيضاً في أفغانستان على عهد أمان الله ،

---

(١) Current History, February and March, 1934

(٢) قد يتبادر الذهن ان النظام الذي تتبعه تركية شبيه بالنظام الفاشستي ولكنه في الحقيقة شبيه بالنظام السوفيتي لأن الفاشيست معارضون للديمقراطية من حيث الاساس وقد قبلوا الدكتاتورية كمبدأ من مبادئهم الاساسية بينما السوفيت يسعون لتحقيق الديمقراطية الصحيحة وقد اتخذوا الدكتاتورية كوسيلة من وسائل تحقيق حكم الشعب وهو عين ما تستهدفه تركية في سياستها الحاضرة

(٣) يسمي الدكتور عدنان النظام الذي تقوم عليه الحكومة التركية بالنظام الشعبي (Popvlism) Ten Years of Republic in Turkey, Political Science Quarterly, April-June, 1935

حيث حاول السوفيت ان يحدثوا فيها ثورة صناعية شبيهة بالتي حدثت في تركية[1] . وقد انتقل أثرها من تركية الى ايران ولاسيا بعد زيارة الشاه الاخيرة الى تركية وظهور بوادر عزمه على الحذو حذوها كما يبدو من ادخاله الاصلاحات الاجتماعية ومكافحة رجال الدين والاقطاع ؛ وقد اتبعت الحكومة الايرانية قاعدة احتكار التجارة الخارجية كما فعلت تركية[2] . ومع ان ايران لم تشرع حتى الآن بوضع اسس الثورة الصناعية فان ظواهر الحال تدل على انها ستتبع عين الخطط التي سارت عليها تركية في هذا الصدد .

ان الروابط التي ارتبطت بها روسية السوفيتية بتركية وايران وأفغانستان ، وحمل روسية الحكومة التركية على تسنم موقع الزعامة بين دول الشرق الاوسط ، وتأييدها في سعيها هذا بمختلف الوسائل ، وتعاون الدولتين في سياستها الاوربية وفي عصبة الامم وتوحيدها موقفها تجاه المشاكل والقضايا الدولية ، والتطور الاقتصادي والاجتماعي الذي أخذت دلائله تتجلى يوماً بعد يوم في تركية وايران ، كل ذلك يشير الى ان هذه الدول سائرة نحو تكوين جبهة موحدة ضد الدول الرأسمالية الغربية ولاسيا بريطانية وانها ستسلك مسلكاً واحداً فيما يتوقع حدوثه في المستقبل القريب .

---

(١) Hans Kohn, A History of Nationalism in The East

(٢) وقد أقر المجلس الايراني سياسة احتكار التجارة الخارجية في ١٤ آذار سنة ١٩٣١ (Krüger ص ٣٤٦ — ٣٤٧ ص ١٨٦)

الفصل الثاني عشر

العراق مقر المقاومة البريطانية في الشرق الاوسط والادنى

ان الاستعمار الجرمني الذي وجه أنظاره نحو الشرق الادنى في أوائل القرن العشرين حمل بريطانية على تسوية الاختلافات بينها وبين فرنسة ، — وكانت تنازعها النفوذ في مصر — وساقها كذلك الى التفاهم مع روسية القيصرية — وكانت تزاحمها في السيطرة على الشرق الاوسط ومنطقة البحر الاسود واستانبول — وذلك لتنصرف الى مقاومة المانية التي أخذت بمساعيها للاستحواذ على بلاد الانضول والعراق تهدد طريق الهند والمصالح الامبراطورية في الشرق[1] . وقد وحدت هذه الدول الثلاث سياستها الشرقية لصد هذا الخطر الداهم الذي أفسد عليها تدابيرها الاستعمارية لاقتسام أملاك الدولة العثمانية . وكانت هذه الدول تريد بسياستها ان تبقى الدولة العثمانية ضعيفة منشغلة بمشاكلها الداخلية عن اصلاح شؤونها وتقويم أحوالها ، بينما كانت المانية تسعى — على العكس من ذلك — لانعاشها لتجعلها صالحة للاستخدام في تنفيذ خطة الاستعمار الجرمني ولكي يتسع مجال الانتفاع أمام الرأسمالية الجرمنية لاستثمار خيرات البلاد العثمانية الغنية[2] .

واتبعت كل من الجهتين في هذا النزاع الاستعماري أساليب متعاكسة ، فبينما كانت انكلترة وفرنسة وروسية تبث بذور الشقاق بين رعايا الدولة

---

(١) راجع ص ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٣٠

(٢) راجع ص ١٤٧ — ١٤٨

العثمانية وتهييج فيهم الاحساسات العنصرية كانت المانية تؤيد السلطان في سعيه لتوحيد كلمة المسلمين ضد أوربا المسيحية [١] . وكانت بريطانية وفرنسة وروسية تخشى ان يؤدي انتشار فكرة الوحدة الاسلامية الى قيام الشعوب المسلمة المحكومة من قبلها في تركستان وقفقازية والهند ومصر والمستعمرات الفرنسية في شمال أفريقية ضد الاستعمار ، فكان هذا الخوف من أقوى العوامل التي حملتها على تعجيل المعركة الفاصلة بينها وبين المانية خشية ان يتسع الخرق . وكانت انكلترة وفرنسة قد استبشرتا بالانقلاب العثماني في سنة ١٩٠٨ اعتقاداً منها ان سقوط عبد الحميد سيزيل خطر الدعوة الاسلامية ، ولكن الاتحاديين بركونهم — تحت تأثير النفوذ الجرمني — الى استخدام هذه الدعوة لتقوية موقفهم تجاه أوربا ساقوا انكلترة وفرنسة الى تجديد مساعيهما لاثارة الاحساسات العنصرية بين رعايا الدولة لمقاومة خطر الدعوة الاسلامية . انصرفت روسية القيصرية الى اثارة شعوب البلقان والارمن ، أما فرنسة وانكلترة فقد انصرفتا الى تنمية الاحساسات العنصرية في البلدان العربية فشجعت فرنسة الدعوة الى اللامركزية في سورية وأخذت انكلترة على عاتقها تشجيع الدعوة الى الوحدة العربية وتكوين جبهة متمردة على الدولة العثمانية في بلاد العرب وسواحل الخليج الفارسي وفي العراق والحجاز .

وكانت الظروف مهيئة لتنمية الاحساسات العنصرية في سورية بصورة خاصة ، فان الشبان اللبنانيين المارونيين الذين أكملوا دراستهم في فرنسة كانوا ينفرون بحكم وضعهم الاجتماعي في البلاد العثمانية من الدعوة الى الوحدة

---

(١) راجع ص ١٠٥ — ١٠٦

الاسلامية و يفضلون الدعوة العنصرية التي ترمي الى فصل لبنان وسورية عن جسم الدولة و بذلك يتسع أمامهم المجال للظهور فيصبحون زعماء البلاد بدلاً من ان ينبذوا في وحدة اسلامية لا يكون لهم فيها شأن . وكان الاتحاديون بعد أن غمرتهم الطورانية وساقتهم الى اتباع سياسة التتريك السقيمة والى النفرة من الشعوب العثمانية غير التركية قد هيأوا للانكليز والفرنسيين سلاحاً قاطعاً استطاعوا به ان يزعزعوا أركان الدولة العثمانية باثارة الفتن والنعرات العنصرية في جميع أطرافها . وكان المارونيون المتصلون بفرنسة والدروز المتصلون بانكلترة أقوى اداة استعملتها الدولتان لهذا الغرض[1] . على ان

---

(١) والغريب ان فرنسة وانكلترة بعد أن عملتا على إثارة النعرات الدينية بين المارونيين والدروز وأوقعتا بين الطرفين معارك دامية ومذابح كانت أهول ما شهدته جبال لبنان انصرفتا بعد حين الى حمل أبناء ضحايا تلك المذابح على ان ينسوا ما أصابهم من الرزايا ويسعوا لتكوين وطن قومي لهم على أساس اللامركزية ؟ وأغرب من ذلك ان ينجح الاستعمار الفرنسي في سوق المارونيين الى رفع لواء القحطانية وهم أبعد شعوب الشرق الادنى عنها . وقد يعجب القارئ اذ يرى بين دعاة اللامركزية والوحدة العربية في سورية اناساً مثل يوسف الدبس المطران الماروني وغيره من رجال الكنيسة المارونية الذين كانوا ولا يزالون من أكبر دعائم الاستعمار الفرنسي في سورية

وقد كان تأييد الفرنسيين والانكليز للدعوة العنصرية ظاهراً ؟ فقد حمى الفرنسيون كثيراً من دعاتها الذين كانوا قد اتخذوا باريس مركزاً لهم ؟ وساعد الانكليز كثيرين منهم على الاستقرار في القاهرة في وقت أجبروا فيه الحكومة المصرية على ابعاد الشيخ جمال الدين الافغاني منها . وأصبحت القاهرة مقر الدعاية ضد الدولة العثمانية حيث كان اللبنانيون قد سيطروا على الصحافة فيها يساندهم الانكليز ، وأسس نجيب عزوري محفلا ماسونياً فيها ، وساعد ابراهيم نجار — أحد اللبنانيين — الضباط العرب على تأسيس ناد لدعوة العرب الى الثورة . وكانت القاهرة مقر اللجنة اللامركزية التي أسس لها خمسة وسبعون فرعاً في فلسطين وسورية . وكان نادي الاصلاح الذي اتخذ بيروت مقراً له يبث الدعوة في سورية حتى اضطرت الحكومة العثمانية الى حله في نيسان سنة ١٩١٣ . وفي ١٨ حزيران سنة ١٩١٣ انعقد أول مؤتمر لدعاة اللامركزية في باريس بزعامة شكري غانم

موقف انكلترة من الدعوة العنصرية كان أكثر حزماً واتقاناً . وكانت بريطانية منذ أن حاول نابليون مهاجمة الهند عن طريق البحر الاحمر والخليج الفارسي ، قد أدركت أهمية البلاد العربية في حماية امبراطوريتها الهندية وقررت أن تبسط نفوذها على هذه البلاد لتحول دون تعرض طريق الهند الى الخطر ، لاسيما بعد افتتاح قناة السويس . فلما أخذ الاستعمار الجرمني يمتد في البلاد العثمانية نحو الهند ويشجع الدعوة الى الوحدة الاسلامية التي كان تأثيرها على المسلمين الهنود يشتد يوماً بعد يوم ، رأت بريطانية ان السبيل الوحيد لصيانة مصالحها الاستعمارية في الهند وفي الشرق بصورة عامة هو أن تسيطر على البلاد العربية لتجعل منها حائلاً دون تسرب الدعايات المضرة بها الى جنوب آسيا . وكان الانكليز يعتقدون انهم يستطيعون ان يضبطوا الطريق الى الهند بجعل البلاد العربية — الممتدة بين البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر من الغرب والخليج الفارسي من الشرق والتي يسيطر على سواحلها الاسطول البريطاني الرابض في قبرص ومالطة وعدن ومياه الخليج الفارسي — تحت سيطرتهم .

وكانت بريطانية قبيل القرن العشرين قد وطدت نفوذها في الكويت والمحمرة وسواحل الخليج العربية وراحت تتطلع الى حليف يؤيد نفوذها في نجد وأطراف الصحراء العربية فرأت في عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن فيصل السعود خير من يستطيع القيام بهذه المهمة ، وكان قد التجأ هو وأبوه الى

واخوان المطران الماروني وكانوا جميعاً من مظاهري فرنسة . وأسس اللبنانيون في المهجر جريدة الهدى لتأييد حركة اللامركزية في سورية

الـكويت بعد استيلاء ابن الرشيد على الرياض فاتصل بالانكليز فيها ودرس قواعد التعامل معهم على مبارك الصباح شيخ الـكويت الذي اختاره الانكليز ونصبوه أميراً على الـكويت(١) ؛ فبقي يخدم مصالحهم حتى توفي في تشرين الثاني سنة ١٩١٥ . وكان ابن السعود قد فاجأ الرياض فانتزعها من ابن الرشيد في سنة ١٩٠١ وأخذ يستعيد أملاك عائلته ويجدد عهد سيادتها في نجد مستعيناً على ذلك بالدعوة الوهابية وحركة « الاخوان » وبما أمده به الانكليز من مال وعتاد(٢) . وقد توثقت الصلات بين الانكليز وابن السعود بعد ان احتل الاحساء في سنة ١٩١٣(٣) ، وتوسط الانكليز له في مفاوضاتهم مع الدولة العثمانية قبيل الحرب العامة وحملوها على الاعتراف به والياً على نجد وجعل الاحساء جزءاً منها(٤) وساعدوه كذلك في نزاعه مع ابن الرشيد . وأوفدت الحـكومة الانكليزية الـكابتن شكسبير الى ابن السعود في أوائل سنة ١٩١٣ ليحمله على مقاومة فـكرة الوحدة الاسلامية ؛ وبقي الـكابتن شكسبير بصحبة ابن السعود في أثناء الحرب التي دارت بينه وبين ابن الرشيد حتى قتل في احدى المعارك(٥) .

---

(١) راجع ص ١٨

(٢) Wilson, Loyalties, Mesopotamia, 1914-1917 ص ١٦٠

(٣) Nationalism and Imperialism in The Hither East, by Hans Kohn ص ٢٤٠ .

(٤) راجع ص ١٤

(٥) Wilson, Loyalties, Mesopotamia, 1914-1917 ص ٣٠ — ٣١ ؛ Letters of Gertrude Bell ص ٥٠٩ . وقد ذكر ابن السعود في كتابه الى الحـكومة الانكليزية على أثر مقتل الـكابتن شكسبير انه ألح على هذا « الكابتن » ان يبتعد عن منطقة الخطر غير ان « الـكابتن » أصر على مرافقته قائلا « ان الاوامر الصادرة إلي تقضي علي أن أبقى بمعيتك »

استعان الانكليز أيضاً بالسر خزعل شيخ المحمرة وملحقاتها ؛ فاستخدموه في بث الدعاية لهم بين شيوخ جنوب العراق وتمهيد السبيل لاتصالهم بالقبائل العربية وبعض الشخصيات البارزة في البصرة ؛ وقد كان هذا الشيخ من أكثر سماسرة الاستعمار نشاطاً قبيل الحرب العامة وفي أثنائها ؛ وهو الذي حمل السيد طالب باشا صديقه الحميم وشريكه في المغامرات التي كان يقوم بها في شط العرب على الاتصال بالانكليز وتزعم الحركة العربية في العراق . وكان السيد طالب قد تقرب الى الاتحاديين في بدء حركتهم وساعدهم في القبض على سعدون باشا سنة ١٩١١ مؤملاً أن يساعدوه في تحقيق مطامحه بتأسيس ولاية عربية في جنوب العراق يكون هو أميراً عليها ؛ فلما يئس من ذلك انقلب عليهم وأخذ يجمع حوله الأتباع في البصرة و بغداد تحت عنوان العمل على تحقيق القضية العربية . واتصل بالانكليز بواسطة الشيخ خزعل وكان يمد دعاة القضية العربية في بغـــداد بالاموال والتف حوله الضباط المطاردون من قبل السلطات العثمانية . وكان نوري السعيد (نوري باشا السعيد) من جملة الضباط المشتغلين بالقضية العربية الذين التجأوا الى السيد طالب واشتغلوا معه وأيدوا فـكرة الاستعانة بالانكليز والاتصال بهم(١) .

وقد اتصل دعاة اللامركزية في سورية بالشريف حسين وحملوه على الاتصال بالانكليز فأوفد عام ١٩١٣ وفداً الى اللورد كشنر في مصر يطلب اليه المعونة . وكان الشريف ينزع أول الامر الى الاستقلال في الحجاز فلما

(١) Wilson, Loyalties, Mesopotamia, 1914-1917 ص ٤١٨ Wilson, Mesopotamia 1917-1920 ص ٢٦٦

أتمت الحكومة العثمانية انشاء سكة حديد الحجاز خشى أن يقوى نفوذ السلطان فيحول دون تحقق ما كان يطمح اليه فأخذ يتطلع الى المعونة الاجنبية (١) .

وقد اشتد الصراع بين فكرة الوحدة الاسلامية — ومن ورائها الدولة العثمانية والمانية — والفكرة العربية — ومن ورائها انكلترة وفرنسة — قبيل الحرب العامة وفي خلالها لما أعلنت الحكومة العثمانية الجهاد ضد الانكليز والفرنسيين والروس في الشرق وأوفدت المبشرين يدعون المسلمين في جوامع سورية والعراق الى القيام بواجبهم المقدس ضد الكفار ، وأرسلت الدعاة الى قبائل العراق والاهواز ونجد والحجاز والى المسلمين في الهند وأفغانستان يدعونهم الى الجهاد (٢) .

وقد نشط الانكليز لدفع هذا الخطر بتشجيع الدعوة الى الوحدة العربية وتقوية صلاتهم بامراء العرب في الحجاز ونجد والخليج وفي الكويت والمحمرة وجنوب العراق فجددوا صلاتهم بالشريف حسين ؛ وأوفدوا الكابتن شكسبير الى نجد لملازمة ابن السعود (٣) وكانوا — قد وثقوا صلاتهم به —

---

(١) Hans Kohn, Nationalism in The East ص ٢٧٨

(٢) Wilson, Loyalties, Mesopotamia, 1914–1917 ص ٤ ، ٦ ، ٢٢—٢٣ ، ٢٦ ، ٢٨

(٣) راجع ص ٣١٤ . وقد كان من دواعي غبطة الانكليز ان دعوة الجهاد لم تلق اذناً صاغية من قبل المسلمين في نجد وانما استبشروا باحتلال الانكليز البصرة والقرنة وكان ابن السعود محافظاً على ولائه التام لبريطانية . (كتاب الكابتن شكسبير في ١٤ كانون الثاني سنة ١٩١٥ المنوه عنه في كتاب Wilson, Loyaltiee Mesopotamia ص ٣٠)

و بشيوخ الخليج و بعض مشايخ جنوب العراق استعداداً للطوارئ . وعاد دعاة القضية العربية في جنوب العراق الى نشاطهم على الاثر فأخذ السيد طالب يروج في خريف سنة ١٩١٤ فكرة عقد مؤتمر يحضره امراء وشيوخ نجد وجبل شمر والكويت والمحمرة وقبائل المنتفك[١] . و بديهي ان الامر كان مدبراً من قبل الانكليز لتوحيد جبهة العرب ضد الاتراك استعداداً للحرب . فلما أعلمت الدولة العثمانية ابن السعود بلزوم الاستعداد لمساعدتها ضد الانكليز في حالة نشوب الحرب بينهما في برقية أرسلها أنور باشا اليه أرسل ابن السعود صورة البرقية الى المقيم البريطاني في الخليج اظهاراً لصدق عزيمته على ملازمة بريطانية[٢] ؛ ولما خابر والي البصرة شيخ المحمرة يطلب اليه أن يسمح لقوة من الجيش التركي ان تكمن في المحمرة لتستطيع ان توقع بالدارعات البريطانية التي كانت تتردد عليها ، رفض الشيخ تأدية هذه الخدمة وأعلم الحكومة البريطانية بما اعتزمته الحكومة العثمانية[٣] . وقد أدى شيخ المحمرة وشيخ الكويت خدمات هامة الى الحكومة البريطانية في هذه الظروف العصيبة بتمهيدهما السبيل لاتصالها بشيوخ العرب المحيطين بالبصرة وبث الدعاية لها بين القبائل[٤] .

---

(١) Hans Kohn, A History of Nationalism in The East ص ٢٧٨

(٢) راجع ص ١٨٣ (الحاشية)

(٣) Wilson, Loyalties, Mesopotamia, 1914-1917 ص ٧ — ٨

(٤) وممن يذكر الانكليز خدماتهم أبان الاحتلال وفي أثنائه الشيخ ابراهيم (شيخ الزبير) والشيخ اكبيشي (شيخ القرنة) والحاج عذار (شيخ الهارثة) الذي كان الشيخ خزعل واسطة التعارف بينه وبين السلطة الانكليزية . وكانت حكومة الهند قد

وكان من جملة أغراض الحملة التي ساقتها الحكومة الانكليزية لاحتلال عبادان ان تتصل بالقبائل العربية وتضمن مساعدتها ضد العثمانيين وقد عهد بهذه المهمة الى السر برسي كوكس الذي رافق الحملة ، وكان قد أشغل منصب المقيم البريطاني في الخليج بين سنتي ١٩٠٤ و ١٩١٣ وهي المدة التي وثقت فيها بريطانية صلاتها بابن السعود وأمير الكويت وشيخ المحمرة و بعض شيوخ جنوب العراق ولذلك فقد كان خير من يستطيع القيام بمقاومة الدعوة الاسلامية وحمل العرب على الوقوف بجانب بريطانية(١) . وقد بذل السر برسي كوكس قصارى جهده للقيام بهذه المهمة فأصدر بيانا الى القبائل العربية على أثر نشوب الحرب بين الدولة العثمانيـــة وبريطانية يطمئنهم فيه على أموالهم ومعتقداتهم ويطلب اليهم المحافظة على الحياد وعدم القيام بما من شأنه أن يضر بالمصالح البريطانية ؛ ثم أصدر بيانا آخر الى المسلمين بصورة عامة بشأن صيانة الاماكن المقدسة في منطقة الحرب . ولما نزلت الحملة البريطانية الى الفاو أصدر السر برسي كوكس بيانا ثالثا أشار فيه الى أن بريطانية قد أعلنت الحرب على الاتراك وحدهم وانها لا تضمر للعرب غير الخير(٢) . ولم تقصد بريطانية بهذه البيانات في الحقيقة غير الفت في عضد الوحدة الاسلامية واثارة نعرة

بلغت شيخي الكويت والمحمرة قبيل اعلان الحرب العامة بواسطة المقيم البريطاني في الخليج بأنها مستعدة لأن تعدهم باعفاء بساتين التمور التي يمتلكونها على ضفتي شط العرب من الضرائب اذا قاموا ببث الدعاية للحملة البريطانية بين القبائل (Wilson, Loyalties, Mesopotamia, 1914-1917 ص ٩ ، ٢٠)

(١) Wilson, Loyalties, Mesopotamia, 1914-1917 ص ٨

(٢) The Letters of Gertrude Bell ص ٥٠٧

العرب من الدولة العثمانية .

***

ان الحرب العامة التي أظهرت لبريطانية أهمية البلاد العربية في حالة الحرب ؛ وضرورة السيطرة عليها لصيانة الامبراطورية البريطانية في الشرق أتمت أدوار التقارب بين الانكليز وامراء العرب وأزالت ما كان عالقاً في أذهان الاتراك من امكان استخدام الدعوة الاسلامية في رد غائلة الاستعمار الاوربي . فقد استطاع الانكليز أن يحملوا مسلمي الهند على محاربة الدولة العثمانية وأن يشلوا حركة الجهاد التي علق عليها العثمانيون والالمان الآمال[1] ؛ وأينعت بذور النفرة — التي غرسها الاستعمار الانكليزي — بين العرب والاتراك بعد أن ورط أمراء العرب ورجالهم على اغتنام الحرب العامة فرصة للايقاع بالدولة العثمانية والتزام جانب أعدائها ؛ فلم يبق بعد هذا سبيل للتفاهم بين الطرفين فاضطر امراء العرب أن يلقوا بأنفسهم في أحضان الاستعمار البريطاني و يستسلموا له .

كان رجال الاستعمار البريطاني المشتغلون في شؤون الشرق الأدنى

---

(١) كان من أهم نتائج دعوة الجهاد التي دبرتها الحكومة العثمانية ان تجمع عدد كبير من القبائل العربية والكردية في الشعيبة لمقابلة الجيوش الانكليزية ومساعدة الجيوش العثمانية في صد الاعداء ، ولكن القبائل كانت من جملة أسباب فشل الجيش العثماني في هذه المعركة بدلا من أن تكون مبعث قوة بها ؛ فقد تراجعت من دون أن تشترك بالقتال بصورة فعلية وكان ما نجم عن ذلك من الارتباك من جملة ما حمل سليمان العسكري قائد الحملة على الانتحار . وقد فتكت القبائل بالجيوش العثمانية أثناء تراجعها في هور الحمار وسلبتها فكان لذلك تأثير عميق في نفوس الاتراك الذين لم يعودوا بعد معركة الشعيبة الى دعوة القبائل لمساعدتهم ، وزالت من أذهانهم فكرة الجهاد بعد هذه التجربة القاسية

منقسمين في رأيهم بصلات بريطانية بالبلاد العربية الى فريقين : فريق يعتقد ان مصلحة بريطانية تستلزم سيطرتها على القسم الجنوبي من البلاد العربية والقبض على عدن والخليج الفارسي والعراق الاسفل (ولايتي بغداد والبصرة) ؛ وفريق رأى أن تسيطر بريطانية على مصر وتجعل من البحر الاحمر بحيرة انكليزية وأن تستولي على سورية وبذلك تصون طريق الهند من الخطر وتستحوذ على المدن المقدسة (مكة والمدينة وبيت المقدس) التي كانت من أقوى روابط المسلمين بالدولة العثمانية وبهذا تفت فى عضد الاتراك فى تأليف الوحدة الاسلامية . وكان يمثل الفريق الاول رجال حكومة الهند الذين كانوا قد أحرزوا الفوز في توثيق صلات الاستعمار البريطاني بامراء الجزيرة وبسط نفوذ بريطانية في الخليج الفارسي ؛ وكان هؤلاء يرشحون ابن السعود لزعامة العرب . أما الفريق الثاني فكان يضم موظفي الحكومة البريطانية في مكتب شؤون البلاد العربية في القاهرة[١] . وكان الفريقان فى جدال مستمر ومنافسة شديدة . وقد رجحت كفة الفريق الاول فى أول سني الحرب لما أحرزه من الفوز فى تقوية الصلات بابن السعود[٢]

---

(١) Hans Kohn, A History of Nationalism in The East ص ٢٧٩ — ٢٨٠ ؛ The Arabs Place in The Sun, by Richard Coke ص ٢٢١ . وقد أسس هذا المكتب في أوائل الحرب العامة في القاهرة لتدوير شؤون القضية العربية وجمع المعلومات عن أحوال الشرق الادنى ؛ وكان مؤلفاً من عدد من الخبراء برئاسة الدكتور هوكارث المستشرق الانكليزي

(٢) وكانت صلات الانكليز بابن السعود قد توثقت فى أوائل الحرب العامة فذهب السر برسي كوكس لمقابلته في العقير والمفاوضة معه لعقد معاهدة تكون أساساً لصلات بريطانية به ودعاه الى اجتماع عقد فى الكويت وحضره أميرا الكويت والمحمرة وفريق من مشايخ العرب المؤيدين لبريطانية ثم دعاه أيضاً لزيارة البصرة . وقد تم عقد المعاهدة

و بسط النفوذ البريطاني في سواحل الخليج واحتلال ولاية البصرة ؛ ولكن الخيبة التي لاقتها حملة العراق في الكوت وانخذال الانكليز في واقعة غاليبولي رجحا كفة فريق القاهرة الذي كان يدعو الى استيلاء بريطانية على جميع الاراضي المحدقة بالبحر الاحمر والى نزع الخلافة من الاتراك وتوليتها رجلاً عربياً يكون موالياً لانكلترة ليتسنى لها توجيه الرأي العام الاسلامي كما تشاء وتجزئة أملاك الدولة العثمانية من غير أن يثير عملها عطف المسلمين[١] . ومما ساعد على رجحان كفة هذا الفريق أيضاً عجز ابن السعود عن اسعاف الحملة الانكليزية في العراق ، وتقلص نفوذه في الجزيرة بعد أن اندحرت الحملة التي ساقها على الشيخ نوري الشعلان في الجوف سنة ١٩١٤ ، وعجزه في سنة ١٩١٥ عن بسط نفوذه على واحتي عنزة وبريدة المتاخمتين لإمارة الكويت ؛ وكان لمقتل الكابتن شكسبير الذي جعلت منه الحكومة الانكليزية واسطة الاتصال بابن السعود أثر عظيم في رجحان كفة فريق القاهرة . وكان فريق القاهرة الذي رشح شريف مكة لزعامة العرب قد اشتد ساعده بظهور الكولونيل

بين ابن السعود والانكليز في ٢٦ كانون الاول سنة ١٩١٥ فتعهد ابن السعود في المادة الثالثة منها إن يمتنع عن الاتصال أو الاتفاق أو التعاهد مع أية مملكة أو دولة اخرى وأن يشعر حالا السلطات البريطانية عند محاولة أية دولة أجنبية التدخل بشؤون مملكته ، وتعهد في المادة الرابعة أن لايتنازل ولايبيع ولا يؤجر أو يتصرف بأي قسم أو جزء من ممتلكاته وأن لا يمنح الامتيازات فيها لأية دولة أجنبية أو لرعايا دولة أجنبية من غير موافقة الحكومة البريطانية وأن يقبل مشورتها التي لا تضر بمصالحه دون قيد أو شرط . ولابد أن يكون القارئ قد التفت الى الشبه العظيم بين هذه المواد وبين بنود الاتفاقيات التي عقدتها بريطانية مع امارات ومشايخ الخليج في خلال القرن التاسع عشر (Wilson, Loyalties, Mesopotamia, 1914-1917 Appendix II ص ٣١٤ — ٣١٥).

(١) Cocks, Secret Treaties and Understandings ص ٢٣

لورنس والمس بيل واستطاعتها الفات نظر الرأي العام الانكليزي والاستفادة من كل فرصة لحمل الساسة الانكليز على قبول وجهة نظرها [1] .

كان اللورد كشنر قد اتصل بالشريف حسين من القاهرة قبيل الحرب العامة ، فلما كانت سنة ١٩١٥ أعلمت دائرة الاستخبارات البريطانية في القاهرة حكومة لندن ان الامر قد دبر مع الشريف فوافقت حكومة لندن للحال أن تدخل هذه الصلات بدورها الفعلي رغبة منها في إقلاق الحكومة العثمانية والانتقام لمعركتي غاليبولي والكوت فاستلم السرهنري مكماهون — المعتمد السامي بالوكالة في القاهرة — على الاثر كتاباً من الشريف يطلب فيه أن تضمن بريطانية استقلال البلاد العربية برمتها جزاء قيام العرب بوجه الدولة العثمانية في هذه الظروف العصيبة . وكان جواب مكماهون الاول مبهماً ، غير أنه أردفه بكتاب آخر في تشرين الاول سنة ١٩١٥ أبان فيه ان بريطانية مستعدة أن تعد بالاعتراف باستقلال البلاد العربية بحدودها المبينة في كتاب الشريف [2] ولكن باستثناء ولايتي مرسينا والاسكندرونة والبلاد السورية الواقعة غرب ولايات دمشق وحمص وحماة وحلب ، وان تساعد العرب في حركتهم ضد الدولة العثمانية . واتصل مكتب القاهرة بالاسرى العرب فأطلقت الحكومة الانكليزية سراحهم لاستخدامهم في ادارة الثورة ضد الدولة العثمانية . حتى اذا كان اليوم الخامس من شهر حزيران سنة ١٩١٦ أعلن

(١) Coke, The Arabs Place in The Sun ص ٢٢٠ — ٢٢٢

(٢) وكان قد طلب اليها أن تعترف باستقلال البلاد العربية الممتدة بين مرسينا وحدود ايران على خط عرض ٣٧ من الشمال وبين البحر الاحمر والابيض المتوسط من الغرب والمحيط الهندي من الجنوب والخليج الفارسي وحدود ايران من الشرق

الشريف حسين استقلال الحجاز ورفع علم الثورة ضد الدولة ونشر بياناً على المسلمين حاول فيه أن يبرر عمله هذا . واجتمع شيوخ العرب في مكة فنودي بالشريف « سلطاناً للعرب » ، غير أن هذا اللقب أثار غيظ امراء العرب الآخرين ، لاسيما ابن السعود ، الذين لم يعترفوا بالشريف وبمفاوضاته باسم العرب فاضطرت بريطانية أن تحمل الشريف على الاكتفاء بلقب « ملك الحجاز » . ونظم الانكليز جيشاً من العرب بقيادة الامير فيصل والكولونيل لورنس لمحاربة الاتراك ولكن الكولونيل لورنس ومكتب القاهرة لم يكتفيا بهذا الجيش وانما هاجموا الجبهة التركية في سورية بجيش من الجواسيس والدعاة المهيجين فكانوا وهم في مكة والقاهرة قد أتموا في الحقيقة افتتاح سورية ومهدوا السبيل للحملة الانكليزية العربية التي دخلت الشام من غير ما مقاومة . وقد أظهر الكولونيل لورنس في القيام بهذه المهمة من المكر والنشاط ما رفع اسمه عالياً في قائمة خدام الاستعمار البريطاني في الشرق ولقب بحق ملك العرب غير المتوّج[١] .

ان الغيظ الذي أثارته مظاهرة بريطانية الشريف الحسين بين امراء العرب — ولاسيما ابن السعود — واستياء الموظفين البريطانيين المشتغلين في شؤون الخليج الفارسي والعراق واعتراضهم على اختيار الشريف واغفال ابن السعود[٢] ؛ والارتباك المتوقع حدوثه من جراء الاختلاف بين وجهتي

(١) Wilson, Loyalties, Mesopotamia, 1914-1917 ص٣٠٣ — ٣٠٤ ؛ R. Coke, The Arabs Pace in The Sun ص٢٢٣ — ٢٢٦ ؛ Earle ص٢٨٤

(٢) وكانوا يعتقدون أن الشريف الحسين لا يصلح كأداة ينتفعون بها لبسط نفوذهم في العراق ومنطقة الخليج الفارسي لضآلة نفوذه ونفوذ البيت الهاشمي في هذه الجهات

نظر فريق القاهرة وفريق الهند ؛ كل ذلك حمل ساسة الانكليز على التفكير في توحيد سياستهم في الشرق الادنى . وعلى ذلك بدأ الفريقان يعملان في سبيل التفاهم ودرس الخطة الجديدة فزار المستر ستور (من رجال فريق القاهرة) مدينة البصرة في أوائل سنة ١٩١٧ وتداول مع الانكليز المشتغلين في شؤون الخليج والعراق ثم قرر زيارة الرياض لمقابلة ابن السعود ، ولكنه اضطر لمرض أصابه في الطريق أن يعود الى فلسطين . وكان السر مارك سايكس قد زار العراق والخليج قبل ذلك للاطلاع على حقيقة الحال ومباحثة رجال الاستعمار البريطاني فيه والوقوف على وجهة نظرهم ؛ وأعقبه الكابتن اوبرى هربرت في نيسان سنة ١٩١٦ لعين الغرض ، ثم الكابتن جورج لويد (الذي أصبح فيما بعد اللورد لويد) وكان من رجال مكتب القاهرة وقد بقي بمعية السر برسي كوكس ما ينوف على الشهرين[1]. وكان ساسة الانكليز في لندن قد اضطروا — أمام إلحاح فرنسة — على عقد اتفاقية سايكس — بيكو[2] التي ناقضت عهود انكلترة للملك حسين وبقيت مكتومة حتى عن الموظفين البريطانيين في الشرق الادنى الى سنة ١٩١٧[3] . ثم اضطرت بريطانية في أواخر سنة ١٩١٧ — لشدة حاجتها

ولمدعياته الكثيرة ومطامحه الواسعة التي قد تؤدي عاجلاً أو آجلاً الى نشوب الاختلافات وظهور المشاكل

(١) Wilson, Loyalties, Mesopotamia, 1914-1917 ص ٣٠٤ — ٣٠٥ ١٥٢ — ١٥٣

(٢) راجع ص ٢٣٦

(٣) R. Coke, The Arabs Place in The Sun ص ٢٢٥ . وكان غرض الانكليز الرئيسي من هذه الاتفاقية تكوين منطقة تحت الحماية الفرنسية تفصل بينهم وبين

الى المال وأمام إلحاح اللورد رونشيلد وغيره من رجال المال اليهود والمشتغلين في قضية الوطن القومي اليهودي من الصهيونيين — أن تعد الصهيونيين بمساعدتهم وتأييدهم في تأسيس الوطن القومي (تصريح المستر بلفور وزير الخارجية في ٩ تشرين الثاني سنة ١٩١٧[١]) . وفي آذار سنة ١٩١٧ احتل الانكليز بغداد وأصدر الجنرال مود بيانه المعروف مؤيداً فيه فكرة الوحدة العربية وداعياً الاهلين الى التعاون مع الانكليز لاقامة الحكم الوطني وتحقيق الاماني القومية . وفي تشرين الثاني سنة ١٩١٧ تم الفوز للثورة الروسية التي أقامت النظام السوفيتي وأخرجت روسية من الحرب وقلبت سياستها تجاه شعوب الشرق الادنى كما رأينا في الفصل السابق . كل هذه التطورات أدت الى أن تتخذ سياسة بريطانية الاستعمارية في الشرق الادنى والاوسط شكلها النهائي عند عقد الهدنة وفي أثناء مفاوضات الصلح .

***

ان الذي يمعن النظر في المعاهدات السرية[٢] التي عقدت بين الحلفاء في أثناء الحرب العامة ويحاول رسم خارطة للشرق الادنى والاوسط بمقتضى

المنطقة الروسية . ولم تستحسن روسية اتصال حدود ممتلكاتها بحدود الممتلكات الفرنسية أول الامر ، ولكنها اضطرت الى الموافقة أخيراً في ٢٦ نيسان سنة ١٩١٦ (Wilson, Loyalties, Mesopotamia ص ١٥٣)

(١) وهذا نص التصريح : ان حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف على تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين وتسعى ما استطاعت لتسهيل تحقيق هذه الامنية على أن يكون مفهوماً إن ما سيجري من العمل في هذا السبيل لا يخل بالحقوق المدنية والدينية للسكان المقيمين في فلسطين من غير اليهود أو بما يتمتع به اليهود في الممالك الاخرى من الحقوق والمنزلة السياسية

(٢) راجع ص ٢٣٥ — ٢٣٦

ماجاء فيها يستطيع أن يتبين لأول وهلة طابع السياسة البريطانية الإمبراطورية فيها ؛ فقد قسمت هذه المعاهدات الشرق الاوسط والادنى الى ثلاث مناطق : المنطقة الروسية وتبدأ باستانبول وتمتد على القسم الشمالي من بلاد الانضول بما فيه ولايات أرضروم وترابزون ووان الى تفليس وكردستان حتى تتصل بمنطقة النفوذ الروسية في الثلث الشمالي من بلاد فارس (المعينة بموجب الاتفاقية الانكليزية الروسية في سنة ١٩٠٧) ؛ ثم المنطقة الفرنسية وتشمل السواحل السورية وولايات عينتاب وماردين والموصل وتتصل بالمنطقة الروسية على ضفاف دجلة مقابل الثلث الاوسط من بلاد ايران المعينة في الاتفاقية الروسية الانكليزية لسنة ١٩٠٧ ؛ أما المنطقة الثالثة ، وهي حصة انكلترة ، فتبدأ بخط يمتد الى الشرق باستقامة حدود مصر الشمالية وتشتمل على فلسطين وشرق الاردن والقسم الجنوبي من المملكة العربية التي أراد الانكليز صوغها من الاراضي الواقعة بين سواحل سورية والعراق وتقسيمها الى منطقتي نفوذ تكون الشمالية منها لفرنسة والجنوبية لانكلترة لتتمكن من سد الفراغ بين حصتها الغربية وحصتها الشرقية التي تشمل ولايتي بغداد والبصرة والثلث الجنوبي من البلاد الايرانية . وبديهي إن هذا التوزيع يطابق تمام المطابقة خطط الامبراطورية البريطانية لحماية الهند وضمان السيطرة على طريق المواصلات الامبراطورية في الشرق ، فقد سيطرت بريطانية بمقتضى هذه المعاهدات على الطريق البري الممتد بين البحر الابيض المتوسط والخليج الفارسي وعلى جبهة تبدأ بمصر وتنتهي بالتيبت فتجعل بقبضتها مصر وفلسطين وبلاد العرب والعراق والقسم الجنوبي والاوسط من بلاد ايران والافغان

والتيبت وذلك كل ماتحتاج لحماية الامبراطورية الهندية . وقد وافقت انكلترة أن تكون لفرنسة منطقة تمتد بين البحر الابيض المتوسط والمنطقة الايرانية المحايدة رغبة منها في أن تجعل من الممتلكات الفرنسية حاجزاً بينها وبين المنطقة الروسية تخلصاً من المنافسة الروسية ودفعاً للخطر الذي قد يتأتى من جرائها(١) .

غير أن الثورة الروسية التي أزالت القيصرية الروسية من الوجود أحدثت انقلاباً خطيراً في سياسة بريطانية الامبراطورية في الشرق . فقد كانت انكلترة بعد سنة ١٩٠٧ وفي خلال الحرب العامة قد خطت خطوات واسعة في سبيل التفاهم مع الحكومة القيصرية الروسية لحل مشكلة المنافسة الاستعمارية في الشرق الاوسط والادنى حتى خيل لساسة أوربا أن المسألة الشرقية قد انتهت بعد أن أشغلت أوربا ما ينوف على القرن ، ولكن لما شطبت الحكومة السوفيتية على سياسة القيصر ووقفت الى جانب الشعوب الشرقية تأخذ بيدها الى النهوض وفضحت المعاهدات السرية التي دبرها الرأسماليون لاستعباد الشرق وأخذت تحرض جماهير العمال والفلاحين في آسيا على القيام بوجه الرأسماليين ، تحرج موقف الاستعمار الانكليزي في الشرق واضطر الانكليز الى اتخاذ تدابير جديدة لتلافي ما حدث من الخلل في خططهم العامة بعد هذا التبدل واحكام جبهة الدفاع ضد الخطر الروسي الجديد بعد أن لم يبق مجال لهم للاتفاق مع الحكومة السوفيتية كما فعلوا مع حكومة القيصر . وعلى ذلك وضع المستر لويد جورج والمستر ونستن تشرشل واللورد بركنهيد (من أعضاء الوزارة البريطانية) خطة جديدة للسياسة البريطانية في الشرق على

---

(١) Wilson, Loyalties, Mesopotamia, 1914–1917 ص ١٥٣

أساس تأسيس « امبراطورية الشرق الاوسط » على أن تمتد من مصر الى الهند وتشتمل على بلاد العرب والموصل وفلسطين والمنطقة الروسية الايرانية وحصة روسية من أملاك الدولة العثمانية بالاضافة الى ما كسبوه فى معاهدة سايكس — بيكو(١). وكانت بريطانية تريد أن تستحوذ على استانبول وتساعد اليونان فى الاستيلاء على سواحل آسيا الصغرى الغربية(٢) وتجعل من بلاد القفقاز وتركستان منطقتي نفوذ لها لحماية هذه الامبراطورية. وقد بدا هذا الحلم ممكن التحقيق فى سنة ١٩١٩ وسنة ١٩٢٠ فقد كانت الجيوش الانكليزية قد احتلت استانبول وراحت تتقدم فى القفقاز وفى ايران وتركستان، واكتسحت الجيوش اليونانية بلاد الانضول، وشجعت بريطانية على تأسيس مملكتي أرمينية وكردستان لتخدما مقاصدها الاستعمارية، وكان الحكم البريطاني قد استتب في مصر وفلسطين والعراق(٣)، وأخذت انكلترة تثير سكان سورية ضد الفرنسيين(٤) وتسوقهم الى المطالبة بالانتداب الانكليزي لترغم فرنسة على التنازل عن الموصل والموافقة على اعلان الانتداب الانكليزي في فلسطين حتى اضطرتها الى الموافقة على إعادة النظر في اتفاقية

---

(١) وكانت الموصل حسب معاهدة سايكس — بيكو قد منحت لفرنسة واعتبرت فلسطين منطقة دولية وارجىء البت بشأنها يومئذ

(٢) والبلاد اليونانية بطبيعة موقعها الجغرافى وتعرضها للاسطول البريطاني مضطرة أن تبقى منقادة لبريطانية

(٣) Nationalsm and Imperialism in The Hither East, by Hans Kohn ص ١٢ — ١٤

(٤) وقد بلغ النزاع على سورية أشده بين انكلترة وفرنسة في مؤتمر الصلح اذ ادعت بريطانية انها أحق بسورية من الفرنسيين لما بذلته من الاموال والارواح،

سايكس — بيكو فجرت المفاوضات بينها و بين انكلترة في هذا الشأن في مؤتمر سان ريمو في نيسان سنة ١٩٢٠ وتم عقد اتفاقية سان ريمو التي نالت بريطانية بموجبها الانتداب على فلسطين والعراق بما فيه ولاية الموصل ، وأتمت كذلك التمهيدات لعقد معاهدة سيفر التي جعلت من البلاد التركية غنيمة للمستعمرين ، ومهدت السبيل لعقد المعاهدة الانكليزية — الايرانية وكانت تريد بها أن تتم استعمار ايران . واهتم المستر تشرشل — الذي تولى منصب وزارة المستعمرات عام ١٩٢١ — بتأسيس دائرة خاصة بشؤون الشرق الاوسط وتعيين الكولونيل لورنس مشاوراً فيها[١] ؛ وعقد في القاهرة مؤتمراً لدرس موضوع امبراطورية الشرق الاوسط حضره كبار الموظفين البريطانيين المشتغلين في شؤون البلاد العربية كالسر برسي كوكس ودافيد هوركارث والسر رونالد ستار والسر كلبرت كلايتن واللورد جورج لويد والكولونيل لورنس والمس بل[٢] ؛ وأوفد بعثة انكليزية مؤلفة من المستر فايي — وكان موظفاً في دائرة الاعتماد في العراق — والكولونيل هملتن — وكيل بريطانية في الكويت — والكولونيل كونلف اوون — من رجال القوة العسكرية في العراق — لدرس أحوال بلاد العرب وتقديم تقرير عنها[٣] . وقد ارتأى مؤتمر القاهرة ضرورة الاحتفاظ بالحماية البريطانية في مصر ،

وصرح اللورد اللنبي ان الجيوش والاموال الانكليزية هي التي احتلت سورية وان العرب لم يكن لهم شأن يذكر في هذا الامر . (Baker ، الجلد الاول ص ٧٠ — ٧٤ والمجلد الثالث ص ٤ — ٥)

(١) Report on Iraq Administration. October 1920–March 1922

(٢) Bell ص ٢٥٠

(٣) Hans Kohn, A History of Nationalism in The East ص ٢٧٠

وتنصيب الامير عبدالله أميراً على شرق الاردن(١) . — وقد أراد الانكليز بتأسيس هذه الامارة وتنصيب الامير عبدالله عليها أن يجعلوا منها سوراً يدفع خطر البادية عن فلسطين(٢) ، ووسيلة لدوام العداء بين العائلة السعودية والعائلة الهاشمية — وقرر أيضاً تأييد ترشيح الملك فيصل لعرش العراق(٣) . ورأى الانكليز في توطيد سلطان ابن السعود في جزيرة العرب وتقسيم العروش والامارات بين عائلتين متعاديتين ضماناً لدوام السيطرة البريطانية في البلاد العربية اذ يكون باستطاعتهم في مثل هذه الحالة أن يستخدموا هذه القوى المتنافرة الواحدة ضد الاخرى ويحملوها جميعاً على الاستسلام للحكم البريطاني .

على أن نجاح الثورة الروسية والفوز الذي أحرزه الاتراك في نهضتهم الوطنية ، ورفض المجلس الايراني تصديق المعاهدة الانكليزية — الايرانية ، واضطرار الجيوش البريطانية الى الانسحاب من قفقازية وبلاد الخزر وايران ، وفشل محاولة اقامة دولتي أرمينية وكردستان ، وقيام أمان الله واعلانه استقلال أفغانستان وعقده المعاهدات مع روسية وتركية وايران ؛ كل هذه خيبت آمال تشرشل ورفاقه بتأسيس امبراطورية الشرق الاوسط وأحرجت موقف بريطانية في الشرق . ومما زاد في حراجة هذا الموقف اشتداد الحركة الوطنية في الهند وفي مصر وافتضاح أمر السياسة الامبراطورية في الشرق

---

(١) Bell ص ٥٣١

(٢) Hans Kohn, A History of Nationalism in The East ص ٣٠٦ — ٣٠٧

(٣) Newman, Major E. W. Palson, The Middle East ص ٨٠

الادنى والاوسط وتبدل موقف روسية من شعوب الشرق وسعيها في تكوين جبهة معادية لبريطانية بتحالفها مع تركية ، وتحسين علاقاتها بايران وأفغانستان . وهكذا باءت سياسة انكلترة بالفشل في الشرق الاوسط والادنى وقاست انكلترة مرارة الخذلان في جميع الجهات ، إلا البلاد العربية التي تشبثت بها تشبث الغريق بوسيلة الخلاص فنجحت في تسخير رجال العرب لخدمة أغراضها الاستعمارية فراحوا يبذلون في هذا السبيل كل ما عز على الرجال .

وكانت بريطانية قد وطدت نفوذها في البلاد العربية وأحكمت وسائل الدفاع وطرق المواصلات الامبراطورية فاستولت على حيفا وربطتها بمصر وجنوب أفريقية بسكة حديد تمر من السويس ، وبالحجاز وشرق الاردن بسكة حديد الحجاز ، وشرعت تفكر بايصالها بالعراق بسكة حديد تقطع الصحراء ؛ وقبضت على فلسطين بواسطة قضية الوطن القومي اليهودي اذ جعلت العرب فيها ينصرفون عن محاربة الانكليز الى معارضة اليهود — وكلاهما لا يملك في الحقيقة في فلسطين غير آمال من سراب — إذ أن بريطانية لم تعد تستطيع الاستغناء عن فلسطين بحال من الاحوال بعد أن أصبح وجودها فيها محتماً لصيانة قناة السويس ومراكز المواصلات البرية والجوية وحماية مخارج النفط . وقد زاد اهتمام انكلترة بعد فشل مشروع امبراطورية الشرق الاوسط بتثبيت سيطرتها على البلاد العربية فانتزعت عمان والعقبة من مملكة الحجاز وضمتها الى شرق الاردن في سنة ١٩٢٥ وبذلك أصبحت المسيطرة على حيفا (على البحر الابيض المتوسط) والعقبة

(على البحر الاحمر) والبصرة (في رأس الخليج الفارسي) ، وعلى طرق المواصلات التي تربط هذه المراكز العظيمة الاهمية في قضيتي الدفاع والمواصلات . وانصرفت بعد سنة ١٩٢٢ الى تعيين الحدود بين الممالك والامارات التي نشأت في البلاد العربية حسبما تقتضيه مصالحها الامبراطورية فجعلت الحدود بين شرق الاردن ونجد تمر في وادي سرحان والحدود بين نجد والعراق تمر في وادي الرمه ، لحفظ الموازنة بين هذه الممالك بعد أن توسع نفوذ ابن السعود في الجزيرة (وحفظ الموازنة بالطبع يعني ضمان ما تقتضيه مصالح المواصلات الامبراطورية) وجعلت حدود شرق الاردن تتصل بحدود العراق في منطقة يبلغ عرضها حوالي المائة كيلومتر وحرمت نجداً — في معاهدتي الحده والبحره — من الاتصال بمنطقة الانتداب الفرنسي بالرغم مما لهذا الاتصال من الاهمية لتجارة نجد[1] .

أصبح للعراق بعد هذه التطورات في ممالك الشرق الاوسط والادنى أهمية خاصة في نظر الانكليز ، إذ أنه بالنظر لتوسطه بين هذه الممالك ومرور وسائل المواصلات البرية والجوية الى الهند به ولوجود الطرق التي تربطه بجميع بلدان الشرق الاوسط والادنى[2] ، أصبح المركز الوحيد الذي تستطيع بريطانية أن تحافظ بواسطته على نفوذها في الشرق وتحمي طرق الامبراطورية الهندية

---

(١) Nationalism and Imperialism in The Hither East, by Hans Kohn ص ١٣ — ١٤

(٢) يتصل العراق بالبحر الابيض المتوسط ومصر براً بطريق الصحراء الى الشام فحيفا فمصر وبطريق شرق الاردن ، ويتصل بنجد بطريق الحج الجديد ، وبتركية بطريق دجلة الى حلب فاستانبول وبطهران بطريق السيارات الجديد وبالهند بطريق البصرة — ايران . ومنه تمر جميع الطرق الجوية الى الشرق

وتتصل بالاكراد في تركية وتثيرهم ضد الاتراك ، وتتحكم بامور البادية وسلطنة نجد فالعراق بالرغم من تعرضه لخطر مهاجمة سكان البادية له ، لعدم وجود حواجز طبيعية بينهما ، فان في وسعه أن يضايق أهلها بمنعهم عن المسابلة مع أسواقه التي يتمونون منها مثل الزبير والخميسية والسماوة وسلمان . وليس في الشرق موقع حربي كالعراق تستطيع بريطانية أن تستعين به لتعبئة الجيوش من الهند عن طريق الخليج الفارسي ومن أوربا عن طريق خط حديد حيفا المزمع انشاؤه قريباً[1]. وأهمية العراق الحربية في وضع بريطانية بعد الثورة الروسية هو الذي حملها على ضم الموصل الى العراق لتتمكن من تثبيت موقف الدفاع ضد الجبهة الروسية — التركية في حالة الحرب وقد ضحت في سبيل الحصول على هذه الولاية بربع النفط الموجود فيها اذ منحته لفرنسة مقابل تنازلها عنها[2] . وقد ازدادت أهمية العراق في نظر الانكليز وفي الوقت الحاضر بعد أن جعلوه مقراً الدفاع الجوي في الشرق[3] وشرعوا في انشاء المطارات وملحقاتها في

---

(١) وقد سبق للانكليز ان استفادوا من وجودهم في العراق بسوقهم فرقة من الجنود من بغداد الى تفليس سنة ١٩١٨ لمقاومة روسية السوفيتية . وقد اتهم الاتراك بريطانية في تحريض الاكراد على الثورة سنة ١٩٢٥ (أثناء البحث في قضية الموصل ليستفيدوا من إثارة الاكراد في العراق ضد تركية ومن معارضتهم انضمام الموصل اليها) وفي سنة ١٩٣٠ (Kruger ص ١١٦)

(٢) Lausanne Conference on Near Eastern Affairs, 1922–1923, Cmd. 1814

(٣) كانت القوة الجوية البريطانية أول من سعى امتتح الطريق الجوي بين البحر الابيض المتوسط والخليج الفارسي وقد شرعت تنقل البريد بين القاهرة وبغداد منذ سنة ١٩٢١ فحققت بذلك فكرة المواصلات السريعة بين بريطانية والهند . وقد افتتحت المواصلات الجوية من أول نيسان سنة ١٩٢٩ بين لندن والقاهرة فالبصرة ، ومنها الى الخليج الفارسي فكراجي فسنغابور . وكان الطريق الجوي يمر أول الامر بسواحل الخليج

سن الذبان والشعيبة وهي عمدة بريطانية في الدفاع عن امبراطوريتها الشرقية في الحرب المقبلة وفي الاحتفاظ بنفوذها في الشرق الاوسط والادنى .

وقد نجحت بريطانية في سياستها الجديدة في الشرق الادنى نجاحاً باهراً لاسيما في العراق حيث تمكنت أن ترفع عن كاهلها المصاريف الباهضة التي اقتضاها دوام الاحتلال[1] بتأسيس نظام الحكم الحاضر فيه وقد احتفظت بوجوده بكل ماتقتضيه مصالحها الدفاعية والاقتصادية . والمهم في هذا الامر ان السياسة البريطانية باقامة هذه النظم المزيفة قد استطاعت أن تتخلص من المقاومة التي جابهها الاحتلال البريطاني في الشرق الادنى أثناء الحرب وفي أواخرها وتشغل أهل البلاد عن الاستعمار ورزاياه بالمشاحنات والمنازعات الداخلية فيما بينهم .

وقد تحقق لبريطانية في العراق كل ما يمكن أن تطمح اليه دون أن تتكلف بشيء من المصروفات أو التضحيات ، وهذا هو غاية ما يمكن أن

الشرقية ، ولكن اعتراض ايران بناءً على شكوكها بالسياسة البريطانية واصرارها على أن يمر الطريق الجوي الى الهند من بلاد ايران الداخلية اسوة بالطرق الجوية الاخرى وحرصها على سيادتها حمل بريطانية على التنازل عن جزيرتي هنجام وقشم والاستعاضة عن محطاتهما بتأسيس المحطات الجوية في الكويت والبحرين والدمرجه (راجع ص ٦٤) رغبة منها أن يبقى الطريق الجوي قريباً من الساحل ليستطيع الاسطول البريطاني أن يحمي مراكزه في حالة الحرب . وتمر ببغداد في الوقت الحاضر الطائرات الفرنسية في طريقها من مارسيلية وبيروت الى الهند الصينية والطائرات الهولندية في طريقها الى المستعمرات الهولندية في جزر الهند الشرقية وطائرات شركة جنكرس الى طهران فباكو فموسكو (Nationalism and Imperialism in The Hither East ص ١٠ — ١٦)

(١) وقد كانت المبالغ الطائلة التي تحملتها الخزينة الانكليزية في خلال الحرب العامة من أقوى الاسباب التي حملت بريطانية على الغاء الاحتلال في العراق . ويدعي الانكليز انهم صرفوا ما ينوف على مائة مليون روبية في العراق خلال الحرب العامة

يتطلع اليه الاستعمار . فمعاهدة ١٩٣٠ قد ضمنت لها أكثر مما يمكن أن تأمله من الهند في حالة الحرب . والذي يمعن النظر في بنود هذه المعاهدة يتبين ان قضية الدفاع هي أهم ما استهدفت بريطانية تحقيقه في هذا الاتفاق الاجباري الذي أصبح العراق بموجبه مقراً للدفاع الامبراطوري في الشرق الادنى والاوسط . فقد حرمت العراق في المادة الاولى من حق التمتع بالسيادة الخارجية اذ اشترطت أن « تجري بينهما (صاحبي الجلالة ملك انكلترة وملك العراق) مشاورة تامة وصريحة في جميع شؤون العراق الخارجية مما قد يكون له مساس بمصالحهما المشتركة » ؛ وأي شأن من شؤون العراق الخارجية لا تستطيع بريطانية أن تدعي ان له مساساً بمصالحهما المشتركة ، بينما العراق لا يستطيع أن يتمتع بحق المقابلة في هذا الامر . وقد جاء في المادة الرابعة :

« وفى حالة حرب محدقة يبادر الفريقان الساميان المتعاقدان »
« فوراً الى توحيد المساعي فى اتخاذ تدابير الدفاع المقتضاة . »
« ان معونة صاحب الجلالة ملك العراق في حالة حرب »
« أو خطر حرب محدقة تنحصر فى أن يقدم الى صاحب »
« الجلالة البريطانية فى الاراضي العراقية جميع ما فى وسعه »
« أن يقدمه من التسهيلات والمساعدات ومن ذلك »
« استخدام السكك الحديدية والانهر والموانيء والمطارات »
« ووسائل المواصلات . » .

وجاء في المادة الخامسة :

« مع ذلك يعترف جلالة ملك العراق بأن حفظ وحماية »

« مواصلات صاحب الجلالة البريطانية الاساسية بصورة »
« دائمية في جميع الاحوال هما من صالح الفريقين الساميين »
« المتعاقدين المشترك . فمن أجل ذلك وتسهيلاً للقيام »
« بتعهدات صاحب الجلالة البريطانية وفقاً للمادة الرابعة »
« أعلاه يتعهد جلالة ملك العراق بأن يمنح صاحب »
« الجلالة البريطانية طيلة مدة التحالف موقعين لقاعدتين »
« جويتين ينتقيهما صاحب الجلالة البريطانية في البصرة »
« أو في جوارها وموقعاً واحـــداً لقاعدة جوية ينتقيها »
« صاحب الجـــلالة البريطانية في غرب الفرات ... »
« وكذلك يأذن جلالة ملك العراق لصاحب الجلالة »
« البريطانية في أن يقيم قوات في الاراضي العراقية في »
« الاماكن الآنفة الذكر وفقاً لأحكام ملحق هذه »
« المعاهدة على أن يكون مفهوماً ان وجود هذه القوات »
« لن يعتبر بوجه من الوجوه احتـــلالاً ولن يمس على »
« الاطلاق حقوق سيادة العراق . »

وقد ضمنت بريطانية في هاتين المادتين كل ما تحتاج اليه في حالة نشوب الحرب وضمنت سلامة المواصلات الامبراطورية كما احتفظت بحق البت بشؤون العراق الخارجية في المادة الاولى . إن التصريح الوارد في المادة الخامسة حول وجود القوات البريطانية في العراق — وما أخذه من التعهدات على نفسه — وانها لن تمس على الاطلاق بسيادته لمن أغرب ما نطقت به المعاهدات .

ومن الامور التي تظهر درجة اهتمام بريطانية فى قضية حماية طريق الهند ما اشترط فى المادة الحادية عشرة بأن يقوم أي الفريقين قبل انتهاء مدة المعاهدة (وهي خمس وعشرون سنة) بخمس سنين « بناءً على طلب أحدهما بعقد معاهدة جديدة ينص فيها على الاستمرار على حفظ وحماية مواصلات صاحب الجلالة البريطانية الاساسية فى جميع الاحوال . وعند الخلاف فى هذا الشأن يعرض ذلك الخلاف على مجلس عصبة الامم » ؛ وذلك يضمن لبريطانية بحكم ما لها من النفوذ فى العصبة الحصول على ما تبتغيه فى هذا الشأن .

أما الملحق فقد جاء مؤيداً وموضحاً لما ورد فى نص المعاهدة فيما يتعلق بامور الدفاع ؛ فقد نص البند الخامس أن يجري « تعليم الضباط العراقيين الفنون البحرية والعسكرية والجوية فى المملكة المتحدة » ، وتعهد جلالة ملك العراق « إنه اذا رأى ضرورة التجاء الى مدربين عسكريين أجانب فانهم يختارون من الرعايا البريطانيين » وتعهد جلالته أيضاً « بأن التجهيزات الاساسية لقوات جلالته وأسلحتها لا تختلف فى نوعها عن أسلحة قوات صاحب الجلالة البريطانية وتجهيزاته . » وجاء فى العقد السابع من هذا الملحق :

« يوافق جلالة ملك العراق على أن يقوم عند طلب »
« صاحب الجلالة البريطانية ذلك بجميع التسهيلات »
« الممكنة لمرور قوات صاحب الجلالة البريطانية من جميع »
« الصنوف العسكرية عبر العراق ولنقل وخزن جميع »
« المؤن والتجهيزات التي قد تحتاج اليها هذه القوات »
« فى أثناء مرورها فى العراق وتتناول هذه التسهيلات »

« استخدام طرق العراق وسككه الحديدية وطرقه المائية »
« وموانئه ومطاراته . و يؤذن لسفن صاحب الجـــلالة »
« البريطانية اذناً عاماً فى زيارة شط العرب بشرط اعلان »
« جلالة ملك العراق قبل القيـــام بتلك الزيارة للمواني »
« العراقية . »

* * *

إن بريطانية قد توفقت فى السيطرة على شؤون بلاد الشرق الادنى كما توفقت فى استعمار الهند من قبل ، بتسخير ذوي الاطماع الذين قامروا بمصالح بلادهم ومقدرات شعوبهم وصاروا اداة لبث بذور التفرقة والشقاق فيما بينها بأبخس الاجور ، وانخدعوا بالالقاب المزيفة الـكاذبة التي خلعها عليهم الاستعمار . وقد أحرز الاستعمار البريطاني بخلقه هذه الاوضاع والنظم السياسية المزيفة فوزاً لم يسبقه اليه أحد من قبل فقد استطاع بواسطتها أن يحقق جميع ما كان يصبو اليه من غير أن يكلف نفسه شيئاً مما اقتضته أنواع الاستعمار الاخرى من الاموال والتضحيات ، فقـــد أشغل رجال هذه البلدان بالمنافسات والمنازعات على الوظائف والمناصب التي شبهها بعضهم بالعظام تلقى للكلاب ، وصار هو السيد المطاع يتسابقون جميعاً الى اكتساب رضاه ، وتنفيذ أوامره ، وتحقيق أغراضه من غير ما تورع ، للنيل من بعضهم البعض من غير التفات لما يصيب البلاد ومصالح السواد الاعظم من الاضرار .

وان الاستعمار باثارة النفرة وروح العداء ، و بعث الشقاق وايلاع نيران الفتن بين الطوائف المختلفة فى الدين والمذهب ، قد فرق بين صفوف الشعب

الواحد في المملكة الواحدة ، فجعل له من ذلك قوة يستند اليها في دوام سيطرته على البلاد . والاستعمار الفرنسي جعل من الآثوريين اداة استخدمها ضد العراقيين ، كما استخدمها واستخدم الارمن من قبل ضد الاتراك ، هو وحده المسؤول في الحقيقة عن المصير المؤلم الذي صارت اليه هذه الشعوب ، وقدمرت من قبل عليها قرون وهي آمنة في بلادها في هذا الشرق الوديع ؛ وهو وحده المسؤول عن الارواح البريئة التي هدرت دماؤها في آسيا الصغرى وفي جبال كردستان وفي العراق ، ضحية للتعصب الاعوج الذي أثاره وغذاه واستخدمه في تحقيق مطامعه ، وهو لا زال يكرر إثارته من وقت لآخر لإشغال الشعوب بالنزاع فيما بينها عن العمل على مقاومته والتخلص منه ، وهو سبب كل الشرور .

إن من أمضى الاسلحة التي استخدمها الاستعمار ولا زال يستخدمها في هذا الشرق ، سلاح العنصرية ، التي أثارها وسخر لها من حمل لواءها من صنائعه ومن لف لفهم من قصراء النظر ، فراحوا يقيمون في هـــذا الفضاء الفسيح أعظم الامبراطوريات ، ليشغلوا الناس عن الواقع بالاوهام ، ويثيروا النعرات العنصرية ، فيزيدوا الشرق ضعفاً على ضعفه فالقضية العربية ، التي رأينا كيف أوجدها الاستعمار الانكليزي والفرنسي في الشرق بقصد استخدامها ضد الوحدة الاسلامية ؛ وكذلك القضية الكردية ؛ هما من جملة الاسلحة التي ركن اليها الاستعمار الانكليزي في الشرق لإثارة روح العداء والتفرقة بين العرب والاكراد والاتراك والايرانيين ، ليحول دون تعاون هذه الشعوب ضد العدو المشترك الذي حرم البعض من حق الحياة ، ونغص العيش على البعض الآخر . إن واجب العراقيين أن ينتبهوا الى هذا الخطر

مصادر الكتاب

مصادر الباب الاول

Ainsworth, William Francis. A Personal Narrative of The Euphrates Expedition. 2 Vols. (London 1888)

Andrew, Sir William. Memoirs of The Euphrates Valley Route. (London 1857)

—— The Euphrates Valley Route To India (London 1882)

—— India and Her Neighbours (London 1878)

Beauchamp. Joan. British Imperialism in India. (London 1934)

Bennet, T. J. " The Past and Present Connections of Great Britain With The Persian Gulf, " in the Journal of The Society of Arts, June 13, 1902

Black, Charles E. Drummond. " A Railway From The Mediterranean To India, " in the Asian Central Society, February 27, 1909

British Documents on The Origins of The War, 1898–1924, Edited by G. P. Gooch and H. W. V. Temperly, Vols. III and IV

Chesney, F. R. " The Results of an Examination of The Red Sea and The Euphrates, Submitted by F. R. Chesney, Captain, Royal Artillery, February, 2, 1833

—— The Expedition for The Survey of The Rivers Euphrates and Tigris. Vols. I and II. (London 1868)

—— Report on The Euphrates Valley Railway (London 1857)

Churchill, Rt. Hon. Winston S. The World Crisis. 1923–1926

Coke, Richard. The Heart of The Middle East. (London 1926)

Curzon, Hon. G. N. (M. P.) Persia and The Persian Question. 2. Vols. (London 1892)

De Warren, Count Edward. " European Interests in Railways in The Valley of the Euphrates, " Reprinted from The Morning Herald of March 30 th, April 4 th. 11 th and 18 th. 1911

Dunn, Richard G. " British Interests in The Persian Gulf, " in The Central Asian Society, January 9, 1907

Dutt, R. Palme. Modern India. (London 1927)

Earle, Edward Mead. Turkey, The Great Powers and The Baghdad Railway (New York 1924)

Encyclopaedia Britannica. " The Persian Gulf, " in The 13 th. and 14 th. Editions

Fitzgerald, Percy. The Great Canal at Suez, Its Political, Engineering and Financial History, with an account of The Struggle of its Projector. 2 Vols. (London 1876)

Fox, Ralph. Colonial Policy of British Imperialism (London 1933)

Hamilton, Angus. Problems of The Middle East. (London 1909)

Heude, Leutinant William. A Voyage up The Persian Gulf and a Journey Overland from India to England in 1817. (London 1819)

Kohnenfeild, Kohn Von, The Strategic Importance of The Euphrates Valley Railway, Translated by C. W. Wilson (London 1873)

Longrigg, S. H. Four Centuries of Modern Iraq (London 1924)

Miles, Colonel S. B. The Countries and Tribes of The Persian Gulf

Moberly, Brig-General F. J. The Campaign in Mesopotamia 1914-1918. 4 Vols. (His Majesty's Stationary office, London 1924-27)

Moon, Parker Thomas. Imperialism and World Politics. (New York 1930)

Parliamentary Debates, House of Lords, Fourth Series, Vol. 121. (1903)

Persian Gulf. Handbook Prepared Under The Direction of The Historical Section of The Foreign Office. No. 76. (His Majesty's Stationary Office. London 1920)

Report of The Select Committee of The House of Commons, dated 22 nd. July, 1872

Sykes, Sir Percy. A History of Persia. 2 Vols. (London 1921)

Wilson, Lt.-Colonel Sir Arnold T. The Persian Gulf (Oxford 1928)

- أمين الريحاني . ملوك العرب . الجزء الثاني

مصادر الباب الثاني

Asquith, Rt. Hon. H. H. (M. P) The Genisis of The War. (London 1923)

British Documents on The Origins of The War 1898-1914. Vol. VI

The Cambridge History of The British Foreign Policy 1783-1919. Vol. III.

Coke, Richard. The Heart of The Middle East

Earle, Edward, Mead. Turkey, The Great Powers and The Baghdad Railway

——. " The Secret Anglo-German Convention of 1914 Regarding Asiatic Turkey, " in The Political Science Quarterly, Vol. XXXVIII, No. 1 of March 1923

Fay, Sidney Bradshaw, The Origins of The World War, Vol. I.

Feis, Herbert. Europe The World Banker, 1870-1914 (Chicago 1930)

German Diplomatic Documents 1871-1914, Vol III, Selected and Translated by E. T. S. Dugdale in 4 Volumes

Gooch, G. P. A History of Modern Europe 1801-1914, (London 1923)

Miller, William. The Ottoman Empire 1801-1903, (London 1913)

Moon, Parker Thomas. Imperialism and World Politics

Parliamentary Debates, House of Commons, Vols. 21. (1911) 22, 53 (1913), 63 (1914), 101 (1910), 120 (1903) and 121 (1903)

—— House of Lords, Vol. 21 (1911) and Vol. 70 (1911)

Parliamentary Papers, No. Cd. 5635, Vol CIII (1911) No. 1.

—— No. Cmd 675

Rohrbach, Paul. German World Policies. Translated by Dr. Edmond Von March. (New York 1915)

مصادر الباب الثالث

American Oil Interests in Mesopotamia. Foreign Policy Association, Information Service, Vol. II, No. 6, May 22, 1926

Anglo-Persian Oil Co. Limited, Protocol Annex (B) of Turco-Persian Frontier Agreement of 4 th and 17 th November 1913

Baker, R. S. Woodraw Wilson and The World Settlement. 2 Vols. (New York 1921)

Bulletin of The Imperial Institute, Vol. 18, 1920

Chesney. F. R. The Expedition. for The Survey of The Rivers Euphrates and Tigris. Vols. I and II

Cotton Growing in Mesopotamia, in The Bullitin of The Imperial Institute, Vol. 18 of 1926

Denny, Ludwell. We Fight For Oil. (New York 1927)

De Warren, Count Edward. European Interest in Railways in the Valley of The Euphrates

Earle, Edward Mead. Turkey, The Great Powers and The Baghdad Railway

—— " The Turkish Petroleum Company—A Study in Oleaginous Diplomacy, " in The Political Science Quarterly, Vol. XXXIX, No. 2 of June 1924

—— " The Secret Anglo-German Convention of 1914 Regarding Asiatic Turkey "

Encyclopaedia of The Social Sciences, First Edition

Encyclopaedia Britannica, Eleventh Edition

Hanighen, F. C. and Anton Zischka, The Secret War (London 1935)

Iraq and British Treaties, in The Foreign Policy Association, Information Service, Vol. VI. No. 12, August 20, 1930

Maunsell, F. " The Mesopotamian Petroleum Field, " in The Geographical Journal, Vol. IX. 1897

Memorandum of Association of Iraq Petroleum Company Limited, Reprinted October, 1928, Bischoff, Coxe, Bischoff and Thomson, 4, Great Winchester Street. E. C. 2. London

Moon, Parker Thomas, Imperialism and World Politics

Notes on The Wheates and Barleys of Mesopotamia Together With Observations on Local Conditions, Agricultural Dept. (Baghdad 1920)

Parliamentary Papers, Cmd. 675 of 1921. " Correspondance Between His Majesty's Government and The United States Ambassador Respecting Economic Rights in The Mandated Territories."

Report of The Department of Agriculture in Mesopotamia For The Year 1920. (Baghdad 1921)

Sidney Law and L. C. Sanders. The Political History of England, 1837–1901

Soofee, A. A, The Economics of Rice and Cotton Cultivation in The Dialah Liwah. Department of Agriculture, Iraq. (Baghdad 1925)

Temperly, H. W. V. A History of The Peace Conference in Paris. Vol. VI. (London 1924)

Thomas, Captain G. R. The Possibilities of Mesopotamia as a Cotton Growing Country. Notes : II, III and IV. (Baghdad 1919 and 1920)

Turkish Petroleum Company Ltd. — A Convention With Government of Iraq. Made The 14 th. of March, 1925 (London and Baghdad 1925)

[وكذلك : « شركة النفط العراقية المحدودة » اتفاق معقود فى ٢٤ آذار سنة ١٩٣١ لتعديل المقاولة المعقودة فى ١٤ آذار سنة ١٩٢٥ مع الحكومة العراقية (الوقائع العراقية ، العدد ٩٨٢ ، ١٩ مايس سنة ١٩٣١)

و « الاتفاق المعقود بين الحكومة العراقية وشركة استثمار النفط البريطانية المحدودة » (الوقائع العراقية ، العدد ١١٣٥ ، ٩ مايس سنة ١٩٣٢)

و « شركة النفط الانكليزية الفارسية » النص العربي لاتفاقية دارسي]

Willcocks, Sir William. The Recreation of Chaldea (Cairo 1903)

—— The Irrigation of Mesopotamia, Second Edition. (London 1917)

—— " Mesopotamia, Past, Present, and Future, " in The Geographical Journal of January 1910

Wilson, Sir Arnold T. Loyalties, Mesopotamia 1914–1917 (London 1930)

—— Mesopotamia 1917–1920. A Clash of Loyalties. (London 1931)

Wimshurst, C. R A Note on The Wheats and Barleys of Mesopotamia, Togather With Observations on Local Conditions. Agricultural Directorate, Mesopotamia (Baghdad 1920)

« اسطورة النفط » وهي ست محاضرات ألقاها السر جون كادمن سنة ١٩٣٠ (مطبعة الاوقات البغدادية ، بغداد ١٩٣٠)

« النفط مستعبد الشعوب » يوسف ابراهيم يزبك (بيروت ١٩٣٤)

مصادر الباب الرابع

Adnan, Dr. A. " Ten Years of Republic in Turkey " in The Political Quarterly, April–June, 1935

Andrew, C. F. " The Renaissance in India, Its Missionary Aspect. " Young People's Missionary Movement, (London, 1912)

Baker, R. S. Woodraw Wilson and The World Settlement

Beauchamp, Joan. British Imperialism in India

Bell, Lady Florance. The Letters of Gertrude Bell, 2 Vols. (New York 1927)

Churchill, W. S. The World Crisis 1910-1915

Cocks, F. Seymoure. The Secret Treaties and Understandings

Coke, Richard. The Arabs Place in The Sun. (London 1929)

Current History. December 1931; June, July and September 1932 September 1933; February, March, April and June 1934

Earle, Edward Mead. Turkey, The Great Powers and The Baghdad Railway

Fox, Ralph. Colonial Policy of British Imperialism

Kohn, Hans. A History of Nationalism in The East. (New York 1929)

—— Nationalism and Imperialism in The Hither East. (London 1932)

Kruger, Dr. K. Kemalist Turkey and The Middle East (London 1932)

Laussanne Conference on Near Eastern Affairs, 1922-1923. Cmd 1814. His Majesty's Stationary Office. (London 1923)

Litrary Digest, December 3, 1927

Moon, Parker Thomas. Imperialism and World Politics

Newmann, Major E. W. Polson. The Middle East (London 1929)

Parliamentary Papers, 1917, No. Cd. 8610 " Report of The Commission Appointed by Act of Parliament To Enquire into The Operations of War in Mesopotamia. "

Reports On The Adminstration of Iraq. Issued by The Colonial Office. His Majesty's Stationary Office, London

Stalin, Lininism in Theory and Practice

Temperly, H. W. V, A History of The Peace Conference

Treaty of Alliance Between The United Kingdom and Iraq Signed at Baghdad, 30 th. June 1930 Together With Notes Exchanged. Cmd. 3627. His Majesty's Stationary Office. (London 1930).

وكذلك النص العربي : « المعاهدة العراقية البريطانية وملحقاتها » (مطبعة الحكومة ، بغداد ١٩٣٠)

قاموس الاعلام

(أ)

(ل)

(م)

(ن)


